لبنان

والنهضة العربية الحديثة

وهي رسالة قدّمت الى الدائرة العربية في الجامعة الاميركية في بيروت تتميما للشروط المطلوبة لنيل شهادة "استاذ في العلوم"

ايلول ١٩٥٣

تأليف

جبران الخوري مسعود

مراجـــع البحـــث
مـرتبة حسب الترتـيب الابجــدى

١) ـ المراجـع العـربية

ابن عبد ربه — العقد الفريد ـ طبعة احمد امين

ابو جوده (يوسف) — الامير فخر الدين المعني الثاني ـ محاضرة في المعهـــد الثقافي الايطالي ـ سنة ١٩٥٣

ابو شبكه (الياس) — الالحان ـ بيروت ـ سنة ١٩٤١

ابو شبكه (الياس) — روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ سنة ١٩٤٥

ابو ماضي (ايليا) — الجداول ـ نيويورك ـ سنة ١٩٢٧

ابو ماضي (ايليا) — جريدة "السمير" ـ عدد ٢٦ كانون الثاني ـ سنة ١٩٤٨

الاحدب (الشيخ ابراهيم) — رد السهم عن التصويب ولإبعاده عن مرمى الصواب بالتقريب ـ الاستانة ـ سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤ م ٠)

ارسلان (شكيب) — النهضة العربية فـي العصر الحاضر ـ مصر ـ سنة ؟

اسحاق (اديب) — الدرر ـ بيروت ـ سنة ١٩٠٩

الاسكندرى (الشيخ احمد) — الوسيط فـي الادب العربي وتاريخه ـ مصر ـ ١٩٥٠

الاسير (الشيخ يوسف) — رد الشهم للسهم ـ الاستانة ـ سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤م ٠)

ايوب (رشيد) — اغاني الدرويش ـ نيويورك ـ سنة ١٩٢٨

باحوط (وديع) فـي — مجموعة الرابطـة القلمـية

"البدوى الملثم" — شاعر الطيارة فوزى معلوف ـ مصر ـ ١٩٤٨

البستاني (بطرس) — ادباء العرب في الاندلس وعصر الانبعاث ـ بيروت ـ ١٩٤٤

البستاني (بطرس الكبير) فـي — اعلام اللبنانيين فـي نهضة الاداب العـربية ـ بيروت ١٩٤٨

البستاني (فؤاد افرام) — تاريخ التعليم في لبنان ـ محاضرة في "محاضرات الندوة" ـ السنة الرابعة ـ النشرة ٩ ـ ١٢ ـ سنة ١٩٥٠

بلبيل (ادمون) تاريخ لبنان العام، المطول الثاني – جونيه – سنة ١٩٤٦

تقلا (سليم) في الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث

جبران (جبران خليل) الارواح المتمردة – مجموعة مؤلفات جبران

جبران (جبران خليل) مجموعة مؤلفات جبران – بيروت – ١٩٥٠

جبران (جبران خليل) المواكب – بيروت – سنة ؟

الجبرتي (عبد الرحمن) عجائب الاثار في التراجم والاخبار – مصر – سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م.) – الجزء الثالث، المجلد الثاني.

جدانوف (اندريه) ان الادب كان مسؤولا – ترجمة رئيف خورى – بيروت – ١٩٤٨

جدى (سليم) ديوان سليم نصرالله جدى – جمعه جرجي نقولا باز – بيروت – سنة ١٩٥٠

الجر (شكرالله) في ذكرى الهجرة

جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية مجموعة خطب – بيروت – سنة ؟

جمعية زهرة الاداب منتخبات – بيروت – سنة ١٩٢٤ – ١٩٢٥

جمعية السيدات المسيحية لمنع المسكرات والمخدرات بالقطر المصرى التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميم مصر سنة ؟

جمعية العروة الوثقى العروة – المجلد الاول – سنة ١٩٣٦

الحاج (نعمه) ديوان نعمة الحاج – الجزء الاول – نيويورك – سنة ١٩٢٣

الحداد (نجيب) منتخبات – الاسكندرية – سنة ١٩٠٣

حداد (ندره) في مجموعة الرابطة القلمية

الخالدى (الشيخ احمد) تاريخ الامير فخرالدين المعني – بيروت – سنة ١٩٣٦

خالدى (مصطفى) التبشير والاستعمار – بيروت – سنة ١٩٥٣

خورى (رئيف) ثورة بيدبا – بيروت – سنة ؟

خورى (رئيف) حقوق الانسان، من اين والى اين المصير – دمشق – ١٩٣٧

بليبل (ادمون)	تاريخ لبنان العام ، المطول الثاني ـ جونيه ـ سنة ١٩٤٦
تقلا (سليم) في	الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث
جبران (جبران خليل)	الارواح المتمردة ـ مجموعة مؤلفات جبران
جبران (جبران خليل)	مجموعة مؤلفات جبران ـ بيروت ـ ١٩٥٠
جبران (جبران خليل)	المواكب ـ بيروت ـ سنة ؟
الجبرتي (عبد الرحمن)	عجائب الاثار في التراجم والاخبار ـ مصر ـ سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) ـ الجزء الثالث ، المجلد الثاني .
جدانوف (اندريه)	ان الادب كان مسؤولا ـ ترجمة رئيف خوري ـ بيروت ـ ١٩٤٨
جدى (سليم)	ديوان سليم نصرالله جدى ـ جمعه جرجي نقولا باز ـ بيروت ـ سنة ١٩٥٠
الجر (شكرالله) في	ذكرى الهجرة
جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية	مجموعة خطب ـ بيروت ـ سنة ؟
جمعية زهرة الاداب	منتخبات ـ بيروت ـ سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥
جمعية السيدات المسيحية لمنع المسكرات والمخدرات بالقطر المصرى	التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميم مصر سنة ؟
جمعية العروة الوثقى	العروة ـ المجلد الاول ـ سنة ١٩٣٦
الحاج (نعمه)	ديوان نعمة الحاج ـ الجزء الاول ـ نيويورك ـ سنة ١٩٢٣
الحداد (نجيب)	منتخبات ـ الاسكندرية ـ سنة ١٩٠٣
حداد (ندره) في	مجموعة الرابطة القلمية
الخالدى (الشيخ احمد)	تاريخ الامير فخرالدين المعني ـ بيروت ـ سنة ١٩٣٦
خالدى (مصطفى)	التبشير والاستعمار ـ بيروت ـ سنة ١٩٥٣
خورى (رئيف)	ثورة بيدبا ـ بيروت ـ سنة ؟
خورى (رئيف)	حقوق الانسان ، من اين والى اين المصير ـ دمشق ـ ١٩٣٧

خورى (رئيف)	الفكر العربي الحديث ، اثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي ـ بيروت ـ ١٩٤٣
الخورى (الدكتور شاكر)	مجمع المسرات ـ بيروت ـ ١٩٠٩
ديب (وديع)	اطروحة عن الادب المهجرى تقدّم بها لنيل شهادة استاذ في العلوم ، الجامعة الاميركية ـ بيروت
الرابطة القلمية	مجموعة الرابطة القلمية ـ نيويورك ـ سنة ١٩٢١
رابطة الكتاب السوريين	درب الى القمة ـ دمشق ـ سنة ١٩٥٢
روبنصون (ادوارد)	يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا ـ ترجمة اسد شيخاني ـ بيروت ـ سنة ١٩٥٠
الريحاني (امين)	انتم الشعراء ـ بيروت ـ ١٩٣٣
الريحاني (امين)	الريحانيات ـ بيروت ـ ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤
زيدان (جرجي)	تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الثانية ـ مصر ـ سنة ١٩٣٧
السحرتي (مصطفى)	خليل مطران ، الرجل والشاعر ـ مصر ـ سنة ١٩٤٩
سركيس (سليم) في	الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث
سعاده (جبران) في	ذكرى الهجرة
سليمان (فؤاد)	درب القمر ـ بيروت ـ سنة ١٩٥٢
سماحه (مسعود)	ديوان مسعود سماحه ـ بروكلن ـ سنة ١٩٣٨
الشدياق (احمد فارس)	غنية الطالب ومنية الراغب ـ الاستانة ـ سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨ م .) ـ الطبعة الثانية
الشهابي (الامير حيدر)	لبنان في عهد الامراء الشهابيين ـ نشر رستم والبستاني ـ بيروت ـ سنة ١٩٣٣

صالح (الياس) في الفكر العربي الحديث
صفير (الخوري بطرس) الامير بشير الشهابي – سنة ١٩٥٠

ضعون (توفيق) ذكرى الهجرة – سان باولو – سنة ١٩٤٥ – ١٩٤٦

الطهطاوى (رفاعة رافع) تخليص الابريز الى تلخيص باريز – مصر – سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م.)

عقل (وديع) ديوان وديع عقل – بيروت – سنة ١٩٤٠
عقيقي (نجيب) المستشرقون – الطبعة الثانية – مصر – سنة ١٩٤٧
عناني (الشيخ مصطفى) راجع : الاسكندرى

الغزى (الشيخ نجم الدين) الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة – الجزء الاول – نشر جبرائيل جبور – بيروت – ١٩٤٥
الغضبان (عادل) الشيخ نجيب الحداد – مصر – ١٩٥٣
غيز (هنرى) بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن – ترجمة مارون عبود – بيروت – ١٩٥٠

الفاخورى (حنا) تاريخ الادب العربي – حريصا – سنة ١٩٥١
فاخورى (عمر) اديب في السوق – بيروت – سنة ١٩٤٢
فاخورى (عمر) الحقيقة اللبنانية – بيروت – ١٩٤٤
فاخورى (عمر) لا هوادة – بيروت – ١٩٤٢
فارس (فيليكس) في الفكر العربي الحديث
فريحه (انيس) تبسيط قواعد اللغة – بيروت – سنة ١٩٥٣
فياض (الياس) ديوان فياض – الجزء الاول – بيروت – سنة ١٩١٨
فياض (نقولا) ذكريات ادبية – محاضرة في "محاضرات الندورة" – النشرة ٣ – ٤ – سنة ١٩٥٢
فياض (نقولا) رفيف الاقحوان – بيروت – سنة ١٩٥٠

قازان (نعمه)	معلقة الارز – سان باولو – سنة ١٩٣٨
القروى (الشاعر)	الاعاصير – سان باولو – سنة ؟
القروى (الشاعر)	القرويات – سان باولو – سنة ١٩٢٢
قنصل (الياس)	الاسلاك الشائكة – البرازيل – سنة ١٩٢٨ – ١٩٢٩
كارن (جون)	رحلة في لبنان في الثلث الاول من القرن التاسع عشر – ترجمة رئيف خورى – بيروت – سنة ١٩٤٨
كتسغليس (وليم) في	مجموعة الرابطة القلمية
كرد علي (محمد)	خطط الشام – الجزء الرابع – دمشق – سنة ١٩٢٦
كفورى (جورج)	اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها – بيروت – سنة ؟
كمبغماير في	ذكرى فوزى معلوف
لطف الله (فيليب) في	ذكرى الهجرة
لونكريك	اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث – ترجمة جعفر خياط – الطبعة الثانية – بيروت – سنة ١٩٤٩
المؤتمر العام الثالث لمنظمة الاونسكو	اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية – بيروت – سنة ١٩٤٨
مجلة الورود	————————
مدور (فريد)	شعلة من الصحراء – بيروت – سنة ؟
مدور (فريد)	كذبه يا ابي – بيروت – سنة ؟
مشرق (نجيب)	المشرقيات – حريصا – سنة ١٩٣١
مطران (خليل)	ديوان الخليل – مصر – ١٩٤٩
معلوف (شفيق)	عبقر – الطبعة الثالثة – البرازيل – سنة ١٩٤٩
معلوف (شفيق)	نداء المجاذيف – بيروت – سنة ١٩٥٢
معلوف (فوزى)	على بساط الريح – ريو دى جانيرو – سنة ١٩٢٩

المقدسي (انيس الخورى) الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ـ بيروت ـ سنة ١٩٥٢

المقّرى (احمد ابن محمد) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ـ مصر ـ ١٩٤٩

ناصر الدين (امين) الالهام ـ لبنان ـ ١٩٣١م

ناصر الدين (امين) صدى الخاطر ـ لبنان ـ سنة ١٩١٣

نخله (رشيد) محسن الهزان ـ بيروت ـ سنة ١٩٣٦

نصولي (انيس) اسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ـ بيروت ـ سنة ١٩٢٦

نعيمه (ميخائيل) الاباء والبنون ـ نيويورك ـ سنة ١٩١٧

نعيمه (ميخائيل) كان ما كان ـ بيروت ـ سنة ١٩٣٧

نعيمه (ميخائيل) همس الجفون ـ بيروت ـ سنة ١٩٤٣

نيكل (ا٠ ر٠) مختارات من الشعر الاندلسي ـ باشراف عمر فروخ ـ بيروت سنة ١٩٤٩

الوليد (ابو الفضل) في ذكرى الهجرة

وهيبه (منير) الزجل ـ حريصا ـ سنة ١٩٥٢

اليازجي (ابراهيم) لغة الجرائد ـ مصر ـ سنة ؟

اليازجي (خليل) المروءة والوفاء ـ مصر ـ سنة ١٩٠٢ (الطبعة الثانية)

× × × × × × × × ذكرى فوزى معلوف ـ زحله ـ سنة ؟

× × × × × × × × لبنان في عهد الاستقلال ـ بيروت ـ سنة ١٩٤٧

٢) ـ المراجـــع الاجنبيـــة

I) Abd _ El - Jalil - Brève histoire de la littérature arabe - 5e édition - Paris, I947

2) Aoun (Faiez) Fauzi Ma'lûf et son oeuvre - Paris I937

3) Arcache (Jeanne) l'Emir à la croix : Fakhreddine II Ma'an - Paris, I945

4) Davis (Short history of the Near-East

5) Divers hostorien et archéologues Précis de l'histoire d'Égypte - T. 3

6) Hayes (Carlton) The historical evolution of Modern Nationalism - New - York, I93I

7) Hitti (Philip) History of Syria - London, I95I

8) Isaac (J) l'Epoque révolutionnaire - Paris, I950

9) Johannet (René) Le principe des nationalités - Paris, ?

I0) Malet et Isaac Histoire contemporaine -

II) Nasrallah (P.J.) l'Imprimerie au Liban - Beyrouth, I948

I2) Raphael (P.P.) Le rôle du collège maronite romain dans l'orientalisme au XVIIe et XVIIIe siècles - Beyrouth,

I3) Volney (M.C.F.) Voyage en Syrie et en Egypte - Paris; 2e édition

الاهـــــــــــداء ...

الـى العقـول الـنيّرة الخـلاّقة

فـــي كـل مجتمــع
وفـي كـل عصـــر

جبران مسعود

توطئة

تـــــوطـــئة

يوم زحفت ارجال هولاكو على بغداد تقضي على معالم الفكر والعمران، كتب على مشارقة العرب الهوان ،" فصارت قوة اهل البلاد ضعفا ، ومسخ مجدهم ذلة وخسفا ." وقد انتقل العرب في الشرق من نكبة الى نكبة تتقاذفهم ايدى الفاتحين الذين لم يكونوا ليرعوا للعقل ومحصول العقل حرمة .. فما ان تمكّن التتر من البلاد ، حتى اطلّت من مصر طلائع المماليك الذين قيّض لهم ان ينكبوا الشرق العربي بحكم دام حتى اوائل القرن السادس عشر . وكأنّ حروب المماليك ضد التتر والصليبيين ، وحملاتهم على السكان القابعين في جبال لبنان ، ومشاكلهم الداخلية التي حوّلت مصر الى مسرح للخيانات والمؤامرات ، لم تكف العالم العربي ، فانقض السلطان سليم العثماني على سوريا ولبنان وفلسطين ومصر ، فخيّم بذلك على بلادنا عهد قاتم سمّرنا في الجهل ، بينما الغرب الذى نشأ على غذاء الفكر الاسلامي يسير الى الامام ، علومه تزدهر ، وعقله يصقل ، وآدابه تتبلور ، حتى اصبح اليوم واصبحنا وبيننا وبينه فروق تكاد لا تزيلها قوة .

هذا ، وما تلبث المصيبة ان تعم ، فكأن الحدثان يأبى الا ان يصيب عرب الغرب الاسلامي ما اصاب اخوانهم في الشرق ، فتكتسح جيوش فردينان وايزابلّا معاقل العرب في الاندلس ، وتقضي ، او هي تحاول ان تقضي ، على كل ما هو عربي ، ادبا كان ام دينا ام نزعة ... فينتحب المسلمون

على ديار من الاسلام خالية قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان ١)

ويهيمون ، لا يلوون على امر ، قرصانا يثأرون من سفن الاسبان والمسيحيين لما حلّ بهم ، او عمالا وصنّاعا " تفرقوا ببلاد المغرب الاقصى من بر العدوة مع ٢) بلاد افريقية ، فاما اهل البادية فمالوا في البوادى الى ما اعتادوه ، وداخلوا

---

(١) نيكل ـ مختارات من الشعر الاندلسي ـ من قصيدة لابي البقاء الرندى ـ ص ٢٠١

(٢) لعلها "من" ؟

اهلها، فاستنبطوا المياه، وغرسوا الاشجار، وعلّموهم اشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، واما اهل الحواضر فمالوا الى الحواضر واستوطنوها، واما اهل الصنائع فانهم فاقوا اهل البلاد، وقطعوا معاشهم، واخملوا اعمالهم، وصيّروهم اتباعا لهم ومتصرفين بين ايديهم ..." ١)

بعد عهود سيطر فيها الجمود على عقول العرب، عاد الى العربية وآدابها التي سقطت كسيرة خابية خلل قرون وقرون، قبس جديد ما لبث ان تصاعد ضياؤه قويّا منيرا. وما لبثت يدان ان تهافتتا الى هذا القبس تقطعان به الدرب الوعر: يد من ضفاف النيل، ويد من مشارف لبنان. وكثيرا ما كانت احدى اليدين تتفجّر بالدم المبارك الذى يتسرب اليها من اليد الثانية.

حبت المناسبات المختلفة لبنان نظاما اداريا جعله يتمتع، دون سائر البلدان العربية، ببعض الاستقلال الداخلي ايام العثمانيين. فبعد الخطاب الذى القاه فخرالدين الاول في حضرة السلطان سليم العثماني، اعجب العاهل التركي بخضوع الامير اللبناني وباسرافه في كيل الالقاب والمدائح والادعية، ولم يكن هو اقل من الامير مجاملة، فاطلق عليه لقب "سلطان البر" وسلّطه على الشوف والمقاطعات المجاورة. وقد احتفظ الامراء المعنيون، والامراء الشهابيون بعدهم، باستقلال داخلي كان يضعف ويقوى حسب ما يكون عليه الامير من صلابة او تخاذل. وبعد نجاح المؤامرة التي حيكت في الاستانة لازالة النظام الاستقلالي والامارة اللبنانية في سنة ١٨٤٢، عرف لبنان نظاما هو اقرب الى نظام سائر الولايات منه الى النظام الحر المنعتق. ولكن عهد المتصرفية اعاد اليه بعض امتيازاته فاصبح سنجقا مستقلا، مبدئيا، من الناحية الادارية. وقد ساعدت هذه الاوضاع الداخلية الخاصة لبنان في التقدم وتبوّؤ المرتبة الاولى بين جيرانه في ميدان الثقافة. وقد وصف حتي هذا الوضع بقوله: "بين المقاطعات الشرقية المختلفة التي خضعت للنفوذ العثماني كان لبنان اقلها تأثرا بالمظالم التي فرضها عبد الحميد. فان نظام الحكم الذاتي الذى تمتّع به لبنان بعد سنة ١٨٦١ ساعده على المحافظة على تيار الافكار والتأثيرات الثقافية التي كانت تتسرب اليه من الغرب منذ عهد بعيد، والتي غذّاها فخرالدين وبشير" ٢)

---

(١) المقري - جزء ٤ - ص ١٤٨ (٢) Hitti - P. 701

ولئن قامت فئة تعلن ان النهضة لم تكن لتتفتح اكمامها لولا حملة بونابرت على مصر ، ولولا همة محمد علي وتغانيه ، وان مصر بالتالي هي مهد النهضة الوحيد ، فان الحقيقة تأبى علينا الا ان نعلن ان النهضة ليست وليدة حملة بونابرت ، على ما حقنتها به هذه الحملة من لقاحات ثقافية واجتماعية جديدة ، وانها ليست خليقة محمد علي فحسب ، مع ما يذله هذا الحاكم في سبيلها ، بل هي كذلك بنت لبنان ، نهلت من روحه ، وترعرعت على ساعده ، فكان نعم الاب ، حضنها يوم بسمت لطلتها دنياه منذ القرن السادس عشر ، وتعهّدها حتى استقام عودها ، وكان دائما يسهر على خطواتها في ارضه ، او يرسل ابناءه الى مصر ينوبون عنه بهذه المهمة ابان اغترابها . فحين كان اللبنانيون يضيقون بحكامهم ذرعا ، كانوا يرحلون الى حيث تؤمّن لهم حرية الفكر ، فيقدمون للنهضة خدمات جلّى . يقول عبد الجليل : " في مصر ، وجد اللبنانيون والسوريون الذين حملتهم مظالم الترك على الهجرة ميدانا واسعا للنشاط ، فعملوا فيه كدعاة متحمسين للعروبة والعربية . وقد بلغت الحماسة ببعضهم درجة شعروا بها بانهم في دعوتهم من اتباع النبي العربي الذى كان اول من مهّد للعربية سبيل الانتشار . " ١) وسيتاح لنا في الفصول التالية ان نثبت اثر المهاجرين الى مصر في مختلف ميادين النهضة .

اتيت بهذه اللمحة التاريخية كي يرتسم واضحا في الاذهان الدور الذى مثّله لبنان على مسرح النهضة العربية . لقد ساهم لبنان بقسط وافر من النهضة عن طريقين : الطريق الاولى هي الاتصال المباشر الذى كان يجمع بين لبنان والغرب منذ اقدم العصور ، والذى اتخذ طابعا دينيا ما لبث ان اتسم ، باحكام الضرورة ، بسمة الثقافة ، ذلك لان المبشرين ادركوا ان سبل الاقناع تكون انفذ اذا ما درّبوا الناس صغارا على ان يسلكوا طريق مفاهيمهم الدينية الخاصة ، فانشأوا المدارس لاغراض دينية في الاصل ، فاتت تلك المدارس على العلم بالنفع من حيث قصد اربابها الى الكسب الديني الذى لم يكن لينزه دائما عن صلات له بالكسب السياسي . اما الطريق الثانية فهي رعيل الادمغة التي جنّدها لبنان الى مصر والمهاجر ، فكانت

---

(١) Abd-El-Jalil . P. 220

رسل خير تحمل الى حيث حلّت بذور العبقرية التي طالما حفلت بها تربة الفكر في لبنان.

وساحاول في الفصول التالية ان ابسط جواء النهضة التي حلّق اللبنانيون فيها ، متقفيا مع النهضة الى اسبابها البعيدة ، دارسا مظاهرها ، عارضا مميزاتها ، مقدما لها ، اتماما للفائدة وتيسيرا للفهم ، بلمحة عن الاحوال الثقافية والادبية في عصر الانحطاط ، ايمانا مني بان تذوّق الجميل في النهضة يكون اعمق اذا وقف القارئ على احوال ما قبل النهضة . وقد بذلت جهدي لاقف على اكبر كمية ممكنة من آثار ادباء النهضة وشعرائها من اللبنانيين المقيمين والمغتربين، جاعلا دأبي البحث في المؤثرات التي حركت اقلام الكتّاب ، وفي اظهر الاتجاهات التي كان لهم فيها جولات منظمة . وقد كان هدفي ، يوم فكّرت بدراسة الموضوع، ان الم بنواحي النهضة جميعا ، فلا اقف عند ناحية مهملا النواحي الاخرى ، فآمل ان اوفّق في عملي الى ما فيه تحقيق للغاية التي ارنو اليها .

كــــــارثــــة الادب

الأحـــوال الثقافية العامة

قبل ان استعرض الاحوال الثقافية التي كانت سائدة قبل النهضة ، لا بد لي من التحدث عن ناحيتين من النواحي التي كان لها على الحياة الخاصة والعامة في عهد العثمانيين اثر بيّن : اعني بهما الناحية الاقتصادية والناحية الاداريــــة والسياسيــة . ذلك ان الاقتصاد والسياسة والادارة توجه الحياة العامة وتوجه بالتالي الثقافة ، وهي صورة للحياة العامة ، الى الازدهار او الى التقهقر .

يكاد تاريخ البلاد العربية اثناء الاحتلال العثماني يكون متصلا بتاريـــخ الولاة ومن تبعهم من الانكشارية والموظفين ... ذلك ان الوالي كان سيد البلاد المطلق ، يتصرف بمقدراتها دون ان يخضع لرقابة عالية يفرضها عليه الباب العالـــي . ومتى علمنا ان الوالي كان كثيرا ما يدفع ثمن منصبه ، ادركنا الحكمة من جعلـــه القرش محورا يدور حوله تفكيره . ولكن الوالي لم يكن وحده يسعى الى الكسب، بـل هنالك جماعة الانكشارية التي قامت على اكتافها فتوحات كثيرة ، والتي اعماها الظفـر فاصبحت عالة على الدولة تجر عليها الويلات لما تحدثه في انحائها من اضطرابات تعود في معظمها الى مطالبة هذه الجماعة بالاموال ، والى سطوها على المحـالّ والبيوت ناهبة .

هذا، ودون الوالي ، ودون الانكشارية ، لصوص محترفون ، وقفوا همهــم للسرقة القانونية : الرشوة . لم يكن بعض الموظفين يرون في الارتشاء غير عـــادة درجوا عليها ليؤمّنوا بها حاجاتهم المادية ، ذلك ان الجو الذى اضفته الادارة على عمال الدولة كان جوا يوحي بالخبث والمحاباة والرياء والصفاقة .

هذه العقلية ، عقلية القرش، سيطرت على البلاد العربية طيلة اربعـــة قرون . فهل من المنتظر ان تتمخض عقلية القرش هذه عن غير المادة ؟ هل مــــن المنتظر ان تنتج عقلية القرش ثقافة يعتز بها ويفاخر ؟ لقد تحولـــت اتجاهـــات الناس نحو البهيمية ، فانحصر همهم في الكسب المادى بدلا من ان يفسحوا مجالا للروح ان تسرح وللذوق ان يحلّق . فكنت تراهم ، وكأن الايام في نظرهم قـــروش متراصّة ، وكأن الوجود في شريعتهم ضريبة يؤدونها ثم يولّون وكأنهـــم لم يكونـــوا . لقد تأثر العرب بحكامهم ، وفي مختلف الميادين ، فتعثمنـــوا ، وتـــتركـــوا ،

فضعفت فيهم ملكة العربية كما سنرى في فصل لاحق ، واصاب العربية وآدابها من هذا الوضع غبن طعنها في الصميم ، وأودى بها الى زوايا الانحطاط ، فليس من المستغرب بعد هذا كله ان يحظر قانون القائمقامية على الموظفين تقاضي القرش الحرام وقبول الرشوة تحت طائلة العقاب (١) وان يخصص لحظر الرشوة مادة من المواد الثماني عشرة التي تألف منها دستور المتصرفية ٠ ٢)

وهنالك آفة اخرى اضافت الى مساوئ الحالة التي ذكرت مساوئ لعبت دورا هاما في بعث البلبلة في صفوف العرب ، الا وهي القوة الغاشمة التي طالما تسلح بها المحتلون ٠ منذ ايام المماليك ، والثورات اثر الثورات تتوالى ، فيلجأ الحكام الى القرش احيانا ، ولكنهم غالبا ما كانوا يلجأون الى السيف يطفئون به شرّة الثائرين ٠ ولم يكن العثمانيون الذين ورثوا المماليك اقل من هؤلاء بطشا٠ فقد اغرق السلاطين الاتراك بلاطاتهم بدماء ذويهم ، فتلوا اولادهم واخوتهم خوفا من ان يحملهم الطمع يوما على اغتصاب العرش ٣) ويوم تخطى الفاتحون جبال طورس حملوا وزر الدم معهم الى بلادنا دون حرج ، فحلت في ديار العرب الفتن تبيد معالم الطمأنينة ٠

ففي لبنان ، اثارها العثمانيون حربا ضروسا على المعنيين والشهابيين ، محاولين القضاء على ما تبقّى من استقلال لبنان الذاتي ، فجردوا الحملات على قرقماز وفخرالدين ، وشجعوا الجزار على ارهاق اللبنانيين ايام الامير يوسف والامير بشير الثاني ٠ ويبدو ان لغة السيف لاقت في عرف الامير بشير الثاني صدى مستحبا ، اذ انه راح يطبق خطة الجزار ، يسمل عين من تحاول "عينه ان تعلو على الحاجب" ، ويشنق ، ويذبح ، ويخنق ٠٠٠ ولم يكف البلاد ما عانته ، فقام الباب العالي ، وقامت غيره من "الابواب العالية" في اوروبا ، تحرض الاخ على اخيه ، فاشعلوا نار ثورة في لبنان لاسباب سياسية ، ولكنهم اثاروها دينية ، فكانت ٠

---

(١) ادمون بليبل – تاريخ لبنان العام – المطول الثاني – ص ٣٩٦

(٢) ادمون بليبل – تاريخ لبنان العام – المطول الثاني – ص ٤٢٦ ٠ تقول المادة: يجب ان يكون الحكام باجمعهم موظفين ٠ وان اقدم احد هم على ارتكاب الرشوة فهو مستحق للعزل بل مستوجب للتأديب على قدر قباحته ٠

(٣) راجع اخبار بيازيد الاول وبيازيد الثاني وسليم في : Davis _ P.P. 181 - 219

وفي العراق ، كان الولاة يرتكبون جرائمهم فلا يلاقون احيانا من الدولة ما يردعهم · ولم يقتصر التفظيع في العراق على الولاة او الحكام ، بل حلت الحروب القاسية بين السنيين والشيعيين ، بين الاتراك والايرانيين ، فكثرت القتلى من الطرفين · واليك وصفا مختصرا لبعض ما كان يجرى : " امر مراد بذبح جميع الايرانيين ايـــن وجدوا ، وكان الكثير منهم قد التجأ الى المعسكر العثماني · فقتل الجميع وكـــان بين المقتولين ثلاثمئة زائر كانوا قد عبروا في تلك الايام لزيارة الكاظمين · وجيء بالف من الاسرى التاعسين بين يدى السلطان ، فامر بقطع رؤوسهم فقطعت حالا · ولم يترك اى ايراني حيا لا في المعسكر ولا في حواليه ، ولا في المدينة نفسها · ومـــن المحتمل ان هذه المذبحة لم يفرّق فيها جيدا بين العرب والفرس لان عدد المقتولين كان عظيما يقدر بثلاثين الفا · وبذا روت هذه المذبحة الاخيرة عطش السلطان الفاتح للدماء " ١)

وفي مصر كانت المناوشات بين الوالي العثماني والبك المملوك وقـــائـد الجيش مستمرة · فالوالي يحاول اخضاع المماليك والقواد ، والقائد يحاول ان ينـــال حظوة في عين السلطان بدسه على الوالي ، والمماليك ، شأنهم في ذلك شـأن كل حاكم اذل ، يحاولون ان يوسعوا خرق الخلاف بين العثمانيين ، وان يـوحّدوا صفوفهم تحت سلطة " شيخ البلد " · ولكن مشيخة البلد كانت كثيرا ما تحول نقمـــة المماليك عن العثمانيين اليهم ، فيتناحر الزعماء " في حرب شعواء دامية · وكانـــت القوة الغاشمة تنتصر دائما · اما المغلوب فكان غالبا ما يقتل ، او يحمل على الفرار الى الصعيد حيث ينتظر نصرة الحظ ليعود الى القتال من جديد " ٢)

اما الحجاز فقد رزح تحت نظام اقطاعي ارستوقراطي ظالم · تجلت مظاهر هذا النظام في قانون "ابي نمي" ٣) الذى به سيس البشر على ايدى "الاشراف"

---

(١) لونكريك — اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث — ص ٧٠ — ٧١

(٢) Divers historiens et archéologues - Précis ... P. 41

(٣) قانون اصدره الشريف "ابو نمي" احد حكام الحجاز · وفيما يلي بعض مواد القانون ، وهو يدل دلالة صريحة على ما فيه من تعسف وتعال ، وعلى ما كان يعانيه السكـــان البائسون من جراء تطبيق مفعوله ·

١ — اذا قتل شريف اخذ من اهل القاتل اربعة وقتلوا · ٢ — صافع الشريف تقطع يده

٣ — لا يقتل الشريف اذا قتل غير الشريف · ٤ — الشريف لا يحاكم في مجلس خصمه ·

في لبنان ، وفي العراق ، وفي مصر ، وفي الحجاز ، وفي سوريا ، وفي اليمن ، وفي كل سماء من سماوات العرب ، ظلم يطغى . فاذا بالشعر نظم سجع وقافية مصطنعة ، واذا بالادب كلمة فارغة وجملة لا ابداع فيها ، واذا بالغن دف ومزمار في الحانات او في الولائم ، او خصر يميس برقصة في حريم سلطان!!

" بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع (للهجرة) ، فلم ينبغ في الشام من احدث عملا علميا عظيما ، او دل على نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه الجامعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين ، والسبب ان حكومة المماليك البرجية والبحرية كانت تشتد في ارهاق المتفلسفة والمتفقهة على غير الاصول المتعارفة التي لم يشتهر منها سوى اربعة ائمة : الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي . فكان المخالف قليلا يغرر على مذهب المالكية ، والقتل ايسر مراتب التعزير عندهم ، ثم زادت الحال اشتدادا في اوائل القرن بانسيال جيوش تيمورلنك على البلاد ، وقتله بعض العلماء ، وحمله معه الى سمرقند كل ممتاز بعلم او صناعة " ١)

ولقد رأينا ان العثمانيين ترسّموا سنن المماليك في البطش والقمع ، فراحوا يقضون على كل وميض عبقرية يلوح في خاطر اديب او مفن ، فغدت البلاد وكأنها مقابر احياء . ويصف محمد كرد علي العهد العثماني بقوله : " زاد انحطاط العلم في القرن العاشر ، فلم تكن ايام الترك ميمونة على المعارف في هذه الديار ، وكانت الاداب تسير اذ ذاك بقوة التسلسل منبعثة قوتها من تاريخها القديم القويم . واذ اختلف لسان الحاكم والمحكوم عليه ، وخصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك ، مالت النفوس عن العلم ، اللهم الا من كانت لهم فطر سليمة عشقوه لفائدته في تهذيب النفس والتحلي بالفضائل وقليل ما هم . " ٢) ثم يتابع قائلا : " دخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد الا النظر في قضايا قديمة لاكتها الالسن قديما ، لا ابداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية المقررة تنتقل خلفا عن سلف ، والاداب العربية تنحط حتى اصبح الشعر والنثر في حالة مخزية ، وصارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية . والمدارس

---

(١) محمد كرد علي ـ ص ٥٥

(٢) محمد كرد علي ـ ص ٥٧ ـ ٥٨

مأوى الحمير كما قال احد العارفين بذاك العصر " ١)

هذه لمحة تمهيدية اردت اثباتها قبل ان استعرض نواحي الادب والعلوم في عصر الانحطاط. ولا شك في ان صيدنا سيكون هزيلا جدا اذا ما قيس بما كان للعرب قديما وبما اصبح لهم اليوم. وساقف تاول ما اقف عند المكتبات .

الكتاب والمدرسة مثقفا الشعوب ومقياس حضاراتها . فان امة عرفت بكثرة كتبها ومدارسها وشغف اهلها بها ، لهي امة تقيم للعقل وبناته وزنا خطيرا . كان من الطبيعي بعد ما خلفه العرب من كتب خلال اعصرهم الذهبية ، ان تعتصم هذه الكتب في مكتبات المتأخرين الخاصة والعامة . ولكن الحدثان الذى طارد العرب سياسيا ابى الا ان يصيب الادب ، لذلك كان الغزاة البرابرة والحكام الجهلة يقضون على المكتبات ويضطهدون الكتب ، ٢) اما لجهل وغباوة في نفوسهم ، واما لان الكتب اساس الاستقلال العقلي الذى يؤدى دائما الى السعي وراء الاستقلال القومي .

وهكذا ، فان ما تبقى من الكتب العربية انتقل الى بعض المكتبات خصوصا في مصر وسوريا ، حتى اذا ما آذنت شمس النهضة بالاشراق كانت المكتبات خير معين للباحثين . ٣)

ولم تخرج الكتب في عصر الانحطاط عن كونها مصدرا للنفع ينحصر ببعض العلماء ، او اداة يفاخر بزينتها ادعياء العلم ، لذلك لم تعم فائدتها . اما ما كان منها رائجا فهو ما يبحث في الدين والصلوات والشروح والقواعد والصناعة اللغوية . يقول غيز : " تدخل الكتب ايضا في عداد الهبات التي تقدم للمساجد

---

(١) محمد كرد علي ـ ص ٦٤

(٢) يقول بليبل ، الجزء الثاني ، ص ٣٨٩ : " وكان في جبل عامل عدد كبير من المخطوطات القيمة المحفوظة في المكاتب الخاصة ، واشهرها مكتبة آل خاتون ، فاخذ منها الجزار خمسة آلاف مجلّد واحرقها في افران عكا . " ويقول نولتي ، الجزء الثاني ص ١٩٠ ـ ١٩١ : " كان الرهبان (دير المخلص ـ صيدا) قد جمعوا في الاونة الاخيرة كميات كبيرة من الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة . ولكن منذ ثماني سنوات تقريبا اشعل الجزار نيران الحرب في بلادهم ، فنهب جنوده الدير وشتتوا كتبه "

(٣) راجع الفصل الخاص بالمكتبات فيما بعد في " دعائم النهضة "

بغية تثقيف الشعب الاسلامي القليل المطالعة بطبيعته ١) · وهذه الكتب تكون عادة مصاحف وشروحا وكتب عبادة اخرى " ١) ويقدم لنا فولني فكرة واضحة عن الكتب المخطوطة والمطبوعة التي شاهدها في دير مار يوحنا فيورد لنا عناوينها بالفرنسية والعربيـــة· واليك لائحة ببعض هذه الكتب ٢)، وهي تمثل النوع الذى اشرت اليه اعلاه :
" اباطيل العالم ـ مرشد الخاطي ـ مرشد الكاهن ـ مرشد المسيحي ـ المزامير ـ تقلـــيد المسيح ـ الانجيل والرسايل ـ مواعظ فم الذهب ـ المطالب والمباحث (قواعد) ـ ديــوان جرمانوس فرحات ـ القرآن ـ الالفية ـ مقامات الحريري ـ فقه اللغة ـ الطب لابن سينا · "

بعد ما استعرضنا احوال الكتاب بهذه النظرة السريعة لا ننتظر ان نقف في ميدان الثقافة على علوم راقية وفنون سامية وخلق جميل· كل ما نتوقـــع ان نشاهده كتاتيب لصق الجوامع والكنائس، ومعارف بدائية لا تتعدى القراءة والكتابة الا الى النظم المتفلسف المصطنع ، والتأرجح البهلواني فوق قواعد اللغة ·
عرفت بلادنا ابان الاحتلال الروماني والاحتلال البيزنطي نهضة علمـــية تجلت في المدارس التي طبقت شهرتها الافاق ، وفي العلماء والمخترعين ، والمشترعين الذين ساهم بعضهم بقسط وافر في تحرير الشرائع الرومانية ١ وبعد تلك العهود ، اخذت المدارس تتسم بالطابع الديني ، وبقيت تتدرج حتى ايام الفاطميين ، ومن تلاهم، فكان منها مدارس منظمة ، خصوصا في طرابلس حيث انشئ عدد منها · وعلى رأسها " دار الحكمة " التي انشأها القاضي جلال الملك علي ابن عمار لنشر الدعوة الفاطمية، والمدرسة الزريقية وغيرهما · " الا ان التعليم فقد في هذه الحقبة شيئا من شموله، الانساني ، فمانحصر بالقراءة والكتابة والحساب البسيط والتفسير الديني ، واتجه بعضـــه جهة عملية ترشح طلابها للوظائف الادارية " ٣)

---

(١) غيز ، جزء ١ ، ص ٣٣ · ان لهجة المؤلف في التبت المطلق حول طبيعة المسلم والمطالعة تدعو الى عدم التسليم · ذلك لان ما عرف عن المسلمين في التاريخ هو عكس ما اتى به · ولكن كلام غيز قد ينطبق على حالة المسلمين في المرحلة التي يتكلم عنها ، ويدعم هذا الكلام اديب مــؤرخ مسلم هو محمد كرد علي الذى يقول : " وقد ضعفت في هذا القرن ملكة البيان في المسلميـــن، وهم يتلون القرآن ولكن بدون ان يتدبروا معانيه ويفهموا اعجازه ، حتى اصبح الفقية والمحدث والنحوى والبياني والمنطقي لا يحسن كتابة سطرين الا بصعوبة ليس بعدها صعوبة ·· " ص ٧٨

(٢) Volney, T. 2, P.P. 180-84

(٣) فؤاد افرام البستاني ـ ص ١٦٨ ـ ١٦٩

وجدت المدارس في لبنان ، ولكن العلوم ، كما ذكرت ، كانت بدائية .
وانّى للعلوم ان تنتشر ، والكتاب المطبوع بقي نادرا حتى عهد متأخر؟ انّى للثقافة ان تذيع في الناس ، والجريدة ، وهي ليست دون الكتاب خطورة ، لم تعرف الى بلاد العرب سبيلا الا في منتصف القرن التاسع عشر؟ ثيقول غيز : " الثقافة صعب تعميمها بينهم وجعلها في متناول جميع الناس . فالبلدان هنا محرومة من الجرائد لا يذاع ولا ينشر فيها شيء . لا تجد شخصا واحدا (١) يتعاطى الكتابة ولو على سبيل التسلية ، والقصاصون الذين يتولون ، كل مساء ، خلال ساعة ، تسلية عاطلي المقاهي ، يستقون معلوماتهم القصصية من مخطوطات بالية مبتذلة " (٢)

وبينما كان الغرب يتقدم في عجل سحرى ، مخضعا العلوم لمنفعته ، مسخّرا الطبيعة ومواردها لسعادته ، كان الشرق ، وحتى الشرق المتعلم ، ينظر ، والعجب آخذ بعينه ، الى بعض " مبتكرات " الغرب ، وهو اما ان يصدق والتصديق ليس بالامر اليسير ، او ان يتنكر لما يسمع ويتعلم ، فيرمى عندئذ بالتأخر والرجعية . وقد اتفق بعض من رحلوا الى لبنان في وصف الحركة الثقافية ، فيقول ادوارد روبنصون في وصف امتحان حضرة في مدرسة عبيه التي انشأها المرسلون الاميركان : " حضر الامتحان عدد لا يستهان به من سكان القرية بينهم واحد او اثنان من ذوى الرتب العالية . وبينما كانوا يصغون الى الامتحانات بدا عليهم الاضطراب والانزعاج عند سماعهم عن دوران الارض ، حتى ان احدهم تحدث عن هذه المشكلة الى احد المرسلين " (٣) ويصف فولني وضعا مماثلا في دير ماريوحنا فيقول : " ان رهبان ماريوحنا الذين يملكون الكتب ويقيمون العلاقات الوثيقة مع روما ليسوا اقل من غيرهم جهلا . فانهم لم يسمعوا قط ، قبل حلولي بينهم ، بان الارض تدور حول الشمس " (٤)

اما الفن فلم يكن اقل من العلوم تقهقرا وانزواء . وان كان للادب والعلوم ما يبرر وجود بقايا منها نظرا لتاريخ العرب الادبي الحافل ، فان الفن كان منبوذا ، خصوصا ما كان منه في فروع النحت والتصوير والنقش وما لف لفها ، ذلك لان الاسلام نظر الى التصوير وتمثيل الاشكال نظرة غير مشجعة . وان كان ثمة

---

(١) هذه ، في نظرى ، ايجابية متطرفة !

(٢) غيز ، جزء ١ ، ص ٦٦

(٣) روبنصون ، جزء ١ ، ص ١٠٦   (٤) Volney, T. 2, p. 406

فن في ذلك العصر، ففن كنسي انحصر في رسم الايقونات، ولكن هذا الفن لم يكن اصيلا في البلاد اذ ان المسيحيين كانوا يولون انظارهم شطر القسطنطينية للحصول على ايقوناتهم. ١)

ولكن لبنان لم يقنع بما كان له. انه لم يقنع بمدارس منثورة هنا وهناك، وكل هم معلميها، وهم من رجال الدين غالبا، ان يقرأ التلاميذ القرآن او المزامير. لقد كتب له ان يجعل فيما بعد من مدارسه الاولية معاهد عليا ستسير في طليعة المدارس في البلاد العربية مهيئة للنهضة رعيلا من الادباء والمثقفين ما يزال في تعاظم نام. ولقد كتب موريس باريس سنة ١٩١٤ مصورا رغبة الشعب اللبناني في العلم فقال: "مدارس! مدارس! اعطنا مدارس!.. ان ما يثير اللبناني انما هو الشعور الروحي الذى اثار صاحب المزامير فصاح: اعطني المعرفة فاحيا! واني لاراه شعارا مؤثرا يرفرف على لبنان باسره" ٢)

---

(١) Volney, T.2, P.395

(٢) فؤاد افرام البستاني - ص ١٧٩

انحـــلال الادب

ان الكوارث التي تصيب العقل والعاطفة وما ينتج عنهما من جمالات ادبية او فنية ، لاعمق اثـرا وابلغ تعبيرا من الكوارث المادية التي تنقض بها على الانـــام الحرائق والطوفانات والزلازل وما شابهما . ولست هنا فـي موقف يدعو الى البحث الطويل فـي علاقات المادة بالروح ، وفـي تفاعلهما والمقابلة بينهما . ذلك بحـث انا فـي حل منه . انما اردت ان اقول ان ما يخلد على الايام ، ان ما يــرنو اليه البشر ، هو تلك الدعائم التي عليها تقوم المدنيات ، وهو تلك الاثار الــتي تعبّر عن كوامن النفس العبقرية بوسائل تختلف بين الوتر والقلم والريشة والازميل ..

وسبق لنا ان كشفنا ، بلمحة عامة ، النقاب عن فاجعة الفكر فـي عصر الانحطــاط ، فلا ازميل ، ولا ريشة ، ولا وتر ... بل قلم عاثر يتخبط فـي الزعازع هزيلا ، كئيبا ، داميا ... لقد حوّلت الكارثة الشاعر الى " طبّال او زامر او قرّاد يغني ويلعـب امام من يعطيه دريهمات قليلة " (١) ، واصبح عمال القلم كمهرجي القصور ، مـع فرق ، وهو ان المهرج قد ينطلق احيانا من نكتة ماجنة تافهة الى لذعة فـنية او خاطرة فلسفية ، بينما اولئك كانوا كثيرا ما يحاولون الفلسفة والاشراق العقلــي فلا يأتون الا بالمضحك المبكي من الترّهات ...

النـــثر لنقف اولا عند النثر ...

لدينا بعض الاثار النثرية العائدة الى عصر الانحطاط . وهذه الاثار كافية للدلالة على ما كانت عليه حياة النثر فـي تلك الايام . وهي ، وان كانـت تختلف من حيث الصيغة والمعنى ، فانها تشير الى ان النثر كان فـي طور احتضـار ، او ، على الاقل ، فـي طور مرض وتضعضع لا يعرف الحياة السليمة المستقرة . " ومـا انقضى صدر الدولة العثمانية ، وسادت التركية فـي الدواوين ، وطغت العامية على الفصحى ، حتى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتّاب لا يطيقون الافصاح عما في ضمائرهم ، واعتاصت عليهم الصناعة ، وفسدت اللغة فـي عباداتهم ، واكثروا من الحشو والكــلام الفــارغ ، وتكلفـوا السجـع علـى ضعفهـم ، فجـاء سخيفـا نابـيا ، متقلقـلا فــي

---

(١) التعبير لمحمد كرد علي (خطط الشام)

اماكنه" ١)

ان اول ما يستوقفنا في اخبار المعنيين في الاعصر الحديثة خطبة الامير فخرالدين الاول في حضرة السلطان سليم العثماني . ولم تكن هذه الخطبة لتستوقفنا لولم تكن تمثّل اتجاها كاد يكون عاما في الادب آنذاك. ولا اجد بدا من اثبات الخطبة قبل ان اخرج منها بالنتائج : "اللهم ادم دوام من اخترته لملكك وجعلته خليفة عهدك وسلطته على عبادك وارضك، وقلدته زمام سنتك وفرضك . ناصر الشريعة النيّرة الغرّاء وقائد الامة الطاهرة الظاهرة سيدنا وولي نعمتنا امير المؤمنين الامام العادل والذكي الفاضل، الذى بيده ازمة الامر بادشاه ادام الله بقاه ، وفي العزائم ابقاه ، وخلّد في الدنيا مجده ونعماه ، ورفع الى القيامة طالع سعده ، وبلّغه مأموله وغاية قصده ، من ملك الملك بالعقل والتدقيق ، ومده بالاقبال والتوفيق . اعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد ، بانعم العز والتمجيد آمين ." ٢)

فمن حيث معنى الخطبة نجد حشوا وتلفيقا ، ومضغا لفكرة واحدة تسيطر على الخطبة التي كان بالامكان ان ترد في سطر بدلا من ثمانية .

اما من حيث القالب فان ما يطالعنا في الاسلوب هو نفسه ما يطالعنا في اسلوب القطع النثرية المختلفة : سجع ممل ، وجمع يقذفنا بها صاحبها تعاويذ سحرية ، او ادعية مرصّعة كالتي يحوكها النَّوَر! ولكن للقطعة "ميزة" يجب ان لا يغرب عن بالنا مغزاها، وهي انها خالية من الاخطاء النحوية والاملائية ! ولعل ما ساعد الامير في عدم ارتكاب الاخطاء انه ، وهو الامير ، قد يكون وجد الامكانية الكافية ليتدرب على ايدي العلماء . ٣)

وانتقل الان الى الامير بشير الثاني الشهابي . لم يكن هذا الامير اديبا ، كما ان فخرالدين الاول لم يكن اديبا، انما اردت ان اثبت بعض ما خلّفاه لان في ذلك ما يلقي ضوءا ولو ضئيلا على نثر العصر . واكتفي من آثار الامير بشير باثنين : الاول رسالة بعث بها الى احد معارفه ، والثاني وصيته . اما الرسالة

---

(١) بطرس البستاني - ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) ادمون بلبيل - ص ٢٨٥

(٣) او لعل احد اخصّائه الادباء قد كتب له الخطبة ؟

فقد ورد فيها : " بلغنا انه حاصل لخوتكم ١) طرف ترشيل (رشح) فهل قدر انشغل فكرنا بذلك انشا الله يكون عرض وزال وحصلتم على الشفاء التام المراد تعرفونا عن رياضتكم لانكم تعلموا ان ذلك مما يشرح خاطرنا ولا تقطعوا اخباركم عنا

محب مخلص بشير ٢)

واما الوصية فاقتطف منها ما يلي : " اسأله (الله) العفو عما مضى من الذنوب والسيئات ، وان يعاملني باحسانه ولطفه من بعد الممات معترفا باني عبدا ضعيف ذميم ، واني قادما على ملك قادر رحيم . فلذلك قبل انتقالي بصحة جسمي وعقلي واختياري من هذه الديار الفانية الى الديار الباقية اقر معترفا بان امانتي على امانة الكنيسة الرومانية المقدسة ، واؤمن بكلما تأمن به .

" ... وكيلانا في الجبل هم اعزازنا خليل وملحم طرابلسي فاريد ان زوجتي المذكورة تجرى معهم الحساب بالحق واذا كان باقيا لهم بذمتي شيء توفيهم اياه بما انهم متوكلين ايضا على ارزاقها .. " ٣) ولا بأس في ايراد بعض ما ورد في الوثيقة التي كتبها رستم باز عن موت الامير . قال : " والامير موضوع باوضته التي مات بها في دار الرجال . فدخلت وقعدت مع الموجودين فيه فسألتهم كيف كان الامير ؟ قالوا : لم يكن جد عليه شيء بعد ما فارقته ، فطر حسب عادته وشرب قهوى وغليون توتون ونام ... وفاق وغسل وطلب قهوى ... فاسرع الخورى اسطفان واوضته بجانب اوضة الامير فلم يجد فيه روح ... وفي الساعة الواحدة ونصف حضروا اثنين تليان ومن بعد ما تعشوا طلبوا ان يروا الجثة . ادخلوهم الى الاوضة الموجودة فيها واضاءوا اربع شمعات كبار فلما نظروها قال واحد من المصورين الذى اظنه خاف، واما الثاني اشجع قال .. لنأخذ الرسم بقدر الامكان ..الخ " ٤)

لست بحاجة الى الوقوف امام هذه النماذج اكثر مما فعلت ، لان ركاكة الاسلوب فيها بادية ، ولان الاخطاء الاملائية والنحوية واللغوية لا تخفى على المطّلع وقد اشرت اليها بخط .

---

(١) لاخ لاخوتكم

(٢) الخورى بطرس صفير ــ الامير بشير الشهابي ــ ص ١٥١ ــ ١٥٢ . منقولة عن اصل محفوظ في مكتبة الخورى اسطفان بشعلاني .

(٣) الخورى صفير ــ ص ١٧٢ ــ ١٧٦ الخورى صفير ــ ص ١٧٠ ــ ١٧١

الا ان التقصير لم يقف عند الرسائل ولغة الدواوين • فقد ورد في كتاب "المزامير" الذى طبع سنة ١٦١٠ كلمة للناشر يشير فيها كاتبها الى متعهد طبع الكتاب فيقول : " اما المعتني بهذا الكتاب وغيره هو الاب الموقر خالي المطران سرجيوس الرزى مطران الشام المحروسة الذى اجتهد وحمل هذه الحملة الثقيلة ووضع ذاته تحت دين له صورة حتى استطاع يكمل رستاق هذا الشغل لكيما انه يفعل امريكون في اصطلاح وخدمة البيعة المقدسة • " ١) هذه المقدمة كتبها احد المشرفين على طبع الكتاب ، وهؤلاء من ذوى العلم والادب ، وبعضهم من خريجي مدرسة روما المارونية • ومع ذلك نجد ان العربية تكاد تكون عاميّة تماما ، اضف الى ذلك الاخطاء الفاحشة المتأتية في معظمها عن كون اللغة المكتوبة في ذلك الحين قريبة جدا من اللغة المحكية التي لا تقيم لقواعد الاملاء واللغة وزنا •

ويا ليت الركاكة وقفت عند هذا الحد • لقد شاعت حتى في المؤلفات العلمية والادبية • ولننتقل الان الى الشيخ احمد ابن محمد الخالدى الذى وضع تاريخا لاعمال فخرالدين الثاني ولابنه علي خلال حقبة تمتد ما بين سنة ١٦١٢ وسنة ١٦٢٤ • ومع ان الكتاب تاريخي ، وبالتالي علمي يتطلب اسلوبا عاديا في السرد ، فاننا نلاحظ ان الكاتب قد سعى الى الزخرفة اللفظية ، وليته ما فعل! ان السجع يخيم على فاتحة الكتاب ، وهو يخف في الكتاب نفسه عند سرد الحوادث • ولكننا نقع هنا ايضا على السجع في اماكن اشهرها تلك التي يتاح للكاتب فيها رصع جمل المدح والتبجيل • فيقول مثلا : " ومن عادة الامير فخرالدين وولده العزيز علي المكرم امير لواء صفد ، دام في حفظ الصمد •• " ٢) او : " وارسل الامير فخر الدين ولده العزيزعلي المكرم ، لاستقبال حضرة الوزير الاعظم • " ٣) او : " فلما استقر حافظ باشا بمدينة الشام شرع في تحريك الفتن •• واظهر ما كان في باطنه قد بطن •• " ٤)

والى جانب السجع صناعة مملة تبدو واضحة كذلك في الفاتحة • انظر

---

(١) P. J. Nasrallah - L'imprimerie au Liban. P4

(٢) الخالدى — الامير فخرالدين المعني — ص٥

(٣) ==== ============= — ص٦

(٤) ==== ============= — ص ٨

الى هذين المثلين اللذين يعكسان لنا الجناس المصطنع : " الى ان منّ الله عليهم بدولة مؤيدة ، ونعمة مخلدة ، الا وهي الدولة المعنية ، التي هي بامتثال الشرع معنية . " ١) والمثل الثاني : " ان حضرة الامير فخر الدين حفظه الله صاحب هذه السيرة سليم الصدر ، صافي السريرة ، قد ركب متن الوفاء سريره ، ولا شك ان له عند الله سريره " ٢)

وهنالك اخطاء ، لو ارتكبها احد التلاميذ في صف ابتدائي اليوم لعد من المقصرين المتقاعسين ! فما رأيك بشيخ يرتكب خطأ نحويا كالوارد في هذه الجملة: " لم يثبت مع البلوكباشي غير احد وخمسون نفرا " ؟ ٣) ما رأيك بشيخ يكتب : " واعطا حضرة الامير يونس ... " ؟ ٤)

هذه لمحة خاطفة عن النثر في عصر الانحطاط ، انه ثوب لـ " ادب سطحي اجوف ، لا عمق فيه ولا جدة ، حشوه الفاظ رنانة وعبارات مزوقة واعادة بعيدة الافادة . وتكاد لا تقرأ كتابا او تسمع خطابا الا كانت لحمته وسداه دعاء مستطيلا للبادشاه او بخورا على مذبح الرياء والتقليد .. " ٥) الا ان الضعف الذى ينتاب نثر العصر يختلف احيانا بين الخطبة والكتاب العلمي والرسالة والتقرير ، فبينما نجده خفيفا في الكتاب او الخطبة ، نجده في اوجه في لغة بعض الرسائل وفي لغة الدواوين ، ذلك ان الرسالة ادب شخصي يقصد بها التعبير عن عاطفة او رغبة او طلب يعنى بها واحد ، كما ان التقرير لا يقصد به النشر بين الناس كي يتعمد فيه كاتبه البلاغة ، هذا اذا كان باستطاعة كتاب الدواوين ان يلموا بالبلاغة !

وتبدو المصيبة اثقل وقعا متى نظرنا الى ادب العصر بعين اجنبي خبر البلاد واحوالها مدة طويلة . يقول هنرى غيز : " ان الانشاء ، اسلوب الكتابة ، هو رمزى دائما ، حتى ان اللغة العامية حافلة بالتشابيه والاستعارات والمجاز . وفي المراسلات بوجه خاص يدفع هذا الفن الى اعلى قممه ، اذ يصعب هنا ان يرسل

---

(١) الخالدى ـ ص ٢

(٢) الخالدى ـ ص ٣

(٣) الخالدى ـ ص ٢٢

(٤) الخالدى ـ ص ٢١

(٥) نقولا فياض ـ ذكريات ادبية ـ محاضرات الندوة ـ ص ٤٠ ـ ٤١

الكلام عفو الطبع . فالاشخاص تشبه بكائنات خيالية او وهمية ، وقد تمسخ لان الصور التي تشبه بها لا تنطبق عليها ، وكثيرا ما يأخذون تشابيههم من اشياء لا تألفها عامة البشر فيعبرون عن افكارهم بالعطور والازهار والصبا والدرر والاشياء الاخرى من نسيج وغيره ." ١)

الا ان النثر لم يعدم اعلاما من المصنفين حافظوا على صفاء العربية الى حد بعيد ، وان لم يحلقوا في جواء الابداع ، كالغزى والمحبي وغيرهما . وفي وصف اسلوب هذه الفئة يقول بطرس البستاني : " واما انشاء المصنفين فلم تعمه الصناعة كما عمت فن الترسل ، فقد لبث طائفة منهم يقصدون الى الاسلوب المرسل فاحسنوا في ذلك. ولكن لم تتفر لهم بلاغة اسلافهم ، فجاء انشاؤهم في الجملة على شيء من اللين ، ولم يخلص من التعقيد والتطويل " ٢)

واذا وقفنا على وصف الكتب التي عرفت في تلك الايام ادركنا ان الجديد كان في حكم العدم، وان الابداع امر لم تألفه النفوس والاقلام . ان الكتب في جملتها كانت شروحا لكتب سابقة ، وتعليقات على كتب سابقة ، وحواشي تزاد على كتب سابقة . اما الكتب الموضوعة فكتانت نادرة ، وكان الانتاج الفكرى مقتصرا على قضايا الدين واللغة التي يظهر اثرها حتى في الشعر الصناعي . وجلسة قصيرة مع الغزي تطلعنا على اسماء الكتب واوصافها ، وفي ذلك من الوضوح ما يكفي للتعبير عما في بطون الكتب . ٣)

---

(١) هنرى غيز ــ جزء ١ ــ ص ١٢٣

(٢) بطرس البستاني ــ ادباء العرب ــ ص ١٢٥

(٣) الغزى ــ الكواكب السائرة ــ جزء ٢ ــ ص ١١٢ ، والجزء الثاني ،ص: ٤٧ ، ١٢٦ ، ١٨٨ .

محمد البازلي : حاشية على شرح جمع الجوامع للمحلي .

احمد القسطلاني : شرح على البخارى ــ

خالد ابن عبد الله الازهرى : شرح على اوضح المسالك الى الفية ابن مالك لابن هشام

=============== : شرح على قواعد الاعراب لابن هشام

احمد ابن علي القارى : حاشية على شروح هداية الحكمة لمولانا زاده ــ حواشي على شرح التجريد ، وتفسير سورة الفجر ...

الشعر كثيرا ما يرى الشعراء انهم من جبلة غير جبلة البشر ، وكثيرا ما يشعرون بان ارواحهم ، تلك القوى الفيّاضة الكامنة في اجسادهم ، تحاول الافلات من اسارها الجسدى الذى يشد بها الى اسفل ، بينما هي ترنو الى عالم اعلى ترتع بين حوره حرّة سيدة (١) .

ولئن كانت ارواح الشعراء الشعراء قد لقيت في الشعر ملعبا نورانيا ترتع فيه ، فان ما لا شك فيه ان الشعر — معاذ الشعر ! — قد حط بارواح شعراء الانحطاط في المعابر المظلمة . واني لاتخيل الناظم في ذلك الزمان يجلس الى الورقة يكردس عليها كميات من الالفاظ هي القوافي ، وكميات من التعابير المعلمة الخاصة هي لحمة الابيات ، ثم يشرع في نحت معان يلبسها الثوب المفصّل . وما يهمه ان المعنى في الثوب العجيب "كصالح في ثمود" ؟ ويختال المخلوق العجيب عجبا بين يدى خالقه ، ولكنه ما يلبث ان يعثر ويعثر ، وان عاود سيره فانما دبيبا . ولكن الخالق ينظر الى خلقه ويصيح مع ذلك الصوفي في حالة من الفناء : "سبحاني ما اعظم شاني" !

المبنى ؟ كلمات مرصّعة بحجارة طالما اتت مزيّفة ، وابيات تشعر وانت تقرأها بان ناظمها على آخر رمق ، وهو يحاول جاهدا الوصول الى خاتمة المطاف ، الى القافية . اما الابيات فلطالما اضطربت جرسا وتركيبا ، فحطّمت مقاييس الاذن واللسان ، وهامت على وجهها لا تلوى على شيء ...

يقول الاسكندرى من قصيدة ٢) :

لم انس مذ قالوا فلان لقد اضحى كبير النفس ما اجهله

فهل اسمج من هذه "اللقد" ؟

ويقول ابن صدقة مادحا :

---

(١) راجع الصفحة ١٣٨ من هذا البحث .

(٢) الغزى — جزء ١ — ص ١٦ .

فهو الرئيس ابن الرئيس ابن الرئيس ابن الرئيس واراس الروساء
كررت مدحي اذ حلا في الاكمل ابن الاكمل ابن الاكمل الاملاء
الزاهد الورع النقي الطاهر الحسب التقي السبر بالفقراء ١)

ثم يطالعنا بهاء الدين ابن احمد ٢) بسلسلة من الصفات بلغت - وايم الحق - خفسا وعشرين حسرها في اربعة ابيات :

وله العلم حلة وشعار	ولهذا في المجد اضحى سنيا
عالما عاملا جليلا جميلا	خاشعا ناسكا عزيزا ابيا
عابدا زاهدا اماما كبيرا	محسنا مخلصا كريما سريا

وحسبنا !!!

ولنسمع سيد علوان الحموى ٣) يرثي محمد ابن الكفرسوسي :

يا معشر الاسلام توبوا وارجعوا	وكأننا بالموت جا بالكاس
و وهو الكفرسوسي شيخ بلادكم	كم قام فوق منابر وكراسي (!)
ذهب الاولى كنا نعيش بظلهم	وبقيت في ناس كما النسناس (!)

واذا باحمد الباعوني ٤) قد اعياه الوزن ، فيصيح وقد اطاح قاعدة التأنيث : وواد به الغيد الحسان قد استووا ... فلا تأنس لك الى "الغيد الحسان" حتى تطالعك واو الجماعة بقناطير الخشونة !

لا جمال ، ولا بلاغة ... بل قبح يسرى في الابيات كالسم الناقع، وركاكة كانها الشلل تجتاح كل عضو من اعضائها ...

ولم يكن المعنى اصلح حالا من المبنى . وانّى له ذلك ، وهو مخلوق مناسبات لا توحي في جملتها الا بالركيك الركيك ؟ ضاعت المعاني بين مدح ورثاء واحاج ، فلم يأتوا بجديد ، بل على العكس عاجوا على آثار الماضين يقلّدون معانيها ومبانيها . ومع ان الابواب المطروقة قد شهدت في سالف العصور قصائد مجلّية

---

(١) الغزى - جزء ١ - ص ٤٣ - ٤٦
(٢) الغزى - جزء ١ - ص ٢٠٦
(٣) الغزى - جزء ١ - ص ٥٥ (٤) الغزى - جزء ١ - ص ١٤٠

وشعراء مجلّين ، فان شعراء الانحطاط حوّلوا المدح الى سخرية ، والرثاء الى مصحكة، واتخذوا من الاحاجي حبالا يمشون فوقها على رؤوسهم! لقد ساد التصنع في الشعر، فالشاعر الشاعر هو من يأتي بانواع البديع ، ومن يقف في كل مناسبة مادحا او راثيا، بلغة لا نشعر معها بغبطة مع الممدوح ولا يحزن على الميت ·

اذا عرف الانحطاط بالتقليد في المعنى وفي المبنى · فمن حيث الطريقة المتّبعة في النظم نقع على قصائد كثيرة تبدأ بالغزل التقليدى ، ثم يتحول بعدها الناظم الى الموضوع المقصود ، كما نحا ابن مليك ١) في قصيدته النبوية · فبعد ان يحدثنا عن قلبه الهو المولّه ، وسهام اللحظ ، والقد المياس، والعذول ، ينتقل بنا الى

خاتم الانبياء والرسل حقا   من اتى بالهدى وادّى الرسالة

او كما نحا العلاء الموصلي ٢) في مدح فبدأ بـ

الورد من وجنات خدك يقطف   والشهد من جنبات ثغرك يرشف

وانتهى بـ

اهدت له اخلاقه طيب الثنا   فثناؤه كالمسك بل هو اعرف

هذا من حيث الطريقة الشائعة · كانت طريقة تقليدية تنصب الغزل في اول القصيدة ثم تنصرف بعد ذلك الى الموضوع المقصود · ولكم اتت المقدمة اطول من الموضوع، ولكم اتت خير ما في القصيدة على قلة الخير يومذاك·

اما التقليد في المعاني ، او على الاقل الابقاء على المتداول منها دون ابداع، فانه واضح في الكثير من القصائد او الابيات · ولكنني لن اثبت الا ثلاثة ابيات منها · يقول ابن صدقه ٣) :

فتراه مثل البدر بين نجومه   يسمو على العيّوق والعوّاء

ويقول شهاب الدين العليف ٤) :

---

(١) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢

(٢) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ٣١٥ ـ ٣١٦

(٣) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ٤٤   (٤) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ١٢٣

فدتك ملوك الارض طرا لانها سواد وانت البدر في غرة الشهر

فانظر الى الشبه بين هذين البيتين وبيت النابغة في مدح النعمان ابن المنذر :

فانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

صحيح ان هنالك اختلافا طفيفا في الصورة ، ولكن الممدوح والاخرين هم هم : اجرام سماوية ، شموسا كانوا ام اقمارا ام نجوما !

وانظر الى هذا المدح في معرض الذم لابن صدقه ١) :

لا عيب فيه غير ان يمينه مبسوطة في الناس بالنعماء

فهل من فرق شاسع في طريقة التعبير بين هذا البيت وبيت النابغة :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب ؟

واذا اضفنا الى التقليد في طريقة النظم والتقليد في المعاني التقليد في استعمال الالفاظ القديمة الصحراوية كالرشأ والغزال ، وما شاكل ذلك ، ايقنا ان الشعر قد غاب في سبات عميق ، وانه فقد في سباته ما كان له في الماضي فاذا حاول ان يجدد اعترض التجديد خمول العقول وخمول الثقافة .

ولو ان الناظمين اكتفوا بالتقليد ، لو انهم اكتفوا بان يعترفوا بعجزهم ويقفوا حيث هم ، لهان الامر علينا وعلى الادب ... ولكنهم قاموا الى الصناعة يستوحونها ويستمطرونها الشفقة علهم يسترون بالشفقة خزيهم ، فانصب الخزى عليهم دفاقا جارفا وهم لا يعلمون .

ولنبدأ بالصناعة المقبولة ، الصناعة التي لم ينج منها حتى المبدعون احيانا . يقول ابن عوجان مجنّسا ٢) :

احيي بقاع القدس ما هبت الصبا فتلك رباع الانس في زمن الصبا

ويقول ابن صدقه مكرّرا ٣) :

او ترحموا حبا كئيبا ترحموا بمراحم من ارحم الرحماء

---

(١) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ٤٥

(٢) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ١٢

(٣) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ٤٣

ثم نرتقي في سلم الصناعة فاذا بالناظم عالم نحوي يعرض علينا معارفه اللغوية بطريقة بادية التكلف . مثال ذلك قول ابن عبية ١) :

ففؤادي المعتل منه ناقص ... بمثال ذاك الاجوف المقرون

وقول "احدهم" في وفاة "احدهم" مؤرخا ٢) :

توفي عبد الحق يوم غروبه ... بمكة بعد الصبح بدء صيامه

وزد واحدا فوق الثلاثين مردفا ... بتسع مئ واجعله يوم حمامه

ولاحمد الباعوني مطلع التزم به واوين اول البيت وآخره ٣) :

وواد به الغيد الحسان قد استووا ... وورد ظباء الحي في ظله ثووا

ووافوا به من مهجتي في الهوى صووا وولوا ... وعن عهد المحبين ما نووا ووافوا

هذا ما كان من امر الشعر والصناعة . وقبل ان اسدل الستار على هذه الفاجعة ، لا بأس في ان احيط بنوع المواضيع التي كان يطرقها الناظمون. مر معنا خلال ما مضى ذكر لبعض المواضيع المطروقة كالغزل والمدح والرثاء ، بيد ان هنالك مواضيع اخرى كالحكم والحنين والهجاء ، حتى ان التاريخ كان يعتمد احيانا على الشعر لتسجيل حوادثه ، فترى الشيخ نجم الدين مثلا يجمع اسماء الذين افتوا في عهد النبي في ابيات ٤) :

لقد كان يفتي في زمان نبينا ... مع الخلفاء الراشدين ائمة

معاذ وعمار وزيد بن ثابت ... ابيّ ابن مسعود وعوف حذيفة

ومنهم ابو موسى وسلمان حبرهم ... كذاك ابو الدرداء وهو تتمة

وافتى بمرآه ابو بكر الرضى ... وصدّقه فيها ، وتلك مزية

وهنالك احيانا بعض الالتماعات التي تمر عابرة بين الحين والحين في قصيدة او بيت او جزء من بيت . وهكذا نخرج احيانا الى الروض بجوار نهر من الانهار فنستمع الى شيء من الانشاد ، ونخرج الى غياض تشعر فيها مع الناظم بان روحه ما تزال تصبو الى ما يجعلها منعتقة من نير التقليد والفراغ ولا يخلو

---

(١) الغزى — جزء ١ — ص ١٢٥

(٢) الغزى — جزء ١ — ٢٢٢

(٣) الغزى — جزء ١ — ص ١٣٩ — ١٤٠

(٤) الغزى — جزء ١ — ص ١١٧

الشعر كذلك من بعض الهزليات كقول حسن الحصكفي (١) :

اذا ما صاح قاسم في المنار   بصوت منكر شبه الحمار
فكم سبابة في كل اذن   وكم سبابة في كل دار

ولكن ما يسترعي الانتباه هو انتشار الالغاز والاحاجي في الشعر .
وهنالك ايضا شهرة كانت منتشرة هي التخميس والتشطير ... الى ما هنالك من مواضيع فرعية ، لا تغني كلها بغرض الشعر .

هذه لمحة عن حياة الادب والشعر في عصر الانحطاط . انها لمحة ترينا ما في تلك الاعصر من جهل واظلام ، وما لحق الادب والشعر منهما من غبن . وقد بقي من الجهل والاظلام اثر حتى في القرن التاسع عشر ، القرن الذى يعتبر مبدئيا كنقطة انطلاق الانبعاث . وفي هذا يقول نجيب الحداد (٢) : " لم يأت على الشرق عصر خمل فيه الادب وماتت هم الادباء وفترت نفوس الكتاب مثل هذا العصر الذى صرنا اليه ونحن نتعلل فيه بالتقدم والارتقاء علالة الظمآن بالسراب .. لا غرو ان الادب قد تهدم بنيانه . ولغة البلاد قد ضاع مقدارها . ترى الاديب منا يبذل جهده ويحيي ليله وينفق من قلبه ويجني على نفسه ليؤلف كتابا مفيدا او يضع رواية نافعة ... ويطبع ذلك الكتاب برمق العيش ومشقة الجهد ... فلا مال وصل اليه ولا كتاب طلب منه ولا شهرة ذاعت عنه " .

---

(١) الغزى ـ جزء ١ ـ ص ١٨٠

(٢) نجيب الحداد ـ منتخبات ـ ص ٥١ ـ ٥٤

القسم الاول

دعائم النهضة

يبحث الادباء غالبا عن النهضة في اواسط القرن التاسع عشر ، وعذرهم في هذا ان النهضة لم تتخذ شكلا محسوسا قبل تلك الحقبة . هذا ، لعمري، صواب . ان النهضة لم تتبلور معالمها الا في اواسط القرن التاسع عشر . ولكن ،هل خلقت النهضة دفعة واحدة بين ليلة وضحاها، ام انها مرت في اطوار تعود اصولها الى ما قبل القرن التاسع عشر؟ هل وجدت النهضة دون ان يكون لوجودها علّة ، ام انها خضعت لتأثيرات شتى دفعتها خببا في معارج النمو؟ قد يبدو عجيبا ان اقول ان علينا، اذا ما اردنا بحث اصول النهضة ،ان نعود الى عصر الانحطاط نفسه ، العصر الذى فيه بذرت بذور النهضة الاولى !

صحيح ان عصر الانحطاط لم يشهد حركات ثقافية واسعة المدى تجعل منه عصرا يذكر بين عصور النور . الا ان ثمة حقيقة لا تشوبها شائبة ، وهي ان دعائم النهضة قد ركّزت في لبنان منذ تلك الايام : فالارساليات الدينية بدأت تترى على لبنان بطريقة منظمة في عهد الامير فخرالدين الثاني ، واول مطبعة ادخلت الى لبنان في سنة ١٦١٠ ، كما ان المدارس كانت ناشطة نوعا في ايام المماليك على ضيق آفاق برامجها، ومع انها افلت بعض الشيء في العهد العثماني ، الا ان البعثات مكّنت اللبنانيين من الاحتكاك بمدارس الغرب ، وبنوع خاص مدرسة روما المارونية ١) ،فعاد الطلاب المبعوثون اثر هذا الاحتكاك الى لبنان ينشئون المدارس في كل مكان. ولكن الارساليات والمطابع والمدارس لم تكن آنذاك سوى برق خلّب يومض في الليل المدلهم عابثا ثم يولّي ، ولكن هذا البرق ما لبث ان استكمل شروطه فراح فيما بعد يلمع ويتبعه الغيث المحيي .

---

(١) يعود الفضل في انشاء هذه المدرسة الى البابا غريغوريوس الثالث عشر . فقد شعر الموارنة في لبنان بانهم بحاجة الى اتصال دائم بروما ، وهذا الاتصال لا يمكن ان يتم لجهل الاكليروس الماروني في تلك الايام اللغة اللاتينية ، لغة التفاهم . وبعد مفاوضات بين روما ولبنان قر الرأى على ارسال تلاميذ لبنانيين الى

وقد منّت الظروف على لبنان بعدة امراء اشرفوا على ولادة النهضة ثم تعهدوها بحنان. وعلى رأس هؤلاء الامير فخرالدين الثاني.

عندما ذكرت خطبة الامير فخرالدين الاول قلت انها، من حيث المعنى، ضعيفة هزيلة، ولكنها من حيث المبنى تمتاز على غيرها من القطع النثرية بسلامتها من العلل اللغوية. ولكن البحث الذى تلاها جعلنا على يقين من ان سلامة الخطبة لا يصح ان تتخذ مثالا لنثرالعصر. وعندما تسلم الامير فخرالدين الثاني زمام الحكم، شاهد خلل الديجور جهلا وغباوة وفراغا، وشاهد كذلك بصيصا ينبعث من الغرب، فيمّم الاميربنظره شطر اوروبا يطلب المعرفة. لقد ادرك ان رقي لبنان لا يقوم الا على سواعد المتعلمين، فشجع المراجع الدينية المارونية على ارسال البعثات الى روما كما جرى في عهد جده ووالده ١) واستقبل على الرحب والسعة بعثات اجنبية ومهّد لها سبل الاستقرار والازدهار. ٢) وكأني بهذا الامير الذى قيل عنه " انه يحمل في نفسه طاقة العظماء التي تحوّل الاحلام الى قيم حيّة " ٣)، كأني به اراد ان ينصّب نفسه للمتعلمين وغير المتعلمين مثالا، فاستقدم مصوّرا فرنسيا رسم له الوف الاشكال لالوف الحشائش والنباتات ٤)، وراح يدرس الكيمياء وعلم الفلك، " فاكبّ على الكركات، ووقف، ~~وهو يحاول ان~~، والليل ساج يجلبب القصر بسكونه، يسرّح الطرف في السماء طويلا، وهو يحاول ان يخترقها الى ما وراء النجوم " ٥) ويقال ان الامير قد علق على بعض الكتب الفلسفية بملاحظات قيّمة. ٦)

روما كي يتلقّوا فيها العلوم، وبنوع خاص اللغة اللاتينية. وبالفعل ارسل البابوات ممثليه يختارون من اللبنانيين اولادا او كهنة ويعودون بهم الى روما. وما لبث البابا ان اسكن اللبنانيين في مكان خاص وقف له الاوقاف الكافية. وبقيت الحال كذلك حتى ايام غريغوريوس الذى حوّل البيت اللبناني في روما، بعد ما اضاف اليه العقارات، الى مدرسة سماها "المدرسة المارونية"، وذلك سنة ١٥٨٤.

(١) ادمون بلبيل — ص ٣١٤

(٢) حنا فاخوري — تاريخ الادب العربي — ص٨٨٨ — ٨٨٩

(٣) Jeanne Arcache - L'ennui à la croix - P. 167

(٤) ادمون بلبيل — ص ٣١٤

(٥) Jeanne Arcache - P. 171 . (٦) الاستاذ يوسف ابو جوده — من محاضرة القاها في النادى الثقافي الايطالي مستندا الى مصادر ايطالية.

وهنالك امراء وطنيون عاصروا فخرالدين وعرفوا بحدبهم على الادب . واشهر اولئك الامير يوسف سيفا ١) الذى كان يغدق على الشعراء العطايا من اموال طالما سرقها من اتباعه او من التجار الاجانب الذين جازفوا بنزولهم في مرفأ طرابلس!

هذه لمحة عن اهتمام المعنيين بالعلوم . وبعد زوال العهد المعني يطل العهد الشهابي . يصف لنا جون كارن الانسان في ذلك العصر يقول : "والشرقي على وجه الجملة رفيق خلوة شديد الاضجار . فاية مواضيع يمكن ان تكون مشتركة بينه وبين مضيفه ؟ هو لا يستطيع ان يتحدث عن الكتب والفنون والعلوم ، وهو يأبى الحديث عن ايمانه او حبه . على انه يتحدث عن السياسة ، لكن يجهل اوروبا جهلا عظيما ، يجهل مواقع بلدانها ومناخها وطبائع اهلها" ٢) هذه النظرة الشاملة تنطبق على المجموع في العصر الشهابي ، والعصور السابقة . بيد ان الامراء الشهابيين ماشوا الحركة الثقافية التي شجعها فخرالدين ، وراح الكثيرون منهم يدلون بدلائهم فيها . فسمح الاميرحيدر بانشاء مطبعة في الشوير ، وهي المطبعة الثانية التي انشئت في لبنان بعد مطبعة ديرقزحيا ، ودرس الاميرملحم الفقه وألّف الكتب في الشرع الاسلامي ، ووضع الامير حيدراحمد تاريخه "الغرر الحسان" ٣) ، الا ان الامير بشيرا الثاني كان على رأس الامراء الشهابيين اندفاعا (على ما عرف به من بطش وعلى ما اعترى حكمه من الهزات السياسية والعسكرية) . يقول الخورى صفير : "ولم يفت الامير ان العلم عامل فعال لترقية الامة وتحسين حالها ورفاهيتها واسعادها ، اللهم العلم الصحيح الذى يرافقه تهذيب الاخلاق . فقرب اليه رجال العلم والادب والشعر ، واكرمهم على منزلتهم ، وعهد الى بعضهم ادارة الديوان والقيام بما هنالك من انشاء رسائل وكتابة وتأليف وتدوين حسابات ، والى البعض الاخر تثقيف اولاده .. وكم مرة شوهد الاميروحوله العلماء والشعراء وتلامذتهم يشجعهم ويكافئهم ، ومنهم الشيخ ناصيف اليازجي ، والكونت رشيد الدحداح .." ٤) . ومن شعراء الامير كذلك نقولا الترك وبطبرس كرامه . " وكان الشعراء ، وهم عنوان ثقافة دولته ، ينظمون له

---

(١) Jeanne Arcache - P. 56

(٢) جون كارن ــ رحلة في لبنان ــ ص ١١٩

(٣) ادمون بليبل ــ ص ٣٢٦ ــ ٣٢٨

(٤) الخورى بطرس صفير ــ ص ٩٦ ــ ٩٧

القصائد متغنين بانتصاراته ويعيشون من هباته وعطاياه... ١) وقد فتح الامير المدارس، واوفد البعثات الى الخارج ، كالبعثة التي اوفدها الى القصر العيني في مصر لدراسة الطب .

هذا ، وقد عرف القرن التاسع عشر شخصية كان لها في النهضة اثرها: المطران جرمانوس فرحات . غرف فرحات من العربية ما شاءت نفسه التوّاقة الى العلم، ثم اخذ ينحو في قواعد اللغة نحوا خاصا سهّل المستعصي منها وسار بالباقي في طريق لم يألفه العلماء سابقا .

ويروى عن فرحات انه شكّل في حلب شبه مجمع ضم خيرة علماء المسيحيين، وراح يشجع هؤلاء على الكتابة ، موجها اعمالهم ، مصححا اخطاءهم، مقوما اساليبهم . ٢)

ننظر الى النهر الجيّاش فنعجب بقوة مياهه وازباده ، ونؤخذ بالتفكير به عن امور تافهة في الظاهر هامة في الواقع: تلك السواقي والمجاري الدقيقة الضعيفة التي لولاها لما تجمعت في النهر المياه ...

وساعمد في الفصول التالية الى اظهار خطورة السواقي التي اصبحت على الايام انهارا : اعني المدارس والمطابع والصحف والمجلات والمكتبات والجمعيات، تضاف اليها اعمال المرسلين الاجانب والمستشرقين ، وأظهر تطور هذه الدعائم التي عليها قامت النهضة .

---

(١) هنري غيز - جزء ٢ - ص ٢٢٩

(٢) P. Pierre Raphael - Rôle du collège maronite Romain - P. 164

المـــدارس

المدارس الاولى

ان الاحتكاك الذى يتم بين العقول يولّد الشرارة التي منها تنطلق الاشعاعات العظيمة التي تسجل الايام اخبارها بين الحين والحين . ولعل الميدان الذى يفسح للتفاعل المجال الاوسع هو ميدان المدرسة ، اذ فيها يحتك عقل التلميذ بعقل استاذه وبعقول زملائه ، فيطّرح الردىء من الافكار ويعتصم بالقيّم البنّاء .

لدى تقهقر المدارس التي عرفها لبنان في عهد المماليك والعهود السابقة ، التجأ العلم الى بعض الاديرة والمساجد ، او الى بعض القصور التي شغف اربابها بالعلم . " فكانوا غالبا ما يستقدمون المعلمين الى دورهم الخاصة، يدرّسون ابناءهم ... وقد يوسع رب الدار حلقة التدريس، فيسمح لابناء خاصته بحضور الدروس مع ابنائه ، فيصبح له مدرسة صغيرة... " ١) ويصف الدكتور شاكر الخورى هذا النوع من الحياة الدراسية فيقول : " فلاجل هذه المدرسة ٢) احضرني والدى من بكاسين وكنت اعرف القراءة والكتابة العربية والسريانية ،وكان من هذه المدرسة اولاد سعيد بك ٣) وهما نجيب بك الذى كان من عمرى واخوه نسيب بك الذى كان اصغر مني سنا . وكان معلمنا حضرة العالم العلامة والشاعر العظيم الشيخ ابراهيم الاحدب الطرابلسي الذى صار فيما بعد كاتب المحكمة الشرعية في بيروت وتوفي في هذه الوظيفة .

" وكانت هذه المدرسة في حارة المشايخ بيت نجم جنبلاط . وكان الشيخ المذكور يعلمنا ، وكنا سبعة ما عدا البيكين ، وهم الشيخ صالح والشيخ حسن اولاد الشيخ قاسم حصن الدين مستشار البك ، والشيخ قاسم ابن الشيخ حسين شمس من غريفه صراف البك ، ثم حسن ابن الماس من عبيد البك ،واسعد ابو صوان الذى كان والده ووالدته من خدمة البك ، وعلى حسن طليع ابن شيخ العقل من الجديدة . وكنا نجلس تحت الاخرون في الغرفة ، فكل منا يسمع درسه بعد انتهاء درس البكوات، وكان يدرّسنا في ديوان ابن الفارض غيبا بحيث كنت اقول القصيدة اليائية غيبا

---

(١) فؤاد افرام البستاني – ص ١٧١ (٢) مدرسة المختارة

الى آخرها بدون توقيف ، وكذلك الفية ابن مالك ، وقصيدة لامية العرب التي لم ازل حافظها للان بعد طول هذه المدة " ١)

المدارس الاجنبـــية وقد قيض الله للبنان مدرسة لعبت دورا هاما فـي حياته الثقافية، الا وهي مدرسة روما المارونية ٠ ٢) فمنذ القرن السادس عشر وفد على المدرسة جماعات من اللبنانيين الذين كانت ترسلهم اليها المرجع الدينـية المارونية ٠ وقد نبغ من هؤلاء التلاميذ عدد لا يستهان به ، وعمل بعضهم فـــي مدارس اوروبا حيث شغلوا مناصب سامية ٠ الا ان فضل اولئك لم يكن فـي نيلهـــم الشهادات العالية ، وفـي احتلالهم المناصب السامية ، بل فـي انشائهم المـــدارس فـي لبنان ٠ وقد خضع تلاميذ مدرسة روما فـي عملهم لتأثيرين : تأثير داخلي حثهم على تثقيف ابناء قومهم ، وتأثير ديني كان يحتم على الكاهن ان يكون معلما فـي الوقت نفسه ٠ اضف الى ذلك ، الامر الذى اصدره المجمع المقدس المنعقد فـي سنـــة ١٧٣٦ ، الى المطارنة والكهنة ورؤساء الاديرة وطلاب مدرسة روما ، والذى كان لـه اثر فعال فـي صفوف الموارنة اذ انهم سارعوا الى انشاء المدارس ٠ يقول امـــر المجمع المقدس : ٣) " اننا نأمر بان تفتح فـي المدن والقرى والاديرة مدارس يتلقى فيها الصبيان العلوم ٠٠٠ اننا نحث المطارنة والكهنة و رؤساء الاديرة على التعـــاون فـي سبيل تعيين المعلمين حيث تكون ثمة حاجة اليهم ، وعلى تشجيل اسماء الصبيان القادرين على تحصيل العلم ، وحمل اهلهم على ان يتوجهوا بهم الى المدارس ٠٠٠ اننا نأمر المعلمين بان يتبعوا الخطة التالية : ان يعلموا اولا القراءة والكتابة فـــي العربية والسريانية ، ثم المزامير ، وخدمة القداس ، والعهد الجديد ٠٠٠ على المعلميـــن الذين يختارون من مدرسة روما ان يعلموا الاولاد فـي المدارس ، ويثقفوا الاهلـــين فـي القرى المجاورة بكلام الرب ٠٠٠ "

وهكذا خضع رجال الدين لقرار مجمعهم ، كما خضعوا كذلك قبلا لدوافع دينية وشخصية مختلفة ، " فاسسوا مدرسة القرية المجانية قرب كل دير او فـي ظـــل

---

(١) الدكتور شاكر الخورى — مجمع المسرات — ص ٢٠ — ٢١

(٢) راجع ص ٢٨ من هذه الرسالة (الهامش) و : Raphael - P.P. 53 - 65

(٣) Raphael - P. 174

كل كنيسة . هذه هي مدرسة "تحت السنديانة" كما يدعوها البعض . لقد بذلوا طاقتهم في نشر اللغة العربية بين المسيحيين ، وفي المحافظة على اللغة السريانية بين تلاميذهم.." ١) وفي حركة الكهنة يقول زيدان : " اما المدارس النصرانية فاقدمها في لبنان للطائفة المارونية غير ما كان منها في حلب للرهبنات المختلفة . وللموارنة فضل السبق بانشاء المدارس في لبنان منذ عهد بعيد في اهدن وصوفر وبقرقاشة في شمالي لبنان. وكان اساتذة هذه المدارس بوجه الاجمال من الكهنة الا نادرا ، ناهيك بالمدارس الصغرى التي كانوا ينشئونها في الاديرة ويسمونها "انطوش"، مثل انطوش جبيل انشئ سنة ١٧٦٤ ، وانطوش زحله عام ١٧٦٩ ، وانطوش دير القمر ١٧٨٢ وغيرها..." ٢)

وكما كان للمسيحيين مدارسهم ، كان هنالك مدارس للمسلمين نهضت مع النهضة العامة في البلاد . "وكان المصريون اسرعهم الى اطّراح الغفلة لوفرة دواعي النهضة عندهم ، وخصوصا في زمن اسماعيل . ونشط بعدهم مسلمو بيروت ودمشق وحلب فانشأوا المدارس، وصدفوا عن المدارس الاميرية وقد رأوا انها لا تنشئ الا رجالا مستتركين في بيانهم ، رجال سيف وادارة لا رجال علم وثقافة." ٣)

والى جانب هؤلاء نجد رجال الارساليات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية الذين سارعوا الى الشرق طمعا في كسب اكبر عدد ممكن من الاشخاص لاهداف لم تكن دائما دينية محضة . "وكانوا مختلفي اللغات والثقافات ، فانشأوا المدارس ومكنوا ابناء لبنان من الاطلاع على ثقافات الغرب المختلفة ، فقابلوا بين ما هم علية وما للغرب من رقي ، وعرفوا الداء والدواء ، وتجندوا لخدمة البلاد ، وعملوا بكل نشاط على ترقية حالها." ٤) ومن اشهر المدارس التي انشأها المرسلون الكاثوليك مدرسة عينطورا التي بناها اليسوعيون بمعاونة الموارنة سنة ١٧٣٤ ٥)، وهي تعتبر

---

(١) Raphael - P. 166

(٢) جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جزء ٤ ـ ص ٣٨

(٣) بطرس البستاني ـ ادباء العرب ـ جزء ٣ ـ ص ١٥١

(٤) حنا الفاخوري ـ ص ٨٩٠

(٥) Hitti - P. 674 et Raphael - P. 175

بحق اول مدرسة عصرية • بيد ان الحملة التي استهدف لها اليسوعيون ١) والتي ادت الى حل جمعيتهم حولت ادارة المدرسة الى اللعازاريين • والى جانب مدرسة عينطورا انشأ اليسوعيون جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٨٧٤، وكانوا قد انشأوا قبلا مدرسة في غزير كسروان ولكنهم الغوها ليبنوا جامعتهم ٢٠) واهتم المرسلون الكاثوليك بالاناث فانشأوا لهن مدرسة راهبات مار يوسف (١٨٤٥) ، ومدرسة راهبات المحبة (١٨٧٤) وغيرهما •••

اما البروتستانت فقد انشأوا عددا من المدارس في بيروت وغيرها • ومن اول هذه المدارس مدرسة عبيه التي اسستها الارسالية الاميركية سنة ١٨٤٧ ٣) —

---

(١) قويت جمعية اليسوعيين في اوروبا كثيرا، حتى هبت الاوساط المتحررة ، كالجامعة الفرنسية مثلا ، تناصبها العداء لاعتبارها عنصرا يسمم الافكار • وقد طرد اليسوعيون من البرتغال سنة ١٧٥٩ ، ومن فرنسا سنة ١٧٦٢ ، وسنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٠١• وما كان من البابا كليمان الرابع عشر الا ان حل الجمعية سنة ١٧٧٣ ، وهذا ما اشرت اليه اعلاه • ولكن الجمعية اعيدت الى الحياة في ايام البابا بيوس السابع سنة ١٨١٤ •

(٢) انيس نصولي — اسباب النهضة العربية — ص ٤٣

(٣) يصف روبنصون هذه المدرسة قائلا : " جرى الامتحان في اليوم التالي ، وقد ضمت المدرسة في ذلك الوقت تسعة عشر صبيا بين الثالثة عشرة والعشرين من سنيهم • كانوا ينامون ويأكلون في ذلك الوقت بنايات الارسالية • كانوا من طوائف مختلفة : روم ارثوذكس، روم كاثوليك ، بروتستانت ، دروز ، ولم يكن بينهم موارنة في ذلك الحين • وفي المدرسة ، عدا الرئيس المستر كلهون ، معلمان وطنيان، مخايل واسعد ، وبعض الاحيان يكلف اثنان من التلاميذ القدماء لتعليم الصفوف المبتدئة • كانت امائر النباهة والاجتهاد تظهر على بعض التلامذة • اما الامتحان فكان في غاية الدقة ، واشتمل على الدروس الابتدائية والتكميلية في اللغة العربية مع تمارين كتابية ، والحساب والجبر والجغرافيا ، ومبادئ علم الفلك ، وخصوصا دروس في تاريخ الكتاب المقدس ومبادئه • وقد دلت الاجوبة على سرعة خاطر ونباهة كما يجرى في المدارس العليا في بلادى واوروبا • اما اللغة الانكليزية فلا تدرّس الا لبعض التلامذة المتقدمين في العلوم ، وهذا امتياز خاص منح لهم • فقد رؤى ان من الاوفق تلقينهم المبادئ الدينية وغيرها من العلوم في لغتهم الوطنية "

روبنصون — يوميات في لبنان — جزء ١ ص • ١٠٥ — ١٠٦

وهنالك مدارس اخرى كالمدرسة الانكليزية التي اسستها مسز طومسون سنة ١٨٦٠ ، والمدرسة الانجيلية للبنات سنة ١٨٦١ ٠ ١)

وعلى رأس المدارس البروتستانتية الجامعة الاميركية في بيروت ٠ وقد دعيت في اول عهدها المدرسة السورية الانجيلية ٠ انشئت الجامعة سنة ١٨٦٦ ، وكان اول من فكر بانشائها وسعى لذلك الدكتور دانيال بلس الذى زار لبنان وشعر بحاجته الى العلم فما لبث ان عاد الى الولايات المتحدة يخطب ويعقد الاجتماعات حتى تسنى له ان ينشىء المدرسة التي كان عدد تلاميذها نحو ٤٦ عند افتتاحها ، وهم اليوم زهاء ثلاثة آلاف ٠ ٢)

والى جانب هذه الثقافات اللاتينية والانكليزية والاميركية ، يشهد القرن التاسع عشر بزوغ الثقافة الروسية في لبنان٠ وذلك في اولى المدارس المسكوبية المنشأة سنة ١٨٨٧ في بيروت تدرس العربية والروسية ، والفرنسية ، ثم بامتدادها الى الشويفات سنة ١٨٩٤ ، ودوما سنة ١٨٩٥ ، واميون سنة ١٨٩٧ ، وكوسبا وزحلة ومنياره وبسكنتا وحاصبيا وراشيا سنة ١٩٠٠ ٣)

هذه المدارس الاجنبية حدت اللبنانيين الى انشاء المدارس الخاصة او المدارس الطائفية الوطنية ٠

المدارس الوطنية انشأ الارشمندريت اثناسيوس قصير الارثوذكسي مدرسة دينية في البلمند سنة ١٨٨٣ ٤) ، وانشأت الطائفة الارثوذكسية مدرسة الثلاثة الاقمار في بيروت سنة ١٨٦٥ ، ومدرسة زهرة الاحسان للبنات سنة ١٨٨٠ ٥) وانشأ الارمن الكاثوليك مدرسة بزمار سنة ١٧٩٧ ، وكانوا يدرّسون فيها الارمنية والفرنساوية والايطالية واللاتينية ٠ ٦) وانشأ الروم الكاثوليك مدرسة عين تراز سنة ١٨١١ ،

---

(١) انيس نصولي - ص ٥

(٢) راجع زيدان - ص ٤١

(٣) فؤاد افرام البستاني - ص ١٧٩

(٤) Raphael. P. 175

(٥) انيس نصولي - ص ٥٣ - ٥٤ ٠ اسست المدرسة املي سرسق ، ومن برامجها : اللغات العربية والفرنساوية والانكليزية والروسية واليونانية ، والبيانو، واشغال اليد والتعليم المسيحي ٠

(٦) فؤاد البستاني - ص ١٧٢

انشأها البطريرك اغابيوس مطر ، وكانوا يدرسون فيها العربية والفرنسية واليونانية واللاتينية ، وفي سنة ١٨٣٠ انشأوا مدرسة المخلص تدرس العربية والفرنسية واليونانية ١) وانشأوا كذلك المدرسة البطريركية سنة ١٨٦٥ . وانشأ المسلمون المقاصد سنة ١٨٨٠ ، والموارنة الحكمة سنة ١٨٧٦ ، واليهود المدرسة الوطنية الاسرائيلية سنة ١٨٧٤ ...

ومن اشهر المدارس الوطنية آنذاك مدرسة عين ورقه "ام المدارس الوطنية في هذه البلاد" . يقول زيدان انها " كانت ديرا على اسم مار انطونيوس، فجعلها البطريرك يوسف اسطفان عام ١٧٨٩ مدرسة على مثال مدرسة روميه " . ٢) اما برامج هذه المدرسة فكانت : العربية ، السريانية ، اللاتينية ، الايطالية ، وسائر العلوم المطلوبة في المدارس الاوروبية الكبرى . ٣)

ومن المدارس الخاصة اشتهرت مدرسة المعلم بطرس البستاني التي انشئت سنة ١٨٦٣ . وهي مدرسة لا طائفية " تقبل فيها جميع ابناء الوطن دون تمييز ويسن لها ، ويسن لها منهجا في التدريس خليقا بالكليات الكبرى ، فيدرس العربية والفرنسية والانكليزية والترجمة والتاريخ والجغرافيا . ٤) وهنالك مدرسة عبية التي انشأها الامير ملحم ارسلان بمساعدة سعيد تلحوق لطائفة الدروز ، ويرجع تأسيسها الى سنة ١٨٦٢ ، وكانت تقبل الطلبة مجانا لاعتمادها على الاوقاف التي الحقها بها الامير المذكور . ٥)

يطول بنا التعداد اذا اردنا ان نذكر المدارس جميعها التي انشئت

---

(١) فؤاد افرام البستاني ـ ص ١٧٢

(٢) جرجي زيدان ـ ص ٣٨ . يقول الخوري بطرس صفير ، ص ٩٩ ، ان الفضل في تأسيس المدرسة يعود الى الشيخ غندور السعد مدبر الامير يوسف شهاب وقنصل فرنسا . ويذكر كذلك ان اياما عصيبة مرت على المدرسة ، " ولولا الامير بشير وعضده لكانت توقفت عن اداء رسالتها الثقافية .

(٣) فؤاد افرام البستاني ـ ص ١٧٠ ـ ١٧١

(٤) فؤاد افرام البستاني ـ ص ١٧٦ . يضيف نصولي الى برامجها اليونانية والبيانو وفن التصوير (نصولي ـ ص ٥٠ ـ ٥١)

(٥) شكيب ارسلان ـ النهضة العربية في العصر الحاضر ـ ص ٤٤

في لبنان بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر . لذلك اكتفي بما ذكرت منها، ففيه الكفاية ، وفي المراجع التي اشرت اليها في سياق البحث مصدر لراغبي الاستزادة... وانتقل الان الى استعراض طريقة المدارس والمناهج المتبعة فيها .

المناهج المدرسية ان ما مر معنا يجب ألّا يحملنا على الاعتقاد ان العلم قد ثبتت دعائمه آنذاك ، وان المدارس كانت صورة حية تعكسها لنا مدارس اليوم . ١) فهنالك مدارس جلّت في مضمار الثقافة واخرجت الى حلبة الادب ابطالا، والى جانبها مدارس تبعت حتى عهد متأخر اسلوب "تحت السنديانة" . يقول غيز :٢)

" ان المدارس العامة قليلة جدا ، ولا يعلّم فيها الا القراءة والكتابة بدون اتباع قاعدة . والاولاد الذين يراد ان يتلقوا دروسهم يتعلمون قراءة القرآن . ولما كان هذا التعليم يعتب الاطفال الذين قلما يقدرون جمال الاسلوب ، فانهم يعدونهم باجمل الاماني التي تحقق ، بدون مطل او خلف ، يوم يصرح المعلم بان تلميذه ختم الكتاب الكريم" . وعن مدارس المسيحيين يقول : " يقوم بنفقاتها دخل عقار ما اشتراه الاهلون، او وقفه احد الاتقياء لينعم به المعلم الذى يكون دائما كاهن القرية : انهم يعلمون فيها اللغتين : العربية والسريانية ، ولا يكاد يحسن الصبيان القراءة حتى يحولهم ذووهم الى العمل ، فلا يلبثون ان ينسوا كل شيء . وهذه المدارس تكون خلال سبعة او ثمانية اشهر من السنة في الهواء الطلق ، اما بقية ايام السنة ففي غرفة صغيرة تابعة للكنيسة ." ٣)

---

(١) كان التعليم احيانا ملهاة او "عملا" يقصد به الكسب . يقول الدكتور شاكر الخورى في "مجمع المسرات" ، ص ١٥٧ : "فخطر ببالي ان اعمل مدرسة واجمع فيها اولاد القرية لكي اعلمهم اللغة الافرنسية . وكان اخي المرحوم خليل يومئذ موجودا في البيت وكان ماهرا في اللغة العربية ، فجعلته ان يعلم معي الصفوف العربية ، فابتدأت اولا بجمع اولاد العائلة ثم بعض اولاد من اهالي القرية ، وجعلنا الراتب عن كل واحد ثلاثين غرشا شهريا ... وقد جعلت الاوضة (كذا!) الشمالية من بيتنا مدرسة حيث لا لزوم لنا فيها ، وهذا المحل كان كافيا لصف ابتدائي ..."

(٢) هنرى غيز ـ جزء ١ ـ ص٣٧

(٣) هنرى غيز ـ جزء ١ ـ ص ٦٥ ـ ٦٦

كانت المواد المدرّسة اذا (ف) منحصرة فـي العربية والسريانية والقراءة والكتابة وبعض القواعد وعلوم الدين . الا ما كان منها فـي المدارس الكبيرة . اما اللغة العربية فلم يعن بها كل العناية ، خصوصا فـي مدارس المرسلين . وفـي هذا الموضوع يقـول زيدان : " مرعلى المدارس الكبرى فـي سوريا ولبنان ومصر عشرات من السنين والتعليم فيها باللغة العربية . فزهت هذه اللغة وازدهرت ، وهو عصرها الذهبي فـيّ هذه النهضة . ولذلك نشكو من الكلية الاميركية والكلية اليسوعية فـي بيروت ، ومن المدارس الاميرية المصرية لانها جعلت التعليم فيها باللغات الاجنبية وحجة اصحابها هـــذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربية وكثرتها واتقانها فـي اللغات الاجنبية . وهو اعتراض وجيه بالنظر الى التعليم بحد ذاته . لكن التعليم يراد به ايضا شيء آخر لا يقل اهمية عن ذلك ـ نعني ترقية شؤون الامة وجمع كلمتها واحياء آمالهـا . وهذا لا يكون الا بترقية لسانها واحياء آدابه بتأليف الكتب العلمية والادبـية وانشاء الصحف والمجلات فيه ، ولا يتيسر ذلك الا اذا كان هو قاعدة التدريس فـي المدارس العالية " ١) وقد قامت مشادة حول الموضوع بين الاساتذة والادارة فـي الجامعة الاميركية ، " فآثر فانديك ترك الكلية على قبول التعليم فيها بالانكليزية ، فكان رافع لواء الثورة التي قضت بانفصاله عنها مع بعض الاساتذة وبعض الطلاب . " ٢) وما تزال قضية العربية فـي المدارس قضية رئيسية حساسة ، ولكن البعض من اصحـاب المدارس ، ممن ينعم بخيرات لبنان ولا يعيش الا من اموال ابناء لبنان ، يأبى ، والحقد يحقن منخريه ، الا ان يحتقر لغتنا فـي ديارنا ، والمسؤولون عن المحتقر المغتصب لاهون ، حتى بتنا ننظر بعجب الى من يتقن العربية ، لان اللغات الاجنبية قد حلت، عن سابق قصد وتصميم ، محل لغتنا الحبيبة ، فـي المدارس ، والاندية ، والمجتمعـات ، وحيثما اجتمع اثنان من مواطنينا المتخنثين ! . . . ٣)

وفـي اواخر القرن التاسع عشر شعر بعض الادباء ، خصوصا الذين احتكوا بالغرب على نطاق واسع ، وخبروا حياته ، بالنقص اللاحق بالحياة التعليمية عندنا ، فكتب اديب اسحاق يقول : " لا تكون السجون فارغة الا اذا امتلأت المدارس ، ولا تمتلـىء

---

(١) جرجي زيدان ـ ص ٤٣

(٢) نقولا فياض ـ ذكريات ادبية ـ ص ٦٢

(٣) راجع فـي هذه الرسالة الفصل المطول المتعلق بالقضية : بين الشرق والغرب

المدارس الا اذا حصل التعليم الزاميا" ١) ثم يتابع موضحا : " ولكن ليس في الوجود الطبيعي والمدني من واجب الا بحق يماثله · وليس فيه من حق الا بواجب يقابله ، فاذا وجب على الوالد للهيئة المدنية تعليم ولده ، فقد حق له امكان ذلك التعليم على قدر الكفاء · واذا حق للهيئة الحاكمة اجباره عليه ، فقد لزمها توفير اسبابه وتمهيد سبيله على قدر الامكان · ٢)

ولكن هذه الدعوة ذهبت "صرخة في واد !" فلا الحكومة العثمانية كانت على استعداد للقيام باى عمل من شأنه التنوير والمساعدة ، ولا الحكومة المنتدبة حاولت ان تتفهم مطالب الشعب الكادح المسكين المشدود ابدا الى اسفل بسلاسل الاثرة والاقطاعية والفوارق الطبقية · اما العهد الاستقلالي فانه يشهد جماعات من المسؤولين "استقلوا" عن الشعب استقلالا تاما ، مكتفين بالتنويه بان لبنان بلد الاشعاع ، دون ان يلتفتوا الى ان ينال النصيب اللازم من ميزانية الدولة ، فكأنه بذكر الاشعاع فحسب يحيا وبه يشع !

المدارس وتدريس العربية في المهجر

ولم يقتصر نشاط المدارس في القرن التاسع عشر على لبنان المقيم · ففي المهجر قامت العربية تطالب بنيها بحق الرعاية فلبوا الدعوة ، وملء النفوس منهم رغبة ملحّة في رفع لوائها · يقول توفيق ضعون في هذا الاتجاه : " لقد بذل مواطنونا في جميع انحاء هذه البلاد المترامية الاطراف (البرازيل) ، وفي كل مكان آخر نزلوه ، كل ما في وسعهم لكي يحملوا بعض المتعلمين الذين ساقتهم اليهم الاقدار على اعطاء بنيهم دروسا خاصة ، او انشاء مدارس نهارية او ليلية ، وبغيتهم في الدرجة الاولى تلقين اولادهم لغة آبائهم واجدادهم تقوية للصلات الروحية والعاطفية التي تربطهم بفلذات اكبادهم ما داموا مقيمين في مهاجرهم ، واذا هم عادوا بهم يوما الى الوطن الاصلي لم يشعر هؤلاء بانهم غرباء فيه ، وهكذا يكسبونهم لا كأبناء فقط بل كمواطنين ايضا " ٣)

وسعى المهاجرون في البرازيل الى الذود عن اللغة بطريقتين : الاولى

---

(١) اديب اسحاق — الدرر — ص ٢٤٤

(٢) اديب اسحاق — الدرر — ص ٢٥٧

(٣) توفيق ضعون — ذكرى الهجرة — ص ١٧٧

ترمي الى ايجاد مدارس عربية ، والثانية تهدف الى حمل البرازيليين والاجانب على ادخال برامج العربية الى مدارسهم٠ ولقد وفّقوا في هاتين الطريقتين ،اذ تمكنوا من ادخال صف عربي في المدرسة الانكليزية البرازيلية تولى التعليم فيه توفيق ضعون ، ١) وتمكنوا من تخصيص كرسي للعربية في سان باولو ٢)٠ اما المدارس الوطنية فاولاها المدرسة التي انشأها المعلم طنوس حنا الياس سنة ١٩٠٠ وسماها المدرسة اللبنانية ٣)، وقد تلا هذه المدرسة عدد من المدارس نذكر منها مدرسة ساره شاهين سنة ١٩١٤ ، ٤) والكلية الشرقية سنة ١٩٣٤ ٤)، والمدرسة الاطلسية سنة ١٩١٩ ٤) ، والمدرسة الوطنية للعلوم والاداب سنة ١٩١٩ ٤) ، ومدرسة القديس ميخائيل سنة ١٩٢٢ ٤)، ورواق ابي العلاء المعرى الذى

---

(١) توفيق ضعون — ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) توفيق ضعون — ص ١٩٩ — ٢٠٣ : " كانت نواة هذه المنبرية الفكرة التي بثها المؤرخ فيليب حتي في اذهان متخرجي الجامعة الاميركية في اثناء اقامته بيننا عام ١٩٢٥ ٠ ولكنها لم تجد تربة صالحة الا في ذهن واحد منهم هو الاخ جميل صفدى ٠ فقد اختزنها وراح يتعهدها باسباب التنمية بجهاد صامت وعزيمة صادقة ، وتوسل الى تحقيقها بدخوله في جامعة سان باولو حيث طفق يبشر بها ويدعو رفاقه الى اعتناقها وتأييدها مصورا لهم جمال اللغة العربية وكاشفا لهم عن بعض ما تتضمنه من كنوز الى جنب انها الينبوع الفياض الذى استقت منه لغتهم دررا غوالي من آلاف الالفاظ ٠٠٠ بعد السعي المقنع عميد الجامعة بضرورة انشاء كرسي عربي في الجامعة ، ولكنه اشترط ان يتعهد ابناء العرب هذا الكرسي باموالهم ريثما تقتنع الحكومة بضرورته وتوفر له الاعتماد اللازم٠ فما كان من العرب الا ان انقسموا قسمين : قسم يؤيد على اعتبار ان الفرصة ثمينة يجب ألّا تفوتهم وعلى رأس هذا الفريق رشيد سليم الخورى ، وقسم يعارض على اعتبار ان امتهانا بلحق اللغة اذا ما اعرضت الحكومة عن تخصيص المال لكرسيها ٠ ولكن الفريق الاول تغلب ، وتبرع بالمال يوسف نقولا اليازجي وغيره وعين استاذا توفيق قربان ٠٠٠"

(٣) توفيق ضعون — ص ١٧٧

(٤) توفيق ضعون — ص ١٧٩ ٠ ١٨٣

اسس سنة ١٩٠٠ ١) ، وغيرها ...

الا ان حركة المدارس العربية هذه كانت ضعيفة في اميركا الشمالية وبنوع خاص في الولايات المتحدة ، حيث يذوب المهاجرون في البوتقة الاميركية اسما ولغة وحياة ، الا من كان منهم لبناني المنشأ فانه يحافظ على ذكريات وطنية تجعله دائما يحن الى الوطن الاول . ولهذا الاختلاف بين مهاجري الجنوب ومهاجري الشمال اسباب ، اهمها ان العربي الذى هاجر الى الجنوب وجد نفسه يفوق سكان البلاد ثقافة وتقدما ، فاحتفظ بشخصيته وراح يسعى لتعزيزها ورد غوائل المكان والزمان عنها . بينما اتجه البعض الى الشمال فاذا بهم في بلاد قطعت في مضمار التقدم الاقتصادى والاجتماعي اشواطا ، واذا بهم يشعرون بالنقص ، فاخذوا يستترون بعد ما ابتلوا بالمعاصي ، فاصبح مخايل مايك ، واصبح يواكيم جو ، واصبحت سليمه ، بعد الاعلال والادغام والاعيب النحو ، سالّي او سوزان!!!!

لقد كان للمدارس اخطر الاثر في توجيه العرب الى مناهل النهضة ، فعرضت عليهم علوما ولغات كانوا يجهلونها ، كما انها اطلعتهم بواسطة الادب العربي والاداب الاجنبية على آفاق في الحياة كم سدّها على آبائهم جهلهم المطبق . فكان من نتيجة ذلك ان نهضت البلاد نهضة علمية ماشتها نهضة اجتماعية ، فاذا بالعقول تتجه نحو الابداع بعد ما انكمشت على نفسها في شرنقتها قرونا . وساعد المدارس على اداء رسالتها ان المطابع قامت تسدى اليها المعونة ، فانتشرت الكتب على نطاق واسع ،

---

(١) " كانت هذه المؤسسة خير ما انشىء في هذه البلاد من معاهد التعليم والتثقيف والتهذيب ، اذا نظرنا الى العهد الذى انشئت فيه ونبالة الغاية التي اوحتها . وكان تأسيسها سنة ١٩٠٠ . كان نعوم لبكي بشهادة جميع عارفيه ، اديبا ذكيا متبصرا حكيما صافي النية حسن القصد ، وكاتبا لبقا ذا حجة قارعة ، وشاعرا خطيبا واسع الافاق ، وبفضل هذه المزايا الغريزية والمكتسبة استطاع ان يجمع حوله عددا من الشبان المثقفين وعددا آخر من الشبان الاميين ، فتوفق بذلك الى نواة هذه المؤسسة الثقافية التي كانت تضم تحت سقفها اعضاءها المتفاوتي المدارك لكي يسمع غير العارفين منهم محاضرات العارفين وما يدور بين هؤلاء من الابحاث والمحاورات في مواضيع ثقافية واجتماعية وسياسية . وعلى هذا الشكل كانت معهدا لانارة اذهان المبتدئين الذين لم يكونوا سوى الباعة المتجولين ..." — ضعون — ص ١٨٦ — ١٨٧

المطـــــابع

يوم كان العلم رهنا باسياد القصور وابناء الصوامع والمساجد والاديـــــرة، كان الكتاب ، على بطء سيره فـي الناس، يقوم بمهمته على اكمل وجه · بيد ان الشعب شق طريقه الى حقوقه ، وراح يساهم الى حد بعيد فـي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، فانتظم فـي المدارس مئات الالوف من التلاميذ ، ووقف الملايين يتسقطـون الاخبار المحلية والعالمية التي تطلع بها عليهم الجرائد والمجلات · فاصبح النسـخ ضربا من المحال فـي عهد سادت فيه الكثرة والسرعة ، لذلك التجأت الكتب والصحف الى المطابع تسخّرها لتحقيق رسالتها التثقيفية ·

تذهب الروايات الى ان عرب الاندلس قد عرفوا الطباعة على الحجـــــر والخشب ١)· ومهما يكن من امر فان الطباعة العربية لم تعرف فـي البلاد العربيـة فـي بادئ عهدها ، بل فـي اوروبا ، فـي ايطاليا · " ففـي الثاني عشر من ايلـــول سنة ١٥١٤ ، اصدر الطبّاع الفينيسي غريغوريوس غريغوروس فـي بلدة "فانو" فـــي ايطاليا اول كتاب عربي ، وهو كتاب صلاة السواعي " ٢) وطبع بعد هذا الكتاب سفـــر الزبور سنة ١٥١٦ ، ثم طبع القرآن فـي البندقية ، بيد ان طبعته اعدمت خوفا مـــن تأثيره على معتقدات النصارى · ٣)

ولكن الشرق ما لبث ان عرف الطباعة · واول مدينة عثمانية ادركها هـــذا الفن كانت الاستانة ، التي شهدت اول مطبعة فـي اوائل القرن السادس عشر · امـــا الطباعة بالاحرف العربية فلم تدخل الاستانة الا فـي الثلث الاول من القرن الثامـن عشر ٤)·

---

(١) جرجي زيدان — ص ٤٤

(٢) Nasrallah. l'imprimerie au Liban - P. XV

(٣) جرجي زيدان — ص ٤٤

(٤) جرجي زيدان — ص ٤٤ — ٤٥

وقد سبقت حلب سائر المدن العربية والعثمانية في الطباعة العربية. ١) ذلك ان البطريرك اثناسيوس الرابع الدباس استجلب ادواتها، وصنع امهات الحروف العربية لتلك المطبعة الشماس عبد الله الزاخر، واول كتاب اخرجته مطبعة حلب هو كتاب المزامير لداود النبي. ٢) وكان ذلك سنة ١٧٠٦.

ومن حيث الطباعة كفن مستقل عن اللغة، فان لبنان اول من عرفه بين البلدان العربية. فقد ظهرت الطباعة فيه اول ما ظهرت في دير مار قزحيا سنة ١٦١٠، الا ان احرف المطبعة كانت سريانية، وقد طبعت كتاب المزامير بحرف كرشوني ٣) الا ان تاريخ هذه المطبعة غامض، فلا يعرف من اين اتي بها، ولا من اسسها، ولا من حل بها بعد سنة ١٦١٠. كل ما في الامر ان الاسماء المذكورة في نهاية طبعة المزامير تشير الى طلاب من مدرسة روما، لذلك يرجح ان يكون هؤلاء قد حملوا معهم الى لبنان مطبعة يوم غادروا روما. ٤) ولكن اللبنانيين لم يكونوا على علم بفن الطباعة، لهذا اضطر مؤسسو مطبعة دير قزحيا ان يستعينوا بخبرة الاجانب، فلجأوا في هذه المهمة الى طبّاع ايطالي يدعى باسكالي ايلي ٥)

وما لبثت المطابع بعد ذلك ان تعددت في لبنان، بعد ما انحصرت المطابع الاولى في الاديرة. ومن اهم المطابع مطبعة مار يوحنا الصابغ في الشوير، وقد اسسها الشماس عبد الله الزاخر حوالى سنة ١٧٣٢. يقول فولني في وصف دير مار يوحنا: ٦) " ان اهميته الاولى هي في مطبعة عربية، وهي الوحيدة التي لاقت نجاحا في الامبراطورية العثمانية. وقد اسست منذ نحو خمسين سنة "

---

(١) ان الاسكندرى وعناني لا ينتبهان لهذه الحقيقة الدامغة التي اقرها غير واحد من المؤرخين، فيقولان في "الوسيط": "واول مطبعة عربية وصلت الى الشرق كانت مع اللجنة العلمية التي صحبت حملة بونابرت، وطبع بها في مصر كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨، ثم كتاب القراءة العربية، الخ." الوسيط ـ ص ٣٢٣

(٢) حنا فاخورى ـ ص ٩٠٩ ـ ٩١٠

(٣) Hitti - p. 676 - Nasrallah - P. 169

(٤) Nasrallah. P. 6

(٥) " P. 7

(٦) Volney - Voyage - T. 2 P.P. 174-175

وقد صنع الزاخر نفسه امهات حروف هذه المطبعة ١٠)

واشهر المطابع التي عرفت فيما بعد : مطبعة دير قزحيا الثانية التي نقلت الى دير قزحيا سنة ١٨٠٨ بعدما انشئت في الدوّار ٢)، ومطبعة القديس جاورجيوس التي يقول فيها نصرالله ٣) : " والعمل الذى حققه عند الروم الكاثوليك عبد الله الزاخر حققه عند الارثوذكس الشيخ يوسف نقولا الجبيلي المعروف بابي عساكر (توفي سنة ١٨٨٧) فقد اسس هذا الاخير في بيروت مطبعة القديس جاورجيوس واتخذ احرف الشوير مثالا . واول كتاب اخرجه في هذه المطبعة هو كتاب المزامير سنة ١٨٥١ ، وقد اتبعه بطبعة ثانية بعد عامين " . وهنالك ايضا المطبعة الاميركية سنة ١٨٣٤ ، والمطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨ ، وغيرها ـــ

يعبر فولني عن تأثير المطابع بقوله : " ان اثر المطابع عظيم جدا، حتى ان مؤسسة ماريوحنا وحدها، على النقص اللاحق بها، قد احدثت في حياة المسيحيين تغييرا ملحوظا . فان القراءة والكتابة ، وبعض الثقافة ، هي اليوم اكثر شيوعا بينهم منها منذ ثلاثين سنة ." ٤)

اجل ، ساهمت المطبعة في تنوير الاذهان ، لانها وضعت في متناول

---

(١) عن الزاخر راجع : كارن ، ص ١٢٠ ــ ١٢٥ و Volney - T. 2 - P.P. 174-180 . اما عن المطبعة فان جون كارن يحدد موقعها بين الدامور ودير القمر فيقول : " لدن يصعد المسافر من يمين الدامور الى رأس الطريق ليمضي من ثم الى بيروت ، سرعان ما تقع عيناه على غابة جميلة من شجر الصنوبر . وان المشاهد كلها لساحرة على هذه الطريق من بيروت الى دير القمر وقصر اميرها في بيت الدين . وبين جملة الاديرة في جوار هذا الموقع ، وعلى مسافة ساعتين منه ، دير مار يوحنا المشهور بمطبعته ذات التاريخ الفريد الطريف . يبلغ عمرها نحوا من مئة سنة ، واليها يشير فولني فيقول انها المطبعة الوحيدة التي صادفت نجاحا في الامبراطورية العثمانية " (كارن ــ ص ١١٩ ــ ١٢٠) ولا يخفى ما في هذا من خطأ ، لان فولني يشير الى مطبعة الشوير .

(٢) Nasrallah - P.P. 65-66

(٣) " - P. 46

(٤) Volney - T. 2 - P.P. 415-16

الناس على اختلاف طبقاتهم العنصر الاساسي للمعرفة : الكتاب . لقد كان الناس قديما ينتقلون من مكان الى آخر متجشمين المشاق سعيا وراء كتاب مخطوط يقرأونه ثم يعودون . وصاحب الجلد والوقت منهم كان ينسخ كتابا . وهنالك فئة كانت تستنسخ الكتب لقاء مبالغ من المال . اما الفقير المعدم الذى لا يعرف من يعيره كتابا ، ولا يمكن ان يقضي وقته في النسخ خوفا على اللقمة من الافلات ، ولا يملك ما يستنسخ به الناس فقد حرم من فائدة العلوم . ولكن المطبعة سدت الفراغ ومدت زادها للجميع ، لا تفرق بين غني وفقير . وهذا ما ساعد العلم ان يعمّ الشعب ، وهذا ما ساعد انتشار الصحف التي تعتبر اليوم من دعائم الثقافة في كل بلد .

ليس ادل على اهمية الصحافة من التدابير الانتقامية التي تقوم بهـــا السلطات الظالمة ضدها : فهوذا بونابرت يقضي على عشرات الجرائد ولا يحتفظ منها الا بالمنصاع النفعي ، اى القليل القليل + وهوذا نابليون الثالث يصدر القانون تلـــو القانون للحد من حريات الصحف ، وتشديد الرقابة الحكومية عليها ٠ وها الاتـــراك يحوّلون الصحف بنظامهم البوليسي الى وريقات تافهة غالبا : لا سياسة الا ما كان منها موافقا لسياسة السلطان ، ولا اخبار الا ما كان منها تمجيدا لاعمال السلطان و "زبانيته"، ولا ادب الا ما عج بالتدجيل والخبث والكلام المزركش ٠ ان هذا الخوف الذى يقض على الظالمين مضاجعهم لاسطع دليل على ما للصحافة من اثر في توجية الرأى العام٠

وقد شهد التاريخ آثارا خطيرة جرّت اليها الصحف ٠ وهل من اثر اعظم من الذى تركته الجرائد فـــي مجرى الثورة الفرنسية ؟ كانت الجرائد توّجه الاحزاب ـ او بالاحرى الكتل والجماعات ـ كاليعاقبة والكوردوليه وغيرهم ، فتسير بهم الى الموت وهم صاغرون ، وقد اثارهم مقل زعيم ، او خبر مثير٠

كانت اوروبا قد بلغت شأوا يذكر في فن الصحافة عندما سلك هـــذا الفن طريقه الى بلاد العرب ٠ واذا كان لبنان قد سبق غيره بانشائه اول مطبعـــة فان مصر سبقته الى اصدار اول جريدة عرفها الشرق العربي ٠ هذه الجريدة هـــي "الوقائع" التي انشأها محمد علي سنة ١٨٢٨ ٠ وكانت هذه الجريدة تصدر بالتركية، ثم صدرت بالتركية والعربية ، واخيرا صارت تصدر بالعربية وحدها ٠ ١)

اما اول جريدة سياسية عربية غير رسمية فقد صدرت فـــي الاستانة سنة ١٨٥٥ ، اصدرها رزق الله حسون الحلبي وسماها "مرآة الاحوال" ، ولم يزد عمرها على

---

(١) جرجي زيدان ـ ص ٥٢ ٠ ولكن هنالك نشرة اصدرها نابليون فـي الاسكندرية سنة ١٨٠٠ وسماها التنبيه ٠ وهي اقرب الى النشرات غير المنتظمة منها الى الصحف ٠ لذلك تعتبر الوقائع على تأخرها عن التنبيه اول جريدة عامة منظمة ٠

سنة الا قليلا ٠ ١) وهكذا تكون حلب قد سبقت المدن العربية الى انشاء الصحافة غير الرسمية ، كما سبقتها الى انشاء الطباعة العربية ٠

ولكن هذا السبق الذى احرزه المصريون والسوريون لم يكن ليغمط اللبنانيين حقهم في الثناء ، ذلك ان هؤلاء يعتبرون بحق اركان الصحافة العربية ٠ وحتى في مصر ، لم تقم الصحافة الحديثة الا على سواعد اللبنانيين ، " فكان لهم فضل السبق في اتخاذ صناعة تحرير الصحف حرفة بسوريا اولا ثم بمصر ثانيا ، وهم اول من قام بانشائها بمصر بعد الوقائع ووادى النيل " ٢) والذى حدا اللبنانيين ان يجوبوا هذا الميدان ، وساعدهم على ان يجلّوا فيه ، هو ان السياسة الحميدية الغاشمة ابت الا اضطهاد الحرية ، فما كان من بعض هؤلاء الا ان ابى الرضوخ الى الظلم ٠ ولما كانوا ضعفاء لا يستطيعون عملا حاسما ، آثروا ان يهجروا بلادهم الى مصر ، وما لبثوا ان خاضوا هناك ميدان الصحافة تساعدهم معرفتهم باللغات الاجنبية ، وينير سبلهم احتكاكهم بالعقل الغربي والحياة الغربية ٠

ولئن كان لبنان قد تأخر عن مصر في انشاء الصحف ، فان هذا لا يعني انه تأخر كثيرا ٠ فما ان ازفت سنة ١٨٥٨ حتى انشأ خليل الخورى جريدة سياسية غير رسمية سماها "حديقة الاخبار" ٣) ، وهي اول جريدة سياسية غير رسمية صدرت في ~~الامبراطورية العثمانية خارج تركيا~~ البلاد العربية ٠

ولكن هنالك نشرات صدرت في لبنان قبل "حديقة الاخبار" ، منها نشرة دينية مسماة "مجموع الفوائد" سنة ١٨٥١ ، يحررها جماعة على رأسهم القس عالي سميث ٠ الا ان هذه النشرة ، كما يقول زيدان ، "اشبه بالتقاويم او المناشير منها بالصحف" ٠ ٤) وما لبثت الجرائد والمجلات ان تتابعت في لبنان ، كثمرات الفنون سنة ١٨٨٥ ، و"الجنان" سنة ١٨٧٠ ، و"البشير" سنة ١٨٧٠ ، و"المقتطف" سنة ١٨٧٦ ، و"لسان الحال" سنة ١٨٧٧ ، و"الطبيب" سنة ١٨٧٧ ، وغيرها ٠

---

(١) جرجي زيدان ـ ص ٥٣ ٠ يخطىء الاسكندرى وعناني هنا ايضا اذ يجعلان "الجوائب" لاحمد فارس الشدياق الصادرة سنة ١٨٦٠ اول جريدة عربية في الاستانة ٠

(٢) الاسكندرى وعناني ـ الوسيط ـ ص ٣٢٤

(٣) جرجي زيدان ـ ص ٥٣

(٤) جرجي زيدان ـ ص ٥٣

عندما انتشرت الصحف في لبنان واصبحت عنصرا هاما من عناصر الحياة الاجتماعية ، رأى العاملون فيها انهم بحاجة التي ما يجمع كلمتهم ويحافظ على حقوقهم، ففكروا بتشكيل "لجنة الصحافة" او ما قد تسميه اليوم نقابة ٠ ١) الا ان الفكرة ماتت حالما ابصرت النور، ولم يصبح للصحافة هيئة منظمة الا في سنة ١٩١٨ ، يوم تأسست "جمعية الصحافة" ٠ ولكن حياة هذه الجمعية لم تطل ٢) ٠

اثر الصحافة وكالاثر العظيم الذى تركته المدارس والمطابع في الحياة الثقافية كان الاثر الذى تركته الصحافة ٠ ومع ان الصحف في معظمها كانت تعيش حانية الرأس للاسياد ، فان البلاد لم تعدم صحفا عرف اصحابها باخلاصهم للوطن وابنائه ، وباندفاعهم نحو الحق والصلاح ، وصحفا ادبية كانت تشحذ الذوق الادبي مزيلة عنه الادران ، موجهة مداركه نحو الجميل من آثر القلم ٠ ولا بد لنا في هذا المجال من ذكر اديب اسحاق ، احد الصحافيين الادباء الذين كتبوا ، وهمهم من الكتابة خدمة اخوانهم في الانسانية والوطنية ، وتنوير اذهان الهائمين في ظلمات الجهل والتقليد البالي ٠ وازاء موقف اديب الجرىء حاولت السلطات العثمانية كم فمه غير مرة ، كما ان السلطة المصرية اقفلت جرائده فاضطرته الى ان يقصد فرنسا التي طالما اعتبر ثورتها مصدرا تستقي منه الشعوب المستعبدة وحي الثورة والانتفاض ٠٠٠

---

(١) لبنان في العهد الاستقلالي – ص ٩٤ = ٩٥ : " ان الفضل في انبثاق تلك الفكرة وفي وضع الحجر الاساسي لبناء اول هيئة لمنظمة صحفية في لبنان دعيت لجنة الصحافة يعود الى الصحفي اللبناني الكبير المتمصر ، العلامة الدكتور فارس نمر باشا ٠ ويتضح لنا ذلك من نص محضر قديم خط بالقلم الرصاص عثرنا عليه بعد تنقيب طويل في خزائن لسان الحال ٠ وفيما يلي نص المحضر المذكور : نهار الاثنين بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٣٢٩ ، و١٠ تموز سنة ١٩١١ الساعة الرابعة بعد الظهر دعا حضرة العلامة الدكتور فارس نمر صاحب المقتطف والمقطم جميع الصحافيين في بيروت الى فندق بسول للمذاكرة في شأن الصحافة ٠ وبعد ان تكامل عددهم دار البحث فيما بينهم عما يتعلق بالصحافة من الامور التي تؤدى الى تعزيزها ، وتجعلها قوة عظيمة ، عاملة على خدمة الدولة والوطن ، فقر رأيهم بالاجماع على انتخاب خليل سركيس مؤسس لسان الحال ، والشيخ احمد طبارة ، والشيخ عبد الرحمن سلام وبولس الخولي "لجنة صحافية" تسعى للوصول الى الغاية المذكورة "

(٢) المرجع نفسه – ص ٩٥

وقد اشاد بعض الباحثين باثر الصحافة في نواحي الحياة المختلفة ، فقال شكيب ارسلان : " لا نزاع في ان الصحافة العربية قد كانت من اقوى العوامل في هذه النهضة بما اثارته من الحركة الفكرية ونقلت من اخبار الغرب الناهض الى اهل الشرق النائم " ١) . وقال نقولا فياض في محاضرته في الندوة : " واما الجرائد فلأن السياسة كانت مقصورة فيها على الاخبار ولا سبيل الى التعمق فيها بحكم المراقبة فقد فتحت حقولها للكتاب واكثرهم يتعمد زخرف الكلام والتأنق في الانشاء واختيار الالفاظ على نمط الهمذاني . وقد احتدم الجدل مرة بين "ثمرات الفنون" و "التقدم" فكنت ترى الشبان متألبين مساء عند ابواب المكاتب بانتظار الجريدتين للوقوف على انتقاد هذه وطعن تلك " ٢) . وهذه اخيرا كلمة في الصحافة للاب حنا فاخوري : " اما اثر الصحافة فكان واسعا ، فقد ايقظت روح الوطنية والقومية ومحاربة الاستبداد وطلب الحرية ز، ونقلت الى الشرق حضارة الغرب ونظمه الاجتماعية والسياسية واختراعاته العلمية . وكانت لغتها السهلة صلة بين العامية والفصحى ، فليّنت هذه ورققت تلك ، ووسعت الاساليب الكتابية ونطاق الالفاظ العربية ، فكانت مدرسة متجولة في البلدان تهذب وترتب افكار الخاصة وتنهض الهمم ... " ٣)

الصحافة في المهجر هاجر اللبنانيون الى بلاد لا يحترم الانسان فيها لمهابة فـــ في الشاربين ، او ضخامة في الاسم واللقب ، بل لما يحمل في ساعده من عزم بنّاء ولما يشع في فكره من ذرات العبقرية . وقد ترك الاغتراب في قلوبهم غصة ، وعلى شفاههم رعدة تحبس شهقة . وما لبثت لواعج الحنين ان

---

(١) شكيب ارسلان - ص ١٠

(٢) نقولا فياض - ذكريات ادبية - ص ٤٨ - ٤٩ . مما لا شك فيه ان صدوف الجرائد مرغمة عن السياسة قد ته اثر في خلق حركة ادبية لا تخلو من الجدة احيانا . ويا ليتنا نجد اليوم شباننا ينتظرون على ابواب المكتبات للوقوف على مناظرات او مشاحنات كالتي كانت تدور بين الجرائد اللبنانية ، او بين الجرائد اللبنانية والجرائد المصرية . فان في ذلك ، على عقم بعض المواضيع المطروقة احيانا ، ما يدل على اندفاع ادبي نحن اليوم باشد الافتقار اليه .

(٣) حنا فاخوري - ص ٩١٥

حرّكت الاقلام ، فراحت تذوب على القرطاس آيات من الشعر الوجداني ، ومن النثر الحنون الشجي (١٠٠) ومن هؤلاء من لم يكونوا ذوى شهادات عالية ، بيد ان رغبتهم الفطرية في الكتابة ، وتراكم دواعي الشوق والالم ، فتحا امامهم آفاقا رحبة ولجوها ولهم من عاطفتهم المتقدة ايمان ماض بالنجاح . وهكذا لا نعجب اذا رأينا الادباء ومنشئي الصحف في المهجر لا يتمتعون دائما بالثقافة العالية . انهم ابناء الشعب الكادح ، سعوا في المهاجر وراء ما يسد الرمق ، ولكنهم تعلموا هناك انه "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان" فاطلقوا لمواهبهم العنان متحدّين الصعاب وعوادى الايام .

ويختلف الصحافيون في المهجر من حيث اهدافهم ومقاصدهم . فمنهم من سعى جادا مخلصا في سبيل جمع كلمة ابناء الجالية العربية اللبنانية ، وذلك بنشر اخبارهم ومقالاتهم ونفثاتهم ، محتفظا طبعا ببعض الحقوق المشروعة كحق الاستفادة المادية . ومنهم من راح يسخّر جريدته للبذئ من الاهداف ، فاتخذها مطية للوصول الى الغاية المنشودة : جمع المال حلالا ام حراما . وفي هذا يقول توفيق ضعون : "لقد اصبحت الصحيفة في هذا المهجر مسرحا يمثل عليه صاحبها ادوارا مخجلة كالممالأة والمجاملة والتطبيل والتزمير . والناس يتمادون في غيهم اذ ليس من ينتقدهم ويسدد خطواتهم ويردعهم عن ارتكاب الموبقات . اما حرية الفكر فقد ماتت ، وغدا ابداء الرأى النزيه حبا بالخير جريمة لا تغتفر ، فيا لسوء المصير !" (٢)

ولكن الصحافة شهدت في المهجر عصاميين قاموا بالمستحيل في سبيل انجاح مشاريعهم . بين يدى اعداد من مجلة "الرسالة" التي كان يصدرها في ولاية نيويورك مرشد جرجس مسعود . من هذه الاعداد اربعة كتبت باليد ، وثلاثة طبعت على الالة الكاتبة . اما الاعداد المكتوبة بخط اليد فمنها اثنان كتبا بالحبر رأسا دون ان ينسخا على الالة الناسخة ، واثنان - احدهما ممتاز في ٦٤ صفحة - كتبا باليد ثم نسخا . وانني لاتصور منشئ "الرسالة" ذا الخط الجميل (٣) مكبا على مكتبه ، يكتب ، ويكتب ويكتب ، في هدأة الليل بعد اتعاب النهار ، وهمه ان تكون مجلته "صحيفة الاهل والانسباء والمعارف والاصدقاء" ، وهو لا يملك من حطام الدنيا الا قلما ومدادا هما وسيلتاه

---

(١) راجع في هذه الرسالة الفصل التالي : القومية والوطنية .

(٢) توفيق ضعون - ص ١٩٣

(٣) راجع نماذج منها على الصفحة التالية .



غلاف "الرسالة"



حلبة الشعراء

حالة بعض شباننا في المهجر

للعدد الممتاز

يا للاسف في ارض غربتنا   جمهور وافر من شبيبتنا
تأمركوا ما عاد الهم عين   يتكلموا كلمه بلغتنا

تأمركوا ما عاد الهم عين   ينطقوا بالضاد او بالعين
نسيوا حقيقة اصلهم من اين   واستحقوا بشعبنا وقالوا -
- نحنا اجانب . يا سعادتنا -

واستحقوا بشعبنا وقالوا   شعب شرقي مالنا ومالو
عاداتنا من فكرهم شالوا   وتمسكوا بعادات غير شعوب -
- منرح قسم لبيض سمعتنا -

وتمسكوا بعادات غير شعوب   عادات اكثر ذوقها مقلوب
لولا يكونوا تجنبوا المعيوب   او في طريق مقومه ساروا -
- كنا استفدنا عن خسارتنا -

او في طريق مقومه ساروا   ما كان اكثرهم كذا صاروا
بالعشق ما بقيوا ولا طاروا   فلتوا وراحوا من ايادينا -
ونحن مصدر كل خيبتنا -

فلتوا وراحوا من ايادينا   ومبكرهونا من عندنا وفينا
اصل السبب كله تراخينا   واهمالنا دفع الخطر بكّير -
- قد اوصلونا لسوء حالتنا -

اهمالنا دفع الخطر بكّير   ما قد جعلنا اليوم هيك نصير
منخوف من شباننا جماهير   للاجانب بالرأي بنود -

رسم لاحدى قصائد "الرسالة" الزجلية

الوحيدتان في اصدار المجلة. اما مواد الصحيفة فانها بالفعل مدعاة للاعجاب: ليس فيها الفلسفي العميق، ولا الادبي المحلّق دائما. انها مقالات دبجتها اقلام ادباء في المهجر، وقصائد حاكتها مخيلات بعض الشعراء، وبعض الذين لم يعرف لهم في عالم الشعر اسم، الا ان عواطفهم الفياضة تحكم لهم بالشاعرية. ان ما يختلج في صدر الصحيفة صور للمهاجر الحائر التعس الطموح..

تتابعت الصحف في المهجر، واشتهر بعضها وما يزال مشتهرا، كمجلة العصبة الاندلسية ومجلة الشرق في البرازيل. بيد ان صحف الشمال آخذة بالانقراض، بانقراض "السنديانات العتيقة" التي كانت في المهجر سدا في وجه الزعازع التي تحاول اقتلاع الجذور اللبنانية العربية. وان ما بقي منها اليوم يكاد لا يذكر (١). اما في الجنوب فقد استمرت حركة الصحافة مع ما اعتراها من افول نسبي، وهي اليوم مزدهرة بالنسبة الى صحافة الشمال. واول جريدة صدرت في الجنوب كانت جريدة انشأها سليم بالش، وذلك في عام ١٨٩٥، ودعيت الفيحاء.. وتوالت الجرائد على البلاد، كالرقيب سنة ١٨٩٧، والاصمعي سنة ١٨٩٧، والمناظر سنة ١٨٩٩، والصواب سنة ١٩٠٠، وغيرها... اما اول جريدة صدرت في الشمال فكانت "كوكب اميركا" لنجيب عربيلي، صدرت سنة ١٨٩١ (٢).

ولكن... هل كتب للصحف العربية ان تعيش طويلا في المهجر؟ ان البوادر لتدل على ان حياة الجرائد الباقية سنون قليلة.. "فالعصبة" لا تصدر الا كرمز لحركة ادبية مباركة، و "الشرق" تعيش على موائد الاعراس والحفلات. ويوم ينمو هذا الجيل الجديد الذى لا يعرف من العربية الا القليل، ويتلوه جيل لا يعرف من العربية شيئا، ترى، هل يبقى للصحف في المهجر من اثر، او تنطفىء الشعلة، شعلة الصحافة والادب، التي طالما انارت حتى للادب المقيم خطاه؟.. ومهما يكن الجواب، فان عملا حاسما كفيل بان يتلافى الكارثة قبل حلولها. وهذا العمل لا يمكن ان يصدر عن غير الحكومة التي امامها ترتسم خطتان: الاولى تقضي بان ترسل الى المهاجر معلمين يقومون بتدريس ابناء المهاجرين لغة بلادهم الاولى، مجانا، والثانية هي ان تخصص عددا من المنح سنويا لابناء المهاجرين الراغبين

---

(١) راجع اطروحة وديع ديب للاطلاع على اسماء الجرائد المهجرية

(٢) جرجي زيدان – ص ٦٢

في تلقي العلوم في لبنان . اما سياسة البيانات والدعايات المعسولة ، سياسة الزيارات التي تقتصر على مائدة او كأس ، فانها اساليب باطلة سئمها المهاجرون لانها لم تفتح لهم ابواب لبنان مضيافة يوما .

المكتبـــــات

عرفت البلاد العربية فـي الاعصر العباسية حركة مباركة ادت الـى ازدياد عدد الكتب والمكتبات، وانتشار العلوم فـي انحاء البلاد . وشبيهة بهذه الحركـــة الحركة التي قلت فـي الاندلس، والتي تعهدها خلفاء امثال الحكم الثاني، فاجتمعت فـي الغرب العربي خزائن من الكتب رعاها اصحابها حتى بلغ بعضها مئات الالوف من المجلدات .

ولكن الغرب العربي والشرق العربي منيا بموجات من البرابرة الذين قاموا ضد الكتب باعمال "فاندالية"، فتفرقت الكتب فـي الارض تندب حظها العاثر، يتيمة ولا من يتعهدها . وفـي تلك الاثناء كانت البلاد العربية ترتاح الى الكسل الفكـــرى الذى دبتها فيه السياسة العثمانية . فخلت الديار من الكتب، وتنكر للحرف حـــتى الذين منحوا الامكانيات الكافية لمؤاساته . يقول جون كارن : "ان القصور الشرقـــية الخالية من الكتب شأنها شأن بيوت زعماء الجبل القدامى . لا يقام وزن للرغبة فـــي المطالعة، وفوق ذلك لا وجود هنا لمثل هذه الرغبة" ١) . وقد بلغت "مجاعـــة الكتب" حدا خطرا من الضنك، حتى ان فولني يذكر انه لم يلق اثناء رحلته فـــي هذه البلاد سوى مكتبتين : احداهما مكتبة مار يوحنا التي سبقت الاشارة اليهــا ٢)، وهي على ما كانت عليه من فقر، ومكتبة الجزار التي لم يكن فيها سوى ثلاثمئة مجلد ! ٣)

ولئن كان تأخر الطباعة فـي البلاد سببا من الاسباب التي اخرت حشـر الكتاب، فان لوضع العقلية السائدة فـي البلاد العثمانية والمتنكرة للمطالعة، والسياسة الاجرامية التي انتهجها العثمانيون، اشد الاثر فـي تنفير الكتب ردحا ...

... ولكن الزمان ما لبث ان دفع الى الكتب العربية خدرا تفزع الـــيه، فتربعت آمنة على رفوف المكتبات التي قامت بتنظيمها الدول الغربية فـي بلادها، ولولا ذلك لطمرتها الايام مع ما طمرته . فليس غريبا بعد هذا ان نرى المستشرقين فـــي

---

(١) جون كارن ـ ص ١٢٨

(٢) راجع ص ١٢ من هذا البحث .

(٣) Volney- T.2- P.P. 410 -411

العصور الحديثة يسيرون امامنا في عقر دارنا في ميدان الادب العربي يهدوننا السبيل !

"اما العالم العربي فلم يفق من غفلته ويتنبه للاحتفاظ بآداب اللغة العربية الا في اواسط القرن التاسع عشر على اثر نهوض اللغة العربية في عهد الاسرة المحمدية العلوية وما انشىء من معاهد التعليم في سوريا ولبنان وغيرهما . فاخذت الحكومات او الجمعيات ١) في جمع الكتب وتقييدها وحفظها واستنساخ ما تعلم بوجوده منها في البلاد الاخرى . واقتدى الافراد بها فاخذوا باقتناء الكتب على اختلاف مواضيعها بين قديم وحديث في اللغة العربية واللغات الافرنجية ." ٢)

وليس غريبا ان نشهد رجال الدين في هذا الحقل يعملون جادّين كما عهدناهم في حقلي المدارس والمطابع . لقد اسس فرحات مكتبة "فاقت مكتبات حلب وسائر المدن ، جمع فيها ما يقارب الفا ومئتي مخطوطة عربية ما تزال باقيّة حتى يومنا في مطرانية حلب المارونية" ٣).

وعلى غرار فرحات نهج رجال الدين في لبنان ، اذ انهم الفوا وترجموا الكتب ، واسسوا المكتبات في الاديرة ، واختاروا من صفوفهم جماعات لنقل الكتب على اختلافها ، وخصوصا ما كان منها دينيا . ٤) فحفلت الاديرة بالكتب ، وحفلت بها كذلك المدارس والمساجد باشراف رجال الدين ، فكانت المكتبات في ديرالبلمند ، ودير المخلص ، وعين ورقه ومارعبدا وقزحيا وقرنة شهوان وغيرها . . . ٥)

---

(١) يحدثنا روبنصون — جزء ١ — ص ١١٦ — ١١٧ ، من المكتبة التي انشأتها جمعية العلوم والفنون (راجع الفصل التالي) يقول : "وقد جمعت الجمعية في سنتها الاولى مكتبة حوت اكثر من سبعماية وخمسين مجلدا بينها خمسماية وسبع وعشرون مخطوطة عربية وتركية ومئتان وتسعة وعشرون كتابا مطبوعا في لغات مختلفة . ومن بين المخطوطات خمسماية واربع عشرة مخطوطة اشتريت مجموعة واحدة بلغ ثمنها سبعة آلاف قرش او نحو مئتين وثمانين دولارا ، اكثرها قديم جدا . يرقى بعضها الى سبعة قرون او ثمانية . وهذه المجموعة كانت تخص عائلة من الاشراف حط عليها الدهر ، فاجبرت على بيع مكتبتها . والمجموعة غنية بالفقه الاسلامي ، والقانون ، وكتب اللغة ، والمعاني ، والبيان ، والمنطق ، والرياضيات ، والطب ، والتاريخ ، والفلسفة".

(٢) جرجي زيدان — ص ٩٢

(٣) Raphael - P. 164

(٤) Raphael - P. 166

(٥) جرجي زيدان — ص ١١٨

والى جانب هذه المكتبات عرف لبنان مكتبات كبيرة . وقد الحقت هذه المكتبات بالمعاهد العالية . ومن اشهرها المكتبة الشرقية التي انشأها اليسوعيون في بيروت سنة ١٨٨٠ ، وفيها مخطوطات في العربية والسريانية والكلدانية والتركية والفارسية وغيرها . ١) وهنالك مكتبة الجامعة الاميركية التي نشطت بنوع خاص في السنتين الاخيرتين نظرا لزيادة المخصصات لشراء الكتب .

ولا استطيع ، وانا في هذا المجال ، الا ان اذكر ، والالم يحز في قلبي ، ان المكتبات الرسمية العامة تكاد تكون مفقودة في لبنان ، لولا "دار الكتب اللبنانية" التي قامت على تضحية فرد هو فيليب طرازى ٢)، والتي لا يشعر بوجودها الا موظفوها وبعض القلائل الذين يؤمونها في ساعات الفراغ . وضآلة اهمية هذه المكتبة عائدة الى ان الدار مفتقرة الى كتب تفي بمطالب الباحثين ، والى كتب حديثة تتيح للفقير المثقف ان يرافق الحركة الادبية ، ولغير المثقف ان يتزود بالمعارف . اضف الى ذلك عدم التنظيم الذى لا يفسح المجال امام العدد الاكبر للاستفادة منها ٣).

كلما ازداد العلم جدا نحو الديموقراطية والشعبية ، ازدادت الحاجة الى وسائل عامة تضع مناهل العلم في متناول الجميع . وان الحاجة عندنا لتدعو الى انشاء المكتبات الوطنية العامة في كل مدينة وبلدة اسوة بالبلاد الراقية ، فكفى شباننا تسكعا في الملاهي وزحفا في المستنقعات !.. ان مكتبة عامة قد تنتشل من الفساد اناسا سعوا الى العلم فحالت المادة دون ادراك الاماني ، وتنشىء انفسا وعقولا" توّاقة الى المعرفة ، توّاقة الى الافضل والاسمى .

ولم يعش المهجر دون ان تكون له كلمته في الموضوع . لقد انشأ اللبنانيون عددا من المكتبات ، كالتي انشأها في البرازيل اسعد فارس ابو صعب، في مطلع القرن العشرين في سان باولو ، والمكتبة التي انشأها جورج قربان الشويري سنة ١٩٠٨ . ولكن المكتبات آخذة بالانقراض نظرا لقلة عدد قراء العربية،

---

(١) انيس نصولي - ص ١١٩

(٢) اسس فيليب طرازى دار الكتب اللبنانية سنة ١٩٢١ وفيها اليوم نحو ٧٠ الف كتاب

(٣) ان المكتبة تتبع الدوام الحكومي ، اى انها تقفل ابوابها من الساعة الثانية بعد الظهر ورواد المكتبات الوطنية عادة من الطلاب والاساتذة والعمال وغيرهم ، وهؤلاء يعملون نهارا

وان ما بقـي منها يعول فـي حياته على موارد اخرى كبيع الاسطوانات وغيرها ١).

ان المستوى العلمي الذى بلغه لبنان مدين للكتب . والكتاب بدوره مدين للمطابع التي يسرت للمؤلفين سبل التأليف ، فكثرت المؤلفات بعد ما كانـت محدودة ، واقبل الادباء على ادب الغرب يترجم روائعه ، فكان من نتيجة ذلك ان اطلعت البلاد على الادب الموضوع والادب المترجم بطريقة اعم واسهل ، وهـذا ما ساعد المتأدبين والطلاب والمثقفين علـى النهل من العلوم .

الجمعيـــات

نشأتها

ان مبدأ الاجتماع يتضمّن مبدأ الحرية الفردية والجماعية ، ذلك ان مجرد الاجتماع يتطلّب شيئا من الحرية ، ويدعو الى ابحاث لا يمكن ان تثمر ما لم يرعها جو طليق حر . وبما ان العرب كانوا يعيشون في جو من التقيّة السياسية زمن الاتراك ، لا يجسرون على الجهر برأى حر ولو صحيحا ، ولا يتطرقون الى بحث المواضيع الادبية والعلمية التي تفرض على باحثيها آراء تحررية جريئة ، فقد كان من المعقول ان لا يفطنوا الى الجمعيات ، او ، على الاقل ، ان لا يفكّروا جديا بانشائها لعلمهم بفساد محيطهم الفكرى . ولكن احتكاك العرب بالغرب ما لبث ان تم على نطاق واسع ، خصوصا في اوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فعرفوا ما كان للحرية الفردية من خطورة في حياة الغرب ، فاقتبسوا منها قوة "حلّت قيود العقل وصارت لدى التخلص من التقاليد والعادات الضارة . وظهر غير واحد من طلاب الاصلاح السياسي اوالديني او الاجتماعي في العالم العربي العثماني ." (١)

عند ذلك مهّدت الطريق امام الجمعيات ، فعبرت الينا الفكرة من الغرب مع ما عبر . وما دام الغرب هو الذى اوحى الينا فكرة الجمعيات ، فمن المنتظر ان يكون لبنان — وهو اول من احتك بالغرب فعليا — موطنا لاولى الجمعيات في البلاد العربية . فقد انشأ المرسلون الاميركيون "الجمعية السورية" في بيروت سنة ١٨٤٧ ، وكانت تسعى الى نشر العلوم وترقية الفنون وجمع الكتب مع الابتعاد عن القضايا الدينية . (٢)

---

(١) جرجي زيدان — ص ٦٤

(٢) جرجي زيدان — ص ٦٥ — ٦٦ . ويقول روبنصون في هذه الجمعية (يسميها جمعية العلوم والفنون) : " فقد كان من تأثير المرسلين ان تألفت في بيروت جمعية العلوم والفنون الوطنية . تألفت في مطلع العام ١٨٤٧ بمعاضدة بعض المرسلين بناء على الحاح بعض الوطنيين الاذكياء ، ولا سيما الشبيبة الراغبة في تحصيل العلوم والتقدم العقلي . والقليل منهم تعلموا في مدرسة الارسالية . يجتمعون مرتين في الشهر فيتناولون الاخبار العلمية ، ويقرأون الصحف ، ويتباحثون في المسائل المطروحة ، وغالبا ما يلقون الخطب . " (جزء ١ ، ص ١١٦ — ١١٧)

وعلى اثر انحلال هذه الجمعية قامت على انقاضها جمعية قلّدتها في قوانينها وشروطها هي "الجمعية العلمية السورية" ١)

ومن اشهر الجمعيات التي عرفت آنذاك جمعية "زهرة الاداب" التي اسست سنة ١٨٧٣ ٠ ٢) وتمتاز هذه الجمعية بانها جمعت عددا من الادباء كأديب اسحاق ٣) واسكندر عازار، وسليم النجار، ونخله التويني وغيرهم ٤)٠ وكان اعضاء الجمعية يؤلفون الروايات او يترجمونها ويمثلونها راصدين ريعها للمشاريع الخيرية ٥)

ومن الجمعيات جمعية "شمس البر" (١٨٦٩) والنادى الادبي" في طرابلس (١٨٩٠)، "والجمعية العلمية" في الجامعة الاميركية، وقد نشأت في اوائل عهد الكلية ٠٠٠ ٦) الخ ٠٠٠

اما المجامع فلم يعرف منها في لبنان الا "المجمع العلمي الشرقي" الذى انشىء للبحث في العلم والصناعة، سنة ١٨٨٢٠ ولكنه لم يعمّر طويلا، لان دسائس السياسة الاستبدادية قد اصابت منه مقتلا ٧)

وفي المهجر انشأ اللبنانيون جمعيات ادبية واجتماعية وخيرية، فكان منها في البرازيل خصوصا عدد لا يستهان به ٠ ولقد مر معنا في باب المدارس ذكر "رواق المعرى" ٨)، وهنالك كثير غير هذه الجمعية مما لا مجال لذكره هنا ٩)

---

(١) جرجي زيدان — ص٠ ٦٧

(٢) وهنالك جمعية اخرى بهذا الاسم اسست في الجامعة الاميركية سنة ١٩١٣ ٠ (راجع لمحة عنها في الباب الخاص باثر الجمعيات، بعد صفحات)

(٣) ان الكثير من خطب اديب اسحاق الواردة في "الدرر" قد القي من على منبر الجمعية ٠

(٤) نقولا فياض — ذكريات ادبية — ص ٤٢

(٥) جرجي زيدان — ص ٦٨ — ٦٩

(٦) راجع الكلام عن اثر الجمعيات ٠ص٠ ٦١

(٧) جرجي زيدان — ص ٧١

(٨) راجع ص ٤٢ من هذا البحث ٠

(٩) راجع ضعون ٠ص٠ ١١٣— ١٢٦

سبب انشاء الجمعيات ، واثرها ان الدوافع التي حدت الكثيرين الى انشاء الجمعيات
عائدة الى ما لمسه اولئك من فعالية الجمعيات في
الميادين الادبية والاجتماعية . وقد ورد ذكر لهذه الدوافع في الكتب او النشرات
التي اخرجتها جمعيات مختلفة ، فنقرأ في مجموعة "جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية"
ما يلي : ١) "وبعد ، فان الفرد الفرد عنصر من عناصر الجماعة ، فقوته ونشاطه ورقيه
يدلون على درجة رقي الجماعة ، فهو والحالة هذه معيار امته ، فبقدر ارتقائه وحسب
سلوكه وجده ونشاطه تكون امته كذلك لانه هو منها وهي منه . وهذا ما دعى ٢) الامم
الى تكثير المدارس والمنتديات العلمية والجمعيات الادبية لكي يتهذب الفرد ويقوى
على مكافحة ما لا يلتئم مع مزاج امته ... ولما كان هذا العمل العظيم لا يقوم الا
بالجماعات ارتأى نفر من الشبيبة ان تؤسس جمعية باسم "جمعية الشبيبة الاسلامية"
تكون انموذجا لشبان هذا العصر ."

والى جانب الدافع الاجتماعي الذى يدعو الى الوحدة والتكاتف وغيرها
من مقتضيات المجتمع ، دافع ادبي يسير غالبا الى جنب الدافع الاجتماعي . واكثر
الجمعيات اهتماما بالناحية الادبية تلك التي نشأت في المدارس، وبالاخص في
الجامعة الاميركية في بيروت . لقد عرفت الجامعة — من يوم كانت كلية — عددا من
الجمعيات الادبية التي قيّض لها ان تكون ذات اثر فعال في احياء دفائن العربية ،
وفي توجيه الطلاب نحو الجميل في لغتهم وآدابها ، وفي تسديد اقلامهم وخطبهم
وازالة العثرات التي تتخللها .

ومن اولى الجمعيات التي تأسست في الجامعة "الجمعية العلمية
العربية" . لا يعرف بالضبط متى نشأت هذه الجمعية ، انما المعروف انها نشأت
في اوائل عهد الجامعة . وهنالك جمعية ثانية هي جمعية "زهرة الاداب" التي
اسست سنة ١٩١٣ ، وساهمت في النشاط الادبي ووضعت هدفا لها "رفع المستوى
الادبي وتوثيق عرى الصداقة والاتحاد بين تلامذة الجامعة واحياء اللغة العربية
وآدابها بواسطة الخطابة والكتابة واقامة الحفلات العمومية وتمثيل الروايات ..." ٣) وما
يقال عن هدف هذه الجمعية يقال كذلك عن هدف "العروة الوثقى" .لقد كان دأب

---

(١) جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية — المقدمة ص ١

(٢) هكذا وردتا

(٣) جمعية زهرة الاداب — منتخبات — ص ١

هذه الجمعية جمع التلامذة وجمع اقلامهم على صعيد الاخوة والوطنية والعلم ، وما لبثت ان رأت نفسها مضطرة الى نشر ما يجود به اعضاؤها من ادب او علم ، فاصدرت "العروة" التي كانت لسان حالها وما تزال . ونقرأ في المجلد الاول لمجلة العروة ، وقد صدر سنة ١٩٣٦ (١ : "ورسالة العروة الوثقى هي الجمع بين الطلبة العرب في الجامعة ، والتأليف بين قلوبهم ، وتوحيد اهدافهم ومراميهم . يجتمع في منتداها وتحت رعايتها الطلاب من جميع البلدان العربية ، فيتداولون الاراء ويشتركون في الابحاث ، ويتعاونون تعاونا عمليا صادقا في حقل العلم والادب ." ٢)

ولكن ... هل وفقت الجمعيات الى تحقيق المبادئ التي من اجلها انشئت؟ لا شك في انه كان للجمعيات اثر بنّاء في الناحيتين الادبية والاجتماعية، وان كان هذا الاثر يفعل فعله في النفوس احيانا بتواضع فلا يشعر الناس به . انما الاثار المدوّنة التي بين يدّي ، على ضآلتها ، كافية للدلالة على ان حركة الجمعيات قد اتت بخير .

في الناحية الاجتماعية مثلا نرى الجمعيات تقيم الحفلات لتجمع اعضاءها ومن يلوذ بهم . وهذا ما قامت به جمعيات كثيرة ، منها جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية المار ذكرها التي اصدرت كتيّبا اوردت فيه ما قيل في حفلتها الاولى من خطب وقصائد .

وبالاضافة الى الجمعيات الخيرية التي كانت وما تزال تقوم باعمال البر، رافعة عن صدور المعدمين كابوس الظلم والحرمان ما استطاعت الى ذلك سبيلا جمعيات نشطت الى تقويم الاخلاق وتوجيه الناس، والناشئة بنوع خاص ، الى ما فيه خيرهم وخير بلادهم . فقد نشر كتاب عن المخدرات باشراف احدى هذه الجمعيات في مصر ، وهي "جمعية السيدات المسيحية لمنع المسكرات والمخدرات بالقطر المصرى ." وفي هذا الكتاب الذى اعد لطلاب المدارس الابتدائية والثانوية ابحاث في تاريخ المخدرات وفي انواعها واثر كل منها ، وفي مضارّها وتأثيرها في قوى الوطن الاجتماعية والاخلاقية ٣.)

والاثر الادبي —وهو ما يهمنا في الدرجة الاولى — يبدو جليا جلاء اثر الاجتماعي . فالجمعيات التي قامت على اسس التشجيع الادبي اتت على اعضائها ومنلصيها

---

(١) الواقع ان العروة صدرت سنة ١٩٣٥ ولكن بشكل نشرة بسيطة (٢) العروة ، المجلد ١ ، المقدمة .
(٣) راجع : التعليم القويم ضد شر المخدرات الذميم .

وظهرت لك خطي منذ سنة ١٩٣٨

ومناضريها والمساهمين في حياتها بالخير العميم ، ذلك انها كثيرا ما شهدت على منابرها فتيانا يتلون خطبهم ، فيعثرون تارة ، وتستقيم لهم الامور طورا ، حتى اطل يوم فاذا ببعض هؤلاء ادباء وشعراء مجلّون . وليس غريبا ان تكون الجمعيات خالقة ادباء ، فرب اديب كان في اول حياته منزويا خاملا ، فقيض الله له جمعية اخذت بيده ودرّبه منبرها ودرّبته مجلتها ومنشوراتها . ففي لبنان - وخارج لبنان ، في البلدان العربية - منشورات اصدرتها جمعيات حاملة الى القراء ثمار اقلام اعضائها وغيرهم من الادباء . من هذه المنشورات الكثيرة مجموعة "الفلسطينيات" التي اصدرتها "جمعية الرابطة العلمية الادبية في النجف" سنة ١٩٣٩ . والمجموعة عبارة عن قصائد لشعراء الجمعية ، منهم محمد مهدى الجواهرى ومحمد علي اليعقوبي ومحمود الحسبوني وصالح الجعفرى وغيرهم . والقصائد كلها تدور حول فلسطين والخطر المحدق بها ، والحالة التي اوصلتها اليها الاوضاع الداخلية فيها ، وفيها دعوة الى الاتحاد والتآخي والنجدة . ولمثل هذا العمل الادبي - المجموعة - اثر بيّن ، ذلك انه يجمع في كتاب واحد قصائد قد تتشتت وتضيع في الجرائد او الخزائن لولا يد الجامع التي تحفظها من عبث الزمان بها .

واذا ما تطلعنا الى الجمعيات في لبنان وجدناها ناشطة الى العمل ، وبنوع خاص تلك الجوعيات التي نشأت في كنف المدارس، والتي ذكرنا منها ثلاثا ترعرعت في الجامعة . فقد اصدرت "الجمعية العلمية العربية" سنة ١٩٠٨ كتيّبا دعي "عواطف الاخلاص" تضمن بعض ما قيل في الاستاذ روبرت وست المتوفى سنة ١٩٠٦ . والكتاب قسمان : عربي وانكليزى ، وفيه مجموعة المراثي ، شعرا ونثرا ، لطلاب الكلية واساتذتها .

اما جمعية "زهرة الاداب" فقد اصدرت سنة ١٩٢٥ مقتطفات ادبية، ذلك انها "رأت ان لا تحرم التلامذة الجدد من فوائد الخطب التي القيت في اجتماعاتها في السنة الماضية ." ١) وقد صدّر الكتاب باسماء اعضاء الجمعية ، ثم بنشيد الجمعية . وفي المجموعة مقالات علمية وادبية واجتماعية ، وقصائد انتقادية وغزلية وغيرها .

اما جمعية "العروة الوثقى" فقد كان اثرها في انهاض الهمم الادبية

---

(١) مقتطفات جمعية زهرة الاداب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥ - بيروت - مطبعة المصباح

بين الطلاب كبيرا ، وذلك بفضل الاجتماعات المتتالية التي كان يخطب فيها الاعضاء والاساتذة والادباء ، وبواسطة "العروة" التي حفلت صفحاتها بالمواضيع المختلفة ، واخصها المواضيع العلمية . ١)

واذا اضفنا الى هذه النواحي في الاثر الادبي ناحية جمع الكتب ٢) التي عنيت بها الجمعيات ، ادركنا ان اثر الجمعيات كان عظيما في النهضة ، وانه مشى جنبا الى جنب مع آثار المدارس والمطابع والمكتبات وغيرها من دعائم النهضة .

---

(١) كانت "العروة" تصطبغ بالصبغة العلمية الادبية في اول عهدها . ففي المجلد الاول الصادر سنة ١٩٣٦ نقرأ العناوين التالية : سوريا في ادوار التاريخ – بيت المال في العصر العباسي – صناعة الصابون ومنزلتها في اقتطبيات سوريا – العرك الهيدروجين الثقيل – فلسفة التطور – الحركة التمثيلية في العراق – مناحي التجدد في دراسة التاريخ – مآثر العرب في العلوم الطبيعية – مآثر العرب في الرياضيات والفلك . اضف الى ذلك مقالات ونفثات لاعضاء العروة الوثقى (راجع ص ٧ ، العدد الثاني ، المجلد الاول) . اما اليوم فقد مالت الجمعية ومجلتها الى بحث المواضيع القومية السياسية العامة ، وذلك ايام حرب فلسطين الاخيرة وبعدها .

(٢) راجع هامش الصفحة ٥٦ من هذه الرسالة .

بين الشرق والغرب

ان ما يفرّق بين الشرق والغرب في نظر البعض هو نفسه ما يفرّق بين الروحانية والمادية . ذلك انهم الصقوا المادية بالغرب ، وظلموا الروحانية بان دفعوا بها في احضان الشرق فحسب . ولا تخفى المغالطة في مثل هذا التفريق ، فهذه تحديدات لا يقربها التاريخ والواقع ، اذ ان المشهور عن الشرق انه لم يكن روحانيا صرفا في كل ما صدر عنه ، كما ان الغرب لم يتنكر للروحانية في اعماله كلها ، بل كانت الروحانية والمادية تتداخلان في حياة الشرق والغرب على السواء .

الواقع انه لا شرق ولا غرب ، بل عالمان مختلفان كل الاختلاف ،لا تعرف حدودهما شرقا ولا غربا : انها تشطر الشرق قسمين ، وتشطر الغرب قسمين ، فيجتمع احد قسمي الشرق الى احد قسمي الغرب ليشكلا عالما واحدا له آماله الخاصة وحياته الخاصة ، له آلامه في بؤسه ورجاؤه لمستقبل افضل . ويجتمع الشطران الباقيان ليكوّنا عالم الفراغ للروحاني والوجداني ، عالم عبيد المادة يسخّرون الناس لهم عبيدا .

سقت هذه الكلمة لاقول ان الشرق والغرب لم يكوّنا ولا يكوّنان عالمين منقسمين متنافرين ، بل كثيرا ما يلتقيان على الصعيد الثقافي والصعيد السياسي . يثبت ذلك تلك التيارات الفكرية والادبئة والاجتماعية التي كانت تجتاز الشرق الى الغرب او تجتاز الغرب الى الشرق . ولعل ابرز هذه التيارات اثرا ذلك الذى حمل التراث العربي الى اوروبا عبر الاندلس وصقلية في ايام العرب الزاهية . ثم غاب الشرق في جهله ، واشع في الغرب نور المعرفة والتقدم . وقامت سنّة الحياة تدبّر اتصالا جديدا بين الشرق والغرب ، تمّ عن طريق الارساليات الاجنبية الى البلاد العربية ، والمستشرقين ، والبعثات العلمية العربية الى الغرب . لقد رد الغرب الينا بضاعتنا نقية فائضة متطورة ونحن باشد الحاجة اليها ، فاسرعنا اليها بلهفة واحطناها ، وما نزال نحيطها ، بضروب من عنايتنا وعطفنا .

المرسلون اهتم الغربيون بالعربية في بلادهم وفي بلادنا اثر تنبههم الى غنى العرب الادبي ، فانشأوا المدارس للتلاميذ العرب وغير العرب . اما البابوات فكانوا يرمون من تشجيعهم طلابنا ولغتنا ان يقوّوا اواصر الصداقة بينهم وبين

مسيحيي الشرق ، والموارنة بنوع خاص، فانشأوا مدرسة روما المارونية ، واصدروا القرارات الى رهبانهم بضرورة فتح المدارس في لبنان ١) وسلك ملوك اوروبا طريقا مماثلا ، فشجعوا العربية في بعض مدارسهم العليا ، كما فعل فرنسيس الاول الذى حمى اللغات القديمة ، الغربية والشرقية ، في "هيكل المعارف البشرية" ، تلك المؤسسة الثقافية التي قام بخلقها بعد عقده الصلح مع شارلكان ٢) ، وكما فعل لويس الرابع عشر الذى اخذ على عاتقه تعليم عدد من ابناء لبنان مجانا ٣).

ثم رأت البلدان الغربية ان ترسل الينا مرسليها يبشرون . ولكن المرسلين لم يكونوا دائما صريحين في اعلان اهدافهم او في وسائلهم ، بل كثيرا ما سعوا الى التبشير عن طرق ملتوية ، ففتحوا المدارس والمستوصفات، وهدفهم كسب الناس عقليا وماديا ثم السيطرة عليهم دينيا ٤).

بيد ان المرسلين لم يهتموا دائما في اعمالهم بالامور الدينية ، بل وجهوا سعيهم احيانا الى النفع الشخصي والى العمل السياسي . ولم اكن لاشير الى هذه الانحرافات لولا ان لها نتائج وخيمة احيانا على الحركة الثقافية عندنا ، ذلك ان تعصب بعض المرسلين لبلدانهم جعلهم يلهون عن الرسالة الثقافية الحقة ، فلا يلقنون طلابهم ، في ميدان العلوم واللغة ، الا ما هو كفيل بان يضمن لهم نفوذا وسيطرة.

---

(١) حنا فاخورى — ص ٨٨٩

(٢) الياس ابو شبكة — روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب — ص ٣٢

(٣) حنا فاخورى — ص ٨٩٠

(٤) ان اهتمام المرسلين بالدين لا يعني ان هؤلاء كانوا يسعون الى بذر تعاليمهم بين المسلمين فحسب ، بل كانوا كذلك يبشرون المسيحيين الذين هم على غير ملتهم بـ "مسيح" معين وبطائفة معينة . تقول جان ارقش في اهداف المرسلين الدينية : "لقد تقرر ان سفر رسول (الى الشرق) امسى ضروريا . وبامر من الملك توجه السيد دو هايس دو كورمانان الى المشرق حاملا مهمة مزدوجة : كان عليه اولا ان يعيد رهبان "الكوردولييه" الى بيت لحم بعد ان طردهم منها الارمن ، وان ينتزع من هؤلاء حماية الاماكن المقدسة ، كما كان عليه ان يسعى الى انشاء قنصلية في القدس منعا للتحرشات والمضايقات التي كان يتعرض لها الحجاج الفرنسيون"

(ارقش —

وقد لاحظ هذا الانحراف كتّاب وطنيون واجانب واشاروا اليه في كتاباتهم التي ساورد منها قسما في اواخر هذا الفصل ١) ٠

---

(١) يقول هنري غيز واصفا احوال المرسلين في اول عهدهم ، وتحول اهداف بعضهم في القرن التاسع عشر : "قام المرسلون بخدمات جلّى في البلدان التي سكنوها ٠ علّموا فيها اصول الفنون الهامة ، وكانوا رسل صلح وسلام ٠ ففكوا اكثر مشكلات المنازعات الداخلية ٠ اما اليوم فقد تغيّرت الحالة كل التغيّر ٠ ان الامور التبشيرية تتعرض لكثير من التقلبات ٠ فالمهمة الاولى القويمة اخذت تخف وتتضاءل ٠ والمرسلون الذين كانوا يقومون قديما بكثير من الحسنات اصبحوا اليوم تقريبا غير مبالين بكل ما له علاقة بالقضايا الدينية ٠ لم يعد يهم احدا منهم الا منفعته الشخصية ، ومصلحته وراحته" ٠
(هنري غيز – جزء ٢ – ص ١٤٧)

اما الاهداف السياسية فانها تظهر ، وان خفيفة ، بظهور الحركة التبشيرية في بلادنا تقريبا ٠ تقول جان ارقش : " ان ارسال المبشرين الى الارض المقدسة كان يشكّل انجع وسيلة للدعاية واسلمها ٠ فعلى هؤلاء المبشرين اعتمدت الدبلوماسية منذ ذلك الحين لجعل النفوذ الفرنسي مسيطرا في الشرق الادنى " ٠ (Arcache - P.P. 175-76)
وتقول في مكان آخر عن سفر احد المبشرين الى الشرق : " على اثر هذا السفر الذى امر به لويس الثالث عشر ، رأى الاب جوزيف دو ترومبلاى مناسبا ان يرسل مبشرين الى لبنان ٠ وهكذا نجد ان فكرة ارسال المبشرين قد حلّت محل فكرة صليبية جديدة ، هذه الفكرة التي ابعدت نهائيا عن الاذهان لانها غير قابلة للتحقيق ٠ لذلك ترتّب على الكبوشيين اتباع الاب جوزيف ان يغزوا روحيا وعقليا شعبا كان حتى ذلك الحين لا يعرف الا المبشرين البرتغاليين والاسبانيين والايطاليين ٠ وبما ان الاب جوزيف كان وطنيا ، فقد حاول ان يبسط السطوة الفرنسية ، فشكّل بعثات مؤلفة من فرنسيين فحسب ، تتلقّى توجيهات من فرنسا ٠٠٠ وفي سنة ١٦٢٥ سمح البابا للكبوشيين بالاستقرار في لبنان حيث استقبلوا بحفاوة ٠٠٠ " (Arcache - P.P. 184-185)

وقد تأثر بعض كتابنا بروح المبشرين ، فكتب الياس ابو شبكة يقول : " فاول ما فكرت فيه الرسالات الفرنسية عندما امّت هذه البلاد هو بثها الفضائل التي تحلى بها ملوكها (!) وادباؤها ورجالها العسكريون (!) والبحريون (!) وقد كان لهذه الدعوة اثرها العميق في المسيحيين على الخصوص فراحت الناشئة تغرف من معين تلك الفضائل غذاء لتفكيرها " ٠ (الياس ابو شبكه – روابط الفكر والروح – ص ٦٨)

وانتقل الان الى استعراض حياة الارساليات في لبنان ، لانتقل بعد قليل الى تقرير النتائج التي نجمت عن اعمالها .

بدأت الارساليات تؤم لبنان بصورة منظمة منذ القرن السابع عشر . وقد ساعد الامراء اللبنانيون اعضاءها سعيا وراء امرين : الاول هو تأمين الطمأنينة في نفوس المسيحيين ، والثاني هو الظهور امام الغرب بمظهر المتحررين الراغبين في التعاون . وعلى رأس اولئك الامراء فخرالدين الثاني . لقد سمح لارسالية بان تتخذ الناصرة مقرا لها ، ولم يكتف بذلك بل نفح المرسلين بكمية من المال ، واوصى بهم سكان المنطقة خيرا بلهجة لا تخلو من التهديد ١) . وسمح كذلك للمندوب دو هايس بانشاء ارسالية في لبنان . ٢) اما الكبوشيون فكانوا ، حسب رأى غيز ، اول من دخل الى لبنان من المرسلين ٣) . وعلى اثر موت فخرالدين طرد الكبوشيون من لبنان اذ انهم اتهموا بانهم كانوا يدعون العناصر غيرالمسيحية الى الدين المسيحي ٤) ، فحل اليسوعيون محلهم يتابعون اعمالهم . والى جانب الارساليات التي ذكرت ارساليات بروتستانتية لم تكن دائما اقل شأنا من الارساليات الكاثوليكية .

اما الاثر الذى تركه المرسلون في لبنان ، فقد ذهب الناس في تعليله مذاهب شتى : منهم من اعتبر اعمال المرسلين مناجم خير ، ومنهم من اعتبرها معاول ردم ، ومنهم من ذهب الى ان لها جانب خير وجانب سوء .

لا شك في ان حركة المدارس في لبنان قد تأثرت تأثرا ظاهرا بما حمله اليها المرسلون من انظمة مدارسهم . صحيح ان الهدف من انشاء المدارس لم يكن دائما احلال المعرفة مكان الجهل بقدر ما كان احلال دين محل آخر ٥) او نفوذ دولة مكان نفوذ دولة اخرى . الا ان الغاية حولت الواسطة الى اداة فعالة في بناء

---

(١) Areache - P.P. 178-179

(٢) Areache - P.P. 182-183

(٣) راجع : غيز - جزء ٢ - ص ١٤٦

(٤) Areache - P. 257

(٥) يقول زيدان : "اما الباعث على انشاء المدارس في سوريا على الاكثر منافسة الارساليات الدينية او البعثات التبشيرية ." (زيدان - ص . ٣٧)

العقول اللبنانية . ولمحة سريعة نلقيها على اسماء المدارس التي نشأت بعناية المرسلين كفيلة بان تقر بحقيقة ما قلت .

ولم يقتصر نشاط المرسلين على المدارس بل طرق ميادين اخرى كالطباعة . كان المرسلون — وهم بطبيعة الحال مبشّرون — بحاجة الى اذاعة تبشيرهم في الناس، فادركوا بالتالي ان اسرع الوسائل وافعلها هي الطباعة . لذلك قاموا بمشاريع كثيرة في هذا الشأن ، بعضها تحقق وبعضها اخفق . فقد عبّر الاب جوزف الكبوشي عن امله بان يكون لجمعيته مطبعة، وصرح بانهم يملكون الاحرف العربية والسريانية والتركية والفارسية ، وبان عددا من الاباء يتدرب على اصول هذا الفن . بيد ان الفكرة لم تتحقق الا ان اليسوعيين قد رعوها ١)

ويذكر بعض الاجانب ان دخول المرسلين الى البلاد كان فاتحة خير للنهضة . يقول روبنصون : "كانت يقظة العرب الفكرية في طلب المعرفة نتيجة غير مباشرة ولكن طبيعية لاعمال المرسلين في هذا القطر ." ٢)

ومن الناحية اللغوية الادبية نرى ان المبشرين قد احدثوا بعض النهضة في اوائل عهدهم اذ انهم اتخذوا العربية لغة التدريس الرسمية ٣). بيد انهم ما لبثوا ان مالوا عن العربية الى لغاتهم . والجلي ان بعض المبشرين، بطرق مباشرة او بطرق ملتوية ، لغاية او لغير غاية ، ينزعون من تلاميذهم وطلابهم معالم العروبة احيانا ، لغة كانت ام شعورا ... ان برامج المدارس التبشيرية بنوع خاص وبعض المدارس الاجنبية بنوع عام حافلة بالاخطار التي تهدد كيان اللبنانيين العرب الاجتماعي والادبي . فما نزال حتى اليوم نلاحظ ان اكثر المدارس المعنيّة لا يخصص للعربية سوى ساعة في النهار ، بينما يخصص للغات الاجنبية خمس ساعات ! ٤) فلا عجب بعد هذا ان يلجأ طلابنا الى اللغات الاجنبية يعبّرون بها عن افكارهم ، وان يميلوا بالتالي الى الاداب الاجنبية معرضين عن الادب العربي . وان الميل الى الاداب الاجنبية ليميل بضعاف النفوس احيانا الى الاجانب نظرا لما يقرأون في كتبهم من عناصر التشويق اليهم . ولم يدر

---

(١) Arcache . P.P. 185 - 185

(٢) روبنصون — جزء ١ — ص . ١١٦

(٣) راجع ص . ٣٩ من هذا البحث . و : زيدان — ص . ٤٣

(٤) ان هذا شأن بعض المدارس الوطنية كذلك . بيد ان الروح التي تسود تدريس العلوم العربية تختلف بين هذه المدارس وتلك .

من المسؤولين ما يدل على انهم متنبهون للداء الذى يبث قروحه في كل مكان. والوسيلة الوحيدة الكفيلة بان تنصفنا هي ان يخيّر المخلصون من مسؤولينا المبشرين في احد امرين : اما ان يتّبعوا برامج وطنية موحدة تشرف عليها وزارة التربية ، وتظهر اللبنانيين والعرب على حقيقتهم ان في عالم التاريخ ١) او في عالم اللغة والادب ، واما ان يتولى وطنيون ادارة مدارسهم والسهر على برامجها وفقا للمقتضيات الوطنية .

وقد شعر الادباء العرب بالخطر المحيق بلغتهم من جراء هذا الاهمال ، وذلك منذ القرن التاسع عشر ، فراحوا يرمون المدارس الاجنبية بالتهم ويحمّلونها مسؤولية التقصير . فنسمع ابراهيم اليازجي يقول : . " بل عندنا اليوم ما هو ابلغ من ذلك ، وهو ما نراه من كثير من فتياننا الذين يتلقون العلم في المدارس الاجنبية . فانك تجد كل فريق منهم قد اشرب الميل الى الامة التي يدرس في لسانها . فمن تعلّم في المدارس الانكليزية مثلا خرج ميله انكليزيا ، وكذا من درس في المدارس الفرنساوية او الطليانية او غيرها حتى تراه يباهي برجال تلك الامة ويتبجح باخبار ملوكها وكبرائها وفضائل اهل العلم والشعر فيها ، ويقتبس كثيرا من اخلاقها وعاداتها . " ٢) ونسمع امين ناصر الدين يقول : " لم ينزل باللغة العربية من ذلك اليفاع الى هذا الحضيض الا المدارس الاجنبية فقد كانت وما تزال تعلّم الطلبة العرب احتقار لغتهم وتوهمهم انها لغة لا تستحق ان يخلى لها الزرع . وانها صعبة المنال . تنبوعنها الافهام وتحار فيها المدارك . فينشأ اولئك الطلبة وقد اشربت قلوبهم مقت العربية . " ٣) واختتم هذا الفصل اخيرا بكلمة مفصّلة صريحة لمحمد كرد علي ٤) يقول : " ان المدارس الطائفية ومدارس المرسلين من الاميركيين واليسوعيين والالمان والانكليز والطليان واليونان والروس وغيرهم من الامم ذات المطامع في الارض المقدسة ، جعلت التربية متلونة في هذه الديار ، فاصبح كل متعلم يخدم الغرض الذى انشئت له مدرسته ، وانقسمت الامة بهذا الضرب من التعلّم اقساما شتى ، وتباعدت مسافة الخلف بين ابناء البلد الواحد ، لاختلاف المذاهب بل للاختلاف في المذهب الواحد مما لم يكن له اثر يذكر في غابر العصور ، ولان معظم

---

(١) ان درس تاريخ العرب ضعيف نظرا لاهمال ارباب المدارس الاجنبية . ولا يخصص له من الوقت ربع ما يخصص لتاريخ بعض البلدان الغربية ، وهنالك صفوف لا يسمع فيها التلميذ ذكرا للعرب .

(٢) ابراهيم اليازجي في : اعلام اللبنانيين في نهضة الاداب العربية — ص ١٣٣

(٣) امين ناصر الدين — مقدمة الالهام — ص . ط

(٤) محمد كرد علي — ص . ٨٠ — ٨١

المدارس التي انشأها غير الوطنيين من الشاميين كان العامل في تأسيسها مذهب خاص في الدين والسياسة · ولواردنا ان نعدّد اسماء الجمعيات الدينية التي تعلّم المسيحيين في بر الشام لما رأيناها تقل عن ثمانين ارسالية ، ومنها ما ينزع من المتعلم حب قوميّته وبلاده ، وكم رأينا رجالا ونساء درسوا في تلك المدارس فجاؤوا لا عرب ولا افرنج ، يتكلمون في بيوتهم بغيرلغتهم ، ولا يشعرون شعور الشامي ، بل يبغضون تقاليدهم وتاريخهم ، وتسودّ بلادهم في عيونهم ، ولذلك صح ان يقال ان تلك المدارس لم تنفع البلاد النفع المطلوب ، بل نفعت الشركة التي قامت بتأسيسها بان هيّأت لها في هذه الديار انصارا ··· فان كانت هذه المدارس قد نفعت الشام بما ادخلته اليها من النور القليل ، فقد اخّرتها بانحلال عقدة الوطنية ··· والعاقل من حرص على نفع امّته قبل نفع غيرها وانتفع بما عنده قبل ان يتطال الى ما عند غيره، ومن زهد في لغة آبائه واجداده كان حريّا بالزهد في وطنه ووطنيته··· واللغة والوطن يصح ان يكونا اسما لمسمّى واحد···"

المستشرقون على اساس الاتصال السلمي الذى تخلل الحروب الصليبية والاحتلال العربي للاندلس وصقلية ، اتيح للثقافة العربية ان تتغلغل في صفوف الغربيين · فمنذ مئات السنين والعلوم الاسلامية العربية تغزو الغرب من صقلية واسبانيا ، مجتازة الالب والبرانس الى اواسط اوروبا والى فرنسا وغيرها ، فاعجب بها الغربيون وقاموا يدرسونها ، ونشأت منهم فئة كان لها في دراسة العربية وآدابها شأن يذكر ساعد العرب على تفهم الكثير من مطويات كنوزهم ، في نهضتهم الاخيرة ·

وقد ظهرت بوادر الاستشراق منذ القرن العاشر · فقد ادرك المثقفون الغربيون ان العلوم العربية معين لا ينضب في الطب والفلسفة وغيرهما ، فاخذوا يهتمون بها على صعيد فردى في بادئ الامر · ومن اول من عرف في عالم الاستشراق الراهب جربير الفرنسي الذى اخذ عن علماء الاندلس في مدارس اشبيليه وقرطبه · ونظرا لما كان يتمتع به هذا الراهب من مؤهلات انتخب حبرا في روما سنة ٩٩٩ · وقد امرآنذاك بانشاء مدرستين عربيتين : احداهما في ايطاليا ، والثانية في ريمس في فرنسا (١)·

---

(١) نجيب عقيقي ــ المستشرقون ــ ص· ١٩

وتلا " جربير" عدد من العلماء امثال الاب " بطرس المحترم" (من سنة ١٠٩٢ الى سنة ١١٥٦) الذى قصد الى الاندلس طلبا لعلومها ، و " جيرارد و كريمون" او جيرار الكريموني الذى اعجب بالعلوم الفلسفية والرياضية والفلكية عند العرب فنقل بعضها الى اللاتينية ١) ، والراهب " لول" ، و " البير الكبير" الذى درس العربية في باريس ٢) ، وغيرهم ...

كانت اعمال المستشرقين الاوائل تقوم على جهد شخصي . ونستدل من الكتب التي ترجموها ونشروها ، ومن الابحاث التي حققوها ، انهم وجّهوا عنايتهم الى العلوم الرياضية والفلسفية والطبية دون ان يعنوا العناية الكافية باللغة والاداب . وما لبث الملوك الغربيون ان فطنوا الى ما في الثقافة العربية من آفاق رحبة ، فراحوا يشجعونها ويشجعون علماءها . ففي صقلية التي غلب فيها الاعاجم على العرب ، حافظ المنتصر على الكثير من آثار العرب الفكرية . يقال ان الملك روجر آثر العرب على غيرهم لانه تثقّف بثقافتهم ، وانه قد اضاف شارة محمد الى شارة المسيح الى نقوده ، فكان يضع على احد وجهيها : " لا اله الا الله ، ومحمد رسول الله ." ٣)

اما غليوم الثاني خليفة روجر فقد اتخذ العربية لغة لبلاطه وقرّب اليه العلماء العرب ، وكان يقرأ العربية ويكتبها ٤) . وقام بعدهما فريدريك الثاني " فاحسن الى العربية ، وقرّب علماءها ، فاتسع افقهم بعد ضيق ، وارسل العلماء المسلمين ، وجادلهم بعد ان قرأ ترجمة ابن رشد وغيره من الفلاسفة . وتناول فريدريك الثاني جامعة بولونية بحمايته ، فوهبها نسخا من الطب العربي ، فاذا فلسفة ابن رشد تتسرب الى منابرها ، ثم جمع اليه المترجمين من العرب ، والواقفين على الثقافة العربية ، وانشأ مكتبا للترجمة بلغ ما نقلوه ثلاثمئة مجلد الى اللاتينية لغة العلم يومذاك ... حتى ان البابوات اتّهموا فريدريك بالتواطؤ مع المسلمين على المسيحيين ." ٥) وقد قام الملوك الاوروبيون بحماية العربية بعد الذين ذكرت . ٦)

---

(١) نجيب عقيقي - ص ١٩ . كان بطرس المحترم يؤلف الكتب في الرد على الاسلام . بيد ان هذه النزعة ، نزعة الطعن والتجريح التي عرف بها الكثيرون من المستشرقين ، كانت خيرا على العربية اذ ان المستشرقين اضطروا الى التضلع من اصولها وآدابها والى نشر بعضها ...

(٢) نجيب عقيقي - ص٢ (٣) نجيب عقيقي - ص ١٦ (٤) عقيقي - ص١٦

(٥) نجيب عقيقي - ص . ١٦ - ١٧ (٦) نجيب عقيقي - ص . ٢٨ - ٢٩

وما لبث المستشرقون في العصور الحديثة ان انشأوا الجمعيات التي راحت تعنى بامور الشرق وثقافته • ومن هذه الجمعيات "الجمعية الاسيوية البنغالية" التي اسسها السيروليم جويس في كلكوتا سنة ١٧٨٤ ، و "الجمعية الاسيوية الادبية" في بومباى سنة ١٨٠٤ ، و "جمعية العلماء الفرنسيين" التي اسست سنة ١٧٨٧ والتي اصدرت مجلة "جورنال آزياتيك" • وقد حذا بعض الدول الاوروبية الاخرى حذو انكلترا وفرنسا ١)•

وبتطور حركة الاستشراق تطور الاتجاه نحو اللغة • فقديما كان الغرب بحاجة الى علوم الشرق ، لذلك عني المستشرقون بنقلها الى لغاتهم • ولكن بعد ما ازدهرت في الغرب العلوم وقطعت عن البلدان الشرقية في مضارها اشواطا ، برزت امام الغرب ضرورة جديدة ، وهي ضرورة دينية تجارية ،٢) ، فراح المستشرقون يهتمون باللغات الشرقية كلغة وادب ، ونشروا في هذا الميدان ابحاثا قيّمة • وقامت الحكومات الغربية تساعد الحركة بانشائها المنابر العربية في الجامعات ، كمنبرى اوكسفورد وكمبردج في انكلترا في القرن السابع عشر ٣) ، ومنابر جامعات قازان (١٨٠٧) وموسكو (١٨١١) وبطرسبرغ (١٨١٨) في روسيا ٤)، ومنابر جامعات ليدن واوترخت وامستردام وجروننجن في هولندا ٥) ، ومنابر جامعات برنستون ومشيجن وشيكاغو وغيرها في الولايات المتحدة الاميركية ٦) •

واذا حاولت ان اسرد اسماء الكتب ةالعربية التي نشرها المستشرقون وحقّقوا متونها وعلّقوا عليها وترجموها الى لغاتهم لاستنفد ذلك الصفحات الطوال ٧)

---

(١) نجيب عقيقي — ص ٢٣ — ٢٥

(٢) الضرورة الدينية ذات وجهين : التبشير ، والتعمق في دراسة التوراة استنادا الى اللغات الشرقية القديمة • (زيدان — ص ١٣٥)

(٣) نجيب عقيقي — ص ٧٩

(٤) نجيب عقيقي — ص ١٢٦ — ١٢٧

(٥) نجيب عقيقي — ص ١٣٠

(٦) نجيب عقيقي — ص ١٧١

(٧) نجيب عقيقي — وجرجي زيدان • راجع الاول ، والفصل الخاص بالاستشراق في الثاني

ونظرة عجلى نلقيها على المكتبة العربية كفيلة بان تجعلنا نكبر اعمال المستشرقين وخدماتهم الجلّى التي ادّوها الى العربية في نهضتها • ولئن كنت اعترف مع البعض بان بعض المستشرقين اتخذوا الاستشراق احيانا وسيلة للحط من قيمة التراث العربي ١) تاريخا وفلسفة وعلما، فلا يسعني الا ان اردد مع نجيب عقيقي ، بعد ما اطلعت على نشاط المستشرقين الجبار في ميداني النشر والتأليف ٢) : "واول فضل للمستشرقين علينا نشرهم كتبنا وتنظيمهم لمخطوطاتنا • ايام كنا في انحطاط ما بعده انحطاط• ولو لم يقدّر لثروتنا الثقافية تلك الايدى البيض فتنشرها ، والكثير منها في ارض غريبة ، وقد فقد اصول معظمها ولم تصل الينا الا اسماوّها وترجماتها ، لما توّصلنا الى معرفتها او اجادتها على اقل تعديل فوقفنا على درجة حضارتنا واثرها في الامم الاخرى ••• ولم يقتصر فضلهم على جمع ما وجدوه ، بل سعوا في درسه وتنظيمه ونقده وتمحيصه، والوصول به الى نتيجة بالغة حجتها ، ثم نشروه في الناس لايقاف العالم على حضارة العرب" ٣)

البعثات الى الغرب: ثمة عنصر هام في العلاقات اللبنانية الخارجية ، وهو تلك البعثات الرسمية ، الدينية والثقافية ، التي كانت ترسلها الحكومة اللبنانية الى الغرب والى مصر للتخصص في معاهدهما • وقد بدأت هذه البعثات في الحقل الديني، وذلك على اثر اهتمام البابوات بموارنة لبنان وانشائهم المدارس من اجلهم • "فعمد البابوات الى نقل فتيان الموارنة الى رومه ليلقّنوا في مدارسها ويعودوا بعد ذلك الى بلادهم حاملين نورا جديدا ، وثقافة جديدة ، واساليب جديدة • فكانت البعثة

---

(١) خالدى وفروخ — ص ٢١٢ — ٢٢٠ ومقاطع اخرى من الكتاب : التبشير والاستعمار

(٢) نجيب عقيقي — ص ٢١١

(٣) للاطلاع على التفاصيل المتعلقة بالمستشرقين ، راجع :

ا — عقيقي — المستشرقون

ب — زيدان — ص• ١٣٣ — ١٥٧

ج — نصولي — ص• ١٢٢ — ١٣٢

د — Raphael. P.P. 11-39

الاولى الى رومه سنة ١٥٧٨ " ١)

هذا في عهد الامير قرقماز . وعندما ارتقى فخرالدين الثاني سدة الحكم شجع البطاركة على ارسال البعثات الى اوروبا ليفيد فيما بعد من ثقافة اعضائها. ولقد بقي هذا التقليد متبعا في الناحيتين الدينية والثقافية في عهد الشهابيين وعهد المتصرفين ، فنقرأ عن الامير بشير الثاني هذا النبأ ٢) : "ولما رأى الامير البلاد بحاجة الى اطباء بارعين اتفق مع الحكومة المصرية وارسل شبانا لبنانيين اذكياء ليدرسوا الطب في مدرسة قصر العيني في القاهرة ، فعادوا بعد حين الى لبنان . وكانوا اول اطباء قانونيين في البلاد الشامية فأدّوا للبلاد فوائد تذكر بمعالجة الامراض بالطرق العلمية الفنية وتنويرهم الاذهان وتأليفهم ..."

وقد سبقت هذه البعثة بعثة ارسلت الى لندن سنة ١٨٣٤، وتألفت من اسماعيل جنبلاط وانطونيوس الاميوني وعبد الله العازار ٣) . وفي عهد المتصرفية "اوفد فرنكو نصرى باشا فريقا من الشبان الى اوروبا لاتمام دروسهم العالية في المعاهد الكبرى ." ٤)

ولعبت البعثات دورا هاما في حياة مصر الثقافية ، يوم قام محمد علي

---

(١) حنا فاخوري - ص. ٨٨٩ . ولم تقتصر البعثات على الموارنة ، بل ساهم في حركتها المسلمون والارثوذكس . اما المسلمون فكانوا يرسلون ابناءهم - وخصوصا من كان منهم راغبا في الدين - الى الازهر ، واما الارثوذكس فكانوا يرسلون كهنتهم الى معاقل الارثوذكسية في اليونان وروسيا واسطمبول . ان هذه البعثات الارثوذكسية كثيرة ، بيد اني لم اقف في الكتب التي رجعت اليها على ما يفي بالمطلوب . وقد كتبت الى غبطة البطريرك الانطاكي راجيا ان يمهّد لي السبيل للاتصال بمكتبة البطريركية في دمشق ، فاجاب بها برسالة لطيفة يقول فيها : " .. فمع مدينا جهودكم هذه وتمنياتنا ان تصلوا الى ما ترغبون فيه من المعلومات نؤكد لكم انه لدى البطريركية كتب كثيرة ربما كانت مفيدة لكم في موضوعكم لو صارت قراءتها من خبير يهمه الامر - ولكن عدم وجود الشخص المطلوب في الوقت الحاضر والنقلة التي اضطررنا اليها لسبب البناء القائم الان في الدار البطريركية جعلت التفتيش عن الكتب او المخطوطات التي تفيدكم عسرا جدا . واذا تيسر لنا في هذين اليومين ان نجد شيئا من الكتب فلا نتأخر عن تقديمها . "

(٢) الاب صفير - ص. ٩٥ - ٩٦ . ويقول بلبيل ان هذه البعثة اوفدت سنة ١٨٣٨ وان اعضاءها كانوا : يوسف الجلخ ، ابراهيم النجار ، غالب الخوري البعقليني ، الملوك سليم خورشيد ، يوسف مرهج لطيف (ص. ٣٩٠) -

(٣) بلبيل - ص. ٣٩٠

(٤) بلبيل - ص. ٤٢٩

يرسل البعثة تلو البعثة الى اوروبا ليعود ابناؤها وقد حمل كل منهم من تراث الغرب شيئا : هذا تخصص في الطب ، وذاك في اللغات ، وذلك في الهندسة ، وآخر في الترجمة ١)

وهنالك اتصالات فردية تمّت بين العرب والغرب جعلت العرب يعجبون بطرق الحكم الاوروبية ويقارنون بينها وبين الطرق العثمانية المتقهقرة . وهكذا جنى العرب ا من البعثات الجماعية والرحلات الفردية اشهى الثمار في الميدانين الوطني والثقافي .

الثمار الادبية لاحتكاك الشرق بالغرب

"وقد اتيح للادب العربي الحديث منذ اوائل القرن الماضي ان يتعرف بالحضارة الاوروبية ، وان يطل بواسطتها على آفاق جديدة في الحياة . وكان ذلك عن طريقين : الاول طريق الترجمة ، والثاني طريق الاطّلاع المباشر ." ٢) وقد بلغ اثر الغرب شأوا بعيدا في حياة الشرق ، "فتغلغل في سبل الحياة المشرقية على اختلافها : الحياة المادية والحياة السياسية ، والحياة الاجتماعية ، والحياة الفكرية ..." ٣) وكنتيجة لحركة الترجمة التي قويت في البلاد العربية نظرا لاحتياج العرب الى الكثير من آثار الغرب الادبية ، نرى ان الادب العربي قد اثرى بمعان لم يعرفها العرب ، او انهم عرفوها لماما . يقول عناني والاسكندري ٤) : "فنشأ عن ذلك (الترجمة) نقل كثير من المعاني والاساليب الافرنجية التي يقبلها الذوق العربي فاثرت بذلك اللغة وحصفت افكار اهلها ." ويذهب البعض

---

(١) نشأت في مصر من جراء ذلك نخبة من المثقفين اشرفت على المدارس العالية التي انشأها محمد علي ، وسعت بالبلاد الى التقدم الذى نصّب مصر في طليعة البلدان العربية ثقافة وطنية . ولقد رجع المبعوثون الى مصر وملء قلوبهم غبطة بما شاهدوه في اوروبا — وفرنسا بنوع خاص — من مظاهر الرقي السياسي والاجتماعي . وقد اعجبوا خاصة بالقوانين التحررية التي عرفتها فرنسا في ثورتها الكبرى وثوراتها الثانوية — وكانت حديثة عهد — فنقل بعضهم — واشهرهم رفاعة رافع الطهطاوى — ترجمات لهذه القوانين معلنين اعجابهم بالثورة ونتائجها (راجع في هذا البحث الفصل المتعلق بمبادئ الثورة وحقوق الانسان ، تحت عنوان : المؤثرات)

(٢) انيس المقدسي — جزء ٢ — ص ١٤١

(٣) Abdel Jalil – P. 221

(٤) الاسكندري وعناني — الوسيط — ص ٣٢٢

الى ابعد من ذلك ، فلا يتكلم عن "تأثر" الشرق بالغرب ، بل عن "غرف" الشرق من ثروة الغرب ، او ، بتعبير ادق ، عن "ولادة" الشرق ولادة جديدة على يد الغرب . وفي هذا المعنى يقول ميخائيل نعيمه ١) : "ما تعوّد البعض ان يدعوه نهضة ادبية عندنا ليس سوى نفحة هبّت على بعض شعرائنا وكتابنا من حدائق الاداب الغربية ، فدبّت في مخيلاتهم وقرائحهم كما تدب العافية في اعضاء المريض بعد ابلاله من سقم طويل ... اما اليوم فقد رجعنا الى الغرب الذى كان بالامس تلميذنا ، لنقتبس عنه امثولة جعلناها هي زاوية نهضتنا الادبية ... وتلك الامثولة هي ان الحياة والادب توأمان لا ينفصلان ."

والى جانب الاوضاع الادبية التي اكتسبها العرب ان اسلوبا او معنى ، اكتسبوا ماهو في مرتبة ذلك غنى وخطورة : مواضيع ادبية لم تخض فيها اقلامهم يوما ، ومواضيع اخرى طرقوها ولكن على غير الفنون والطرق التي عرفت بها في الاعصر الحديثة . وعلى رأس المواضيع المقتبسة : المسرح ، والقصة .

اما القصة فليس هنا مجال لبحث فيها ، لانه سبق للعرب ان عرفوا هذا الفن في مقاماتهم وسيرهم وكتبهم الاسطورية وحتى في بعض اشعارهم ، ولان درس الموضوع يتطلب تفرغا كليا له بعد ما تشعبت فنونه وخصائصه بتشعب الاتجاهات . اما المسرح ، فانني لا اجد بدا من الوقوف امامه ولو لوقت قصير ، ذلك انه موضوع دخيل على الادب العربي ، وقد اصطدم بعقبات اوقفته او ، على الاقل ، شلت قوائمه فراح يتلمّس خطاه زحفا . والذى يشجعني على ان اخص المسرح ببعض العناية هو ما كان للمسرح من اثر في توجيه النظر الى الحياة الشعبية ، وذلك لان المواضيع التي طرقها كانت في الغالب مواضيع اخلاقية اجتماعية تهذيبية تسعى الى بث الفضائل واستنكار المفاسد . وساعود الى هذا في "الاتجاه الشعبي ."

* * * * * * * * * * *

لقد ادى احتكاك الشرق بالغرب اذا الى تسليح النهضة بدعامة من اقوى دعائمها . واني اختتم هذا الفصل - بين الشرق والغرب - بهذه الكلمة الصائبة التي كتبها اديب اسحاق ٢) ، احد ادباء الطليعة عندنا ، واحد الذين عرفوا بنزوعهم

---

(١) ميخائيل نعيمه - الاباء والبنون - ص ٣

(٢) اديب اسحاق - الدرر - ص ١٢٠ و ص ٢٠٠

الى الصواب انّى كان وازورارهم عن اللوّم حيثما حلّ :

"انّا نعترف لهم (الافرنج) بالمزية والفضل، ولا نجحد سبقهم في مجال العلوم والفنون، واجتهادهم الجدير بان يقتدى به، وان قدومهم بلادنا عاد علينا بالفائدة المعنوية عارضة في خلال اعمالهم المبنية على آمالهم. وذلك يقضي بالشكر لهم وان كنا على يقين من انهم لم يجلبوا لنا الفائدة التماسا لمصلحتنا، بل توسلوا بها الى ادراك الغايات الدينية، والمقاصد السياسية. وكيف لا نشكر لهم وقد كنا منغمسين في الضلالة، تائهين في مفاوز الجهالة، حتى صارت مدارسنا دارسة، لا دارس فيها ولا دارسة، وارض افكارنا لا تنبت شيئا... فلما ان وردوا علينا، واقاموا بين اظهرنا، صار فينا جماعة كثيرة يحسنون ما لم يحسنه نزر من السلف، وتليت في مدارسنا الدروس بعد العفاء والدروس... وانشئت عندنا صحف الاخبار فاستنارت بها الافكار..."

القسم الثـــاني

اللغة العربية

في مرحلة الانتقال

ليس من شأني هنا ان ادرس اللغة العربية في تاريخها وتطورها ، وان ابحث في ما يعثورها من مشاكل ، وفي ما يرافق حياتها من جمود او انطلاق . هذا موضوع لا يخوضه الا من اوتي من علوم اللغة سعة وتبحرا ، ومن وقف على اللغات السامية مستجليا خصائصها . اضف الى ذلك ان هذا المجال ليس مجال لغة .

انما اردت ان آتي بلمحة سريعة استعرض بها ما كانت عليه اللغة في اوائل مرحلة الانتقال وما آلت اليه . لقد اتيت في الفصل الاول من هذه الرسالة بدراسة اثبتّ فيها ان اللغة العربية كانت في عصور الانحطاط في حالة من الفوضى والضعف شديدة ، وان الادب كان – كاللغة – يحتضر مرسلا في الجو نفثات مزعجة . لذلك توجب علي ان ابحث – قبل ان انتقل الى المظاهر الادبية في النهضة ، واللغة عماد الادب – في ما آلت اليه اللغة بعد بوارها ، مستعرضا النقمة على الاوضاع القديمة الفاسدة التي سادت كتابات ادباء الانتقال ، وما ادّت اليه محاولات هؤلاء الرامية الى الانتقال بالعربية من صعيد الجمود والركود والضعف الى صعيد الحياة والتطور والعافية .

ما ان ازفت ساعة النهضة ، وتكاملت عناصر النمو فيها او كادت ، حتى قام ادباء الانتقال الى اللغة يعرضون مشاكلها كقواعد ومصطلحات واسلوب . لقد ادركوا ان اللغة كما وصلت اليهم – وكانت ما تزال ، مع ازدهار الحركة العلمية وتقدّم الحركة الادبية النسبي ، تشكو بعض الضعف – لا يمكن ان تقوم بسد حاجات الفكر في العصر الذى كانوا فيه ، وخصوصا في العصر الذى كانوا مقبلين عليه . ذلك ان اللغة كانت ما تزال كما تسلّموها عن الاسلاف القدامى : لقد اقفلت منذ امد بعيد ابواب الاجتهاد فيها ، واقفلت كذلك الابواب التي تسربت خلالها الى العربية ، على مسير العصور ، مئات الالفاظ من الفارسية والحبشية والهندية وغيرها . وقد كانت هذه الالفاظ ، بالاضافة الى الى ما اشتق من اللغة العربية نفسها ، كفيلة بان تقدّم للفكر مواد للتعبير كافية في الاعصر العباسية (١) واعصر الانحطاط . ولكن سرعة التقدم العلمي في القرن التاسع

---

(١) عندما بدأ الاتصال العلمي القوى بين العرب والاعاجم – واليونان بنوع خاص – في الاعصر العباسية ، وخصوصا في عهد الترجمة والنقل ايام المأمون ، عرفت العربية سيلا من الكلمات الجديدة – المعربة والدخيلة – التي دخلت في صلبها لتدل على ما وقف عليه العرب من جديد . ونظرة الى "المزهر" للسيوطى ترينا كميات كبيرة من الكلمات

عشر ، وكثرة الاكتشافات والاختراعات ، ادّتا الى تطوّر لغوى في البلاد الغربية فرضته ضرورة تأمين الادوات اللازمة للتعبير عن الجديد • اما العربية فقد وقفت حيال التقدم مكتوفة اليدين معقولة اللسان ، لا هي تجسر على ان تأخذ من اللغات الاجنبية التعابير المستحدثة خوفا من نقمة المتعنّتين ، ولا هي تستطيع ان تسمّي الاشياء الجديدة على طريقة خاصة خوفا من الذين يحرصون على الاحتفاظ بما "ورد" ، وبما "ورد" فحسب •

وهكذا نشط ادباء الانتظال يطالبون بتحرير العقول وتحرير اللغة، كي تلحق — ويلحق الفكر العربي — بركب التقدم • يقول بطرس البستاني (الكبير) ١) : "ان حالة العلوم المتعلقة باللغة العربية كالصرف والنحو مثلا ليست باقل احتياجا من اللغة نفسها الى الاصلاح من هذا القبيل • فانها في حالتها الحاضرة لا توافق الذين يقصدون العلوم طلبا لنوال ما يترتب عليها من امر المعيشة • وذلك لان كل حياتهم بالكد يكفي لتحصيلها على حقها • وهذا ما يجعل اهلها يهملونها بالكلية ،او بتخذون لغة او لغات اجنبية ضرائر لها • وهل يليق بالانسان الذى انما جعلت له اللغة واسطة وبابا للعلوم ان يجعلها غاية ، ويصرف حياته كلها واقفا امام ذلك الباب يتفرج على نقشه وزخرفه الخارجي ، مع ايقانه بان وراءه تحفا قديمة وحديثة تسلب القلب وتخلب الالباب • وهكذا تولدت ،عند العرب ،لغة دارجة بينهم تختلف كثيرا عن لغة الكتب• وهذه اللغة الدارجة تراها دائما تهدد اللغة الاصلية • واذا طال الحال عليها هكذا تميت كثيرا من الفاظها فوق ما اماتته ، فيلتزم العرب في آخرالامر ان يفعلوا باللغة العربية كما فعل اليونان والارمن بلغاتهم الاصلية ، ويعطوا اللغة الدارجة محل اللغة الاصلية ،فتصير اللغة الاصلية لغة العلماء واصحاب التفتيش فقط كاللغة اللاتينية عند الافرنج ، ولا يمكن ان يتصور حصول خسارة للعرب اعظم من هذه •" اذا يرى البستاني ضرورة تسهيل اللغة كيف تصبح في متناول الجميع • وينتقل ابراهيم اليازجي الى احوال اللغة كاداة للتعبير عن الافكار ولنقل ما يجد من الامور الثقافية والمستحدثات الصناعية وغيرها، فيراها لا تفي بالغرض وهي في شرنقتها ٢) : "لم يبق في ارباب الاقلام ومنتحلي صناعة الانشاء من هذه الامة من لم يشعر بما صارت اليه اللغة لعهدنا الحاضر من التقصير بخدمة اهلها ، والعقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت معجماتها بمطالب الكتّاب والمعرّبين ،واصبحت الكتابة في كثيرمن الاغراض ضربا

التي دخلت الى العربية في الاعصر العباسية وقبلها •

(١) بطرس البستاني في :اعلام اللبنانيين ••• ص ١١٦ — ١١٨ (٢) المصدر نفسه ص ١٢٧

من شاق التكليف وبابا من ابواب العنت . واللغة لا تزداد الا ضيقا باتساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات الى ان كادت تنبذ في زوايا الاهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومسّت الضرورة الى تدارك ما طرأ عليها من الثلم قبل تمام العفاء وقبل ان ينادى عليها مؤذن العصر : سبحان من تفرد بالبقاء ، ويختم على معجماتها بقصائد التأبين والرثاء . "

بيد ان اليازجي لم يكتف بعرض مشكلة اللغة كلغة ، بل تعرّض كذلك للقواعد والمصطلحات التي رأى الخطأ شائعا فيها ، خصوصا في لغة الجرائد . يقول ١) " يقولون رجل تعيس وقوم تعساء وهو من اهل التعاسة . وكل ذلك خلاف المنقول عن العرب والمسموع عنهم : رجل تاعس وتعس ..." ويقول ايضا ٢) : " ومثله قولهم الرفات البالية وعند فلان رياش ثمينة ... وانما الرفات مفرد ، والصحيح في الرياش انه مفرد ايضا . " ٣)

---

(١) ابراهيم اليازجي - لغة الجرائد - الطبعة الاولى - مصر - ص . ٦٦

(٢) ابراهيم اليازجي - لغة الجرائد - ص ٨٧

(٣) لم تقف هذه الموجة - موجة المطالبة بانعاش العربية وتذليل الصعاب التي تعترضها - عند عهد الانتقال فحسب ، بل تتابعت وتكاملت على ايدى الادباء المتأخرين نوعا عن الذين ذكرت . يقول امين ناصر الدين متعرضا للمرض نفسه ، واصفا الضعف الذى يتخلل اللغة : " يرى فريق من المتأدبين ان اللغة العربية في هذا العصر قد استعادت المنزلة التي كانت لها في صدر الاسلام او كادت ، ويحاول اثبات رأيه ببراهين لا تلبث ان تنتقض عليه وحجج لا تثبت على الجدل . وحسبك اذا اردت تزييف براهينه ودحض حججه ان تورد له ما في معظم الجرائد والمجلات والمؤلفات العصرية من كلام سخيف فشت فيه المغالطة وتعاوره الضعف واساليب تتنزه عنها العربية الفصحى . ومن اغرب ما في الامر انك قد تقرأ مقالة لاحد مشهورى المنشئين المتضلعين من اللغة فيأخذك العجب حين ترى اللفظة الفصيحة بازاء اللفظة المبتذلة التي انما تجرى على السنة العامة . " (امين ناصر الدين - مقدمة الالهام)

ولما آذنت شمس النهضة القومية العربية في اوائل القرن العشرين بالاشراق اخذت شعراءها عزة التاريخ والامجاد ، فقاموا يمجّدون العربية ويحملون على الذين اهملوها وكانوا السبب في طعنها ، ويبكون على ما حل بها بعد وقفة مجيدة

لذلك نرى ادباء الانتقال يعنون باللغة عناية خاصة ، فيختارون من الكلام ما هو مطابق للمعنى ويرذلون الحوشي والمبتذل والقديم المماث ، ويحاولون ان يكون التركيب بسيطا متينا . واننا لنجد فرقا شاسعا بين اللغة التي اتخذها هؤلاء الادباء واللغة التي كانت سائدة في عصور الظلمة : فقواعد تلك قد ضبطت نتيجة لاعمال المدارس اولا ، وخصوصا نتيجة لاعمال مشايخ اللغة الذين كانوا يعلّمون في حلقات صغيرة او في بعض البيوتات في المدن او القصبات ، او حتى في المدارس الوطنية والاجنبية . اضف الى ضبط القواعد ضبط الاساليب . فبينما كانت اساليب الانحطاط تقلّد دون براعة وتزخرف دون ذوق ، اصبحت الاساليب الجديدة تميل الى الصفاء والسهولة مع المتانة ، وان كانت لا تخلو احيانا ، بحكم الاستمرار غير المقصود ، من بعض السجعات والاستعارات وانواع الجناس وما شاكل ، كالتي نراها احيانا في كتابات اديب اسحاق ونجيب الحداد .

كانت لها . وفي هذه المرحلة غلبت المسحة العاطفية في تمجيد اللغة والمطالبة برفع شأنها على الصبغة العلمية . ومن الشعراء المذكورين امين ناصر الدين الذي قال :

يا من يرى اللغة الفصحى وقد نكبت
بكل دهياء ردّت نورها ظلما
هوت من الذروة العليا وبثّ لها
شر الغوائل قوم ضيعوا الهمما
يا معشر اللغة الفصحى اما لكم
عطف عليها يقيها النائبات ، اما ؟

(امين ناصر الدين - الالهام - ص ١١٣)

ويقول خليل مطران :

سمعت باذن قلبي صوت عتب — له رقراق دمع مستهل
تقول لاهلها الفصحى : اعدل — بربكم اغترابي بين اهلي ؟
انا العربية المشهود فضلي — أأغدو اليوم والمغمور فضلي ؟
اذا ما القوم باللغة استخفوا — فضاعت ، ما مصير القوم؟ قل لي !

(خليل مطران - جزء ٤ - ص ٦٥)

وفي المهاجر تنطلق الاصوات ، بين باك في اللغة مجدا غابرا ، ومؤمن

وكنتيجة للحملة التي شنها المخلصون من ابناء الضاد على اوضاع الفصاد (الفساد) التي تغلغلت في لغتهم وكادت ان تجعل منها لغة مماتة ، وقف الناس فريقين : فريقا يتمسك باللغة متعنتا ، ويقف ازاء الكلمات الدخيلة المستوحاة من حياة الغرب واختراعاته موقفا سلبيا ، وفريقا لا يرى في اللغة سوى اداة لنقل الفكرة من شخص الى آخر ، فلا يهتم بقليل او كثير بهذه الاداة ما دامت الفكرة تنتقل بوضوح ، وكأن هذا الفريق يقول : "كفى بالمعنى دليلا على ادبنا!" وحتى اليوم لا نجسر ان نعلن احد الفريقين منتصرا ، ذلك لان لكل منهما شأنه وحوله وصولته !

بان ما اصاب اللغة لم يكن سوى نائبة من تلك النائبات التي تتحطم على صخرة الارادة المدعومة ببذور الحياة الصالحة . فيصيح مسعود سماحه :

لهفي على لغة يشوّه لفظها وجلال رنّته اللسان الاعجم

(مسعود سماحه - ديوان - ص ٢١)

وفي حفلة تسلّم الكرسيّ العربي في جامعة سان باولو يحيي فيليب لطف الله اللغة قائلا :

حييت يا لغة الاعراب والادب ام اللغات وام السادة النجب

قد ناوأتك صروف الدهر باغية شرا وما بلغت شيئا من الارب

فيا ذخيرة مجد العرب اجمعهم لا زلت للعرب نورا غير محتجب

(فيليب لطف الله في : ذكرى الهجرة - ص ٢٠٤)

الا ان هذه الحركة لم تقف عند حد بذل العواطف ، بل عرفت مساعي جدّية قائمة على اسس العلم والعقل . من هذه المساعي اثنان قام بهما كاتبان عانيا التدريس ردحا وخبرا ما في العربية من تقصير وصعوبة : هما جورج الكفوري والدكتور انيس فريحه . يستعرض جورج الكفوري في كتابه "اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها" مواطن المرض في العربية ، ثم يأتي بعدة اقتراحات للاصلاح . اما الاقتراح الاول فانه يقضي بعدم نبذ العاميّة ، وباعتبار وجودها امرا واقعا مفيدا (راجع الكتاب ، ص. ٨٤ = ٨٥) . ويرمي الاقتراح الثاني الى فتح باب التعريب والاقتباس على مصراعيه ، اذ لا بأس في اخذ بعض الكلمات عن اللغات الاخرى كما فعل العرب في جاهليتهم وفي العصر العباسي (الكتاب ، ص. ٩٣ - ٩٤) . اما الاقتراح الثالث فانه

وكان طبيعيا ان يلتفت الادباء الى الاسلوب كما التفتوا الى اللغة ، ذلك ان الاسلوب مجموعة مما في اللغة من قواعد وفنّ وبيان . شعر فريق من الادباء بان زملاء لهم يتخذون من الادب القديم محرابا يعنون لديه دون ان يلتفتوا الى الجديد وراءهم — الى الجيّد في الجديد — فاذا بهم يعيشون في الماضي ، يسجعون، ويتكلفون الطرق السالفة ، ويسخّرون المعنى لمقتضيات المبنى والصناعة . وقد شعر الحداد بما للصناعة عند البعض من اثر هدّام في الادب ، فعقد فصلا بحث فيه قضية الجنوح الى اسلوب جديد يكون فيه الكلم ثوبا ملائما للمعنى ، فقال : ١) "وهذه هي الغاية التي نتوخى اليها اقلام كتابنا ونستنهض اليها قرائح ادبائنا ومنشئينا لتكون الكتابة طوع ايدينا ونسلك من الانشاء مسلكا جديدا وهو عين المسلك القديم الذى اغفلناه، ونطبع على نفوس قرائنا ما نريده نحن لا ما تريده مستلزمات الاقوال ومقتضيات الكلام ."

---

(١) نجيب الحداد — ص ٤٦

يقضي بان تهمل المترادفات ! وهذا، لعمرى ،اقتراح لا يقوم على اساس متين . الى وجود المفردات الكثيرة لا يضير اللغة بشيء والغاءها لا يأتي عليها باى نفع. فهي قابعة في بطون الكتب والمعاجم ، ساكنة ، هادئة ، لا تتعرض لطالب باذى ، بل تبذل نفسها مطواعة لكل راغب فيها . ولو فرضنا ان الاقتراح نال الموافقة وبوشر بتحقيقه ، فما هي الكلمات التي تلغى والكلمات التي يبقى عليها ؟

اما "تبسيط قواعد اللغة" للدكتور فريحه فانه جمع الى ما ورد في الكتب الاخرى من نقد احوال اللغة وبسط مصاعبها والاتيان بالاقتراحات النظرية عنصرا جديدا ، الا وهو الاقتراحات التطبيقية التي اردفها المؤلف بكتابه .

عندما يبحث المؤلف الدواء يعتبر ان الحرف العربي مشكلة من المشاكل التي تعترض اللغة (ص ٩) ، وينفي عن الحرف قدسيته (ص ١١ — ١٣) ليخلص بالتالي دونما دعوة صريحة ، الى ان الاقلاع عن الحرف العربي ، ما دام هذا الحرف مشكلة، ممكن ضرورى . (ص ١٤ ،الهامش) لقد كثرت في الاونة الاخيرة الإحاديث عن الحرف العربي ، وعن ضرورة استبدال الحرف اللاتيني به . وحجة القائلين بهذه النظرية ان الحرف اللاتيني اسهل فهما واكثر شيوعا . وهذه النظرية مردودة في نظرى ، ذلك لانني اعتبر ان الحرف العربي ، مع ما فيه من صعوبة تتمثل في اختلاف اشكال الحرف الواحد بالنسبة لوروده في اول الكلمة او في داخلها او في آخرها، لا يشكل معضلة على

الا ان الكثيرين من اصحاب المدرسة التجديدية لم يكونوا ليقرّوا مثل هذا "التجديد الرجعي" ، او بالاحرى هذه "الرجعية التقدمية" ، بل كانوا يريدون تجديدا في التعبير ، تجديدا في النظر الى الحياة ، واقلاعا عن ديار ليلى وما تموحيه حياة المضارب • وقد عبّر المقدسي عن هذه الحركة بقوله ١) : " ولما بدأت النهضة في منتصف القرن الماضي كان الادب لا يزال تقليدا للقدماء يتابعهم في اوصافهم واساليب تعبيرهم • ثم اخذ الامر يتغير ، فنشأ منذ القرن المذكور جيل يدعو الى التجدد • وكما قام ابو نواس في اوائل العصر العباسي يدعو شعراء زمانه الى ترك الحياة الاعرابية والمثل البدوية ، كذلك قام المجددون في هذا العصر يدعون الى ترك الطريقة القديمة والاهتمام بما توحيه اليهم الحياة الجديدة • "

وكان من الطبيعي ان يتزعّم هذه الحركة ادباء المهجر لاحتكاكهم الوثيق بالغرب ، ولضعف صلتهم بالقديم ، فشنوا حملة على القديم في روحه واسلوبه ، وشهدت كتاباتهم كلمات انتحلوها لانتشارها في بيئتهم ، تقرأها لاول وهلة فتصدمك فيها

---

(١) المقدسي - جزء ٢ - ص ١٢

الاطلاق • اسمع الى تلميذ يقرأ : فهل يفوته ان التاء تاء ، وان الجيم جيم ، وان الصاد صاد ؟ كلا • انما المهم في الامر ان هذا التلميذ لا يستطيع ضبط الكلمة بالحركة الضرورية ، وهذا عائد الى مشكلة القواعد لا الى الحرف •

والمشكلة المهمة الثانية هي قيام العامية والفصحى جنبا الى جنب • ويبدو من بعض فقرات تتخلل الكتاب ان المؤلف يميل الى الاخذ بمبدأ العامية في ما يتعلق ببعض الامور • فالعامية مثلا لها قواعد خاصة للعدد ، فلا يضير الفصحى ان تأخذ بهذه القواعد او بمثلها • ولكن هذا المبدأ خطر على اللغة • فان الاخذ بقاعدة فرضتها يجر الى الاخذ بقواعد ، فباللغة العامية كلغة وادب : نكتب بها ، ونخطب بها • وهنا الطامّة الكبرى ! اذ هل يفهم ابن الجنوب كل ما يقوله ابن عكار ؟ وهل يفهم ابن بيروت كل ما يرد على لسان البقاعي ؟ ومن يضمن لنا ان المتني يفهم معنى "الخاشوقه" ، و "زرم" ، و "عجّال" ، وغيرها ••• ؟ ناهيك بالاختلافات القائمة بين مختلف اللهجات العامية في البلدان العربية •

اما الناحية التطبيقية فان فيها الجديد الموفق كما ان فيها الجديد القديم •

طرافتها ، ثم لا تلبث ، بعد ان تتوافد عليك القوافي بـ "الراديو" و "الدولار" و "الويسكي" وغيرها ، ان تألفها ، ثم قد تستسيغها او تستسيغ بعضها لما فيه من انقياد الى العفوية والسليقة . ومن الداعين الى التجديد ونبذ القديم نعمه قازان في "معلقة الارز"، ١) ولا شك في ان هذه الدعوة التي يدعو اليها المهاجرون ، بالاضافة الى عوامل ادبية خارجية ، قد اثرت في تحويل الكتابة عن جمودها وتقليدها الى مرابع جديدة ، "فعلت ببلاغتها وحسن اسلوبها وتشبّعها بالمعاني الكثيرة التي اوجدتها الحركة العلمية الحديثة فاديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان بالمسحة ٢) العلمية والانشاء المرسل الملآن . وكان الكتاب كلما قرأوا كتب الاوروبيين شعروا بحاجة الى مادة اغزر من اللغة العربية ، واساليب اطلى وفنون ابدع وجو ومجال اوسع ، فكأن اللغات الاجنبية نفسها قد كانت الحافز الاعظم على اتقان العرب المحدثين للغتهم .."

ان اللغة تشكو اليوم اجحافا وتقصيرا . لقد امسى بعض ابنائها وكأنهم اعاجم ، لا يكتفون بان يطعنوها باغفالها ، بل يباهون بانهم لا يتقنونها . ومرد ذلك الى ضعف الثقافة الوطنية في النفوس ، والى عوامل كثيرة اخرى ليس هنا مجالها . والذى يجعلنا نعلّق على الامر اهمية هو ان بعض الادباء يتنكرون للغة بشكل سافر ، قائلين بتحطيم الفصحى لانها تشكل حاجزا بين الاديب والقارئ . ومثل هؤلاء كمثل الطبيب الذى يداوى العليل بحقنة سم ! ومتى ادركنا ان اللغة ظاهرة قومية ودعامة وطنية ، ادركنا ان وجوب الاسراع في معالجتها اضحى واجبا مقدسا . ولا تجرى معالجة اللغة بتجرد واخلاص ما لم يتجرد اولو الامر من ربقة التقاليد الدينية والاجتماعية ، وما لم تتوفر فيهم الجرأة لرذل المريض والابقاء على ذى الصحة ...

---

(١) ولكن الكاتب ، في الكتاب نفسه ، يعود احيانا ، لا الى القديم فحسب ، ولا الى مضرب البدوى ، بل الى الصحراء ، الى اعماق الصحراء ، الى الرشأ !!!

(٢) الافضل ان يقال : اديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان الى المسحة .

وعلى العموم استطيع ان اقول ان كتاب الدكتور فريحه قد فتح في ميدان الصراحة والانعتاق فتحا جديدا ، وان كان بعض الاقتراحات لم يجد عند البعض الاثر المرجو ، فان ما لا شك فيه ان هذه الاقتراحات وغيرها جديرة بالدرس والمناقشة على ضوء التجرد .

المؤثـــرات

فـي الادب اللبناني الحديث

(١) مبادىء الثورة وحقوق الانسان

لم يبق الشرق العربي في غفلة عن تيارات الافكار الجديدة ، بل تسربت اليه من مبادىء الثورة وحقوق الانسان خطوط انارت له سبله المظلمة وكان لها الاثر الفعّال في تحريك الهمم الهامدة واثارة العواطف الرازحة تحت نير الجور . ولقد تسربت مبادىء الثورة الفرنسية الى البلاد العربية ١) عن طريق مصر اولا، ذلك ان الحملة النابوليونية قد حملت معها بعض الافكار التحريرية آنذاك - وقد يكون ذلك عن غير قصد منها - تضمّنها المنشور الذى اذاعه نابليون في المصريين. ٢) اما الطريق الثانية فهي احتكاك العرب بغرنسا مباشرة - وكانت الثورة فيها ما تزال بنت يومها - ووقوفهم امام حركاتها التحررية بجلال ، واخذهم عنها الكثير مما ترجموه وشرحوه ووضعوه وعلّقوا عليه .

---

(١) ليس هنالك نظرية ثابتة علميا حول انتقال مبادىء الثورة وحقوق الانسان الى البلاد العربية . ولكن القرائن تحمل الباحثين على الاخذ بالمبدأ الذى اشرت اليه اعلاه .

(٢) طبع نابليون وهو في طريقه الى مصر منشورا كتب بلغة سقيمة ، ليصار الى توزيعه على المصريين حال نزول الجند على الشاطىء المصرى . وارى ان اثبت المنشور لما في بعض مقاطعه من دلالة على الافكار الجديدة على العالم العربي . وساشير بخط الى الافكار التي يمكن اعتبارها جديدة .

اورد الجبرتي المنشور بالنص التالي : "بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه . من طرف الفرنساويه المبني على اساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرته يعرف اهالي مصر جميعهم ان من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدى فحضر الان ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الابازه والجراكسة يفسدون في الاقليم الحسن الاحسن الذى لا يوجد في كرة الارض كلها . فاما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا ايها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا

وعلى رأس من نقلوا اخبار الثورة ومبادئها كاتب مصرى زار فرنسا ، هو رفاعة رافع الطهطاوى . اورد هذا الكاتب في مؤلفه "تخليص الابريز الى تلخيص باريز" اخبار الدستور وحقوق الفرنسيين وغير ذلك مما له علاقة بالثورات الفرنسية ونتائجها . يقول ١) : "والقانون الذى يمشي عليه الفرنساوية الان ويتخذونه اساسا لسياستهم هو القانون الذى ألفه لهم ملكهم المسمى لويز الثامن عشر ولا زال متبعا عندهم ومرضيا لهم وفيه امور لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل ... فلنذكره لك وان كان غالب ما فيه ليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بان العدل والانصاف من اسباب تعمير الممالك ولراحة العباد ، وكيف انقادت الحكام والرعايا لذلك حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم وارتاحت قلوبهم فلا تسمع فيهم من يشكو ظلما ابدا والعدل اساس العمران..." وبعد ان يذكر اهم ما في الدستور يتكلم عن ثورة سنة ١٨٣٠ ذاكرا ان الظلم والاستبداد والضغط كانت اسبابها . ٢)

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوى - تخليص الاقريز الى تلخيص باريز - ص. ٦٦

(٢) رفاعة رافع الطهطاوى - تخليص الابريز الى تلخيص باريز - ص. ١٥٩

تصدّقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لاخلّص حقكم من يد الظالمين وانني اكثر من المماليك اعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا ايضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل تضارب . فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا ان يتملكوا مصروحدهم ويختصوا بكل شيء احسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ...الخ ." (الجبرتي - عجائب الاثار في التراجم والاخبار- جزء ٣ ، مجلد ٢ ،ص ٤ - ٥) وقد يكون العثمانيون ساعدوا روح الثورة من حيث لا يدرون ، اذ نقرأ في تاريخ الامير حيدرالشهابي "لبنان في عهد الامراء الشهابيين" ان السلطان سليم خان اصدر فرمانا يحرض فيه المسلمين على قتال الفرنسيين الذين نزلوا في مصر . وقد ورد في الفرمان هذا المقطع : "وزعموا ان ... والناس كلهم متساويين في الانسانية ، متشاركون في البشرية ، ليس لاحد على احد فضل ولا مزية ، وكل منهم في ذاته يدبر نفسه وامر معاشه في حياته. وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأى الهازل

ولم يتخلف اللبنانيون عن المساهمة في نقل اخبار الثورة فكتب الامير حيدر الشهابي في تاريخه فصلا عن الثورة الفرنسية ، واصفا الاحوال التي حدت الشعب الى التمرد على الملك ، منتقلا بعد ذلك الى مقتل الملك ، وظهور بونابرت ، والى حملة هذا الاخير على مصر ، كما انه اثبت المنشور الذى اذاعه نابليون ١) .

شغف العرب بالثورة عندما ادركتهم اخبارها ، وشغفوا بنوع خاص بما احتوت عليه مواد شرعة حقوق الانسان ٢) ومواد الدساتير من ضمانة للحريات الخاصة والعامة ومن تقديس لحق الشعب . وقد سلك الادباء في تعبيرهم عن الثورة ومبادئها ثلاثة سبل : منهم من تكلم عن الثورة نفسها بطريقة علمية باحثا في بواعثها ونتائجها والمبادئ التي صدرت عنها — شأن الطهطاوى والشهابي — ، ومنهم من تأثر بالثورة فجاشت عاطفته لما رأى في بني قومه من استهتار بالحقوق والبكرامة ، فصاح فيهم محرضا على الامتثال بالفرنسيين ، ومنهم من التفت الى النواحي التي امتدت اليها مبادئ الثورة وحقوق الانسان في ميادين الشعب والانسانية والاجتماع ، فطالب بالحرية للمظلومين وبالمساواة للمغضوب عليهم ، وحارب الطغيان اينما حل .

---

(١) الامير حيدر الشهابي — لبنان في عهد الامراء الشهابيين — ص. ٢١٤

(٢) اصدرت الشرعة في ٢٦ آب سنة ١٧٨٩ ، ومن مبادئها :

١ — يولد الناس احرارا ويلبثون كذلك متساوين في الحقوق . والحقوق هي : الحرية — الملكية — الامن — ومقاومة الظلم .

٢ — كل المواطنين في حكم الشرائع سواء . ولذلك يمكن لجميعهم الدخول في المناصب والوظائف على قياس كفاءتهم وذكائهم .

٣ — ان التبادل الحر فيما يخص الافكار والاراء لمن اثمن حقوق الانسان . بناء عليه ، كل مواطن له ان يتكلم ويكتب ويطبع بحرية مع العلم انه مسؤول عن اساءة استعماله هذه الحرية حسب ما ينص القانون .

(رئيف خوري — حقوق الانسان — ص. ٤٩ — ٥١) وراجع : J. Isaac - L'époque révolutionnaire P.P. 74-76

بنوا قواعد جديدة وقوانين جديدة . " (الامير حيدر — ص. ١٨٨)

ويضيف المؤرخ : " وحين وصلت الفرامين ما احد انتبه من المسلمين لضعف العسملّه وخوفا من الافرنج . " وقد يكون المقطع الذى اشرت اليه والذى اراد به السلطان طعنا اتى بعكس المطلوب . لما فيه من ذكر للمساواة وللانسانية .

وقد شدّد الادباء على الصبغة العالمية للثورة ، والتي جعلت لها في البريّه قدسية خاصة . فقال عمر فاخوري ١) : "ان الثورة الفرنسية لم تعلن حقوق الفرنسي وحسب : حقوقه السياسية والمدنية ، بل اعلنت ايضا حقوق الانسان . وهكذا كانت الثورة ومبادئها بشير خير وصلاح للامم جميعا ، حتى ليصح القول انها ثورة انسانية عالمية بقدر ما هي ثورة فرنسية وطنية .."

ولم يقف الادباء جميعهم كما وقف الطهطاوى والشهابي وفاخورى وغيرهم ، موقفا علميا موضوعيا ، بل قامت فئة متحمسة تنقاد لعاطفتها مع الثورة وكأنها تدعو ابناء قومها الى ترسم خطاها . فها هو اديب اسحاق يرسم لنا صورة حية للثائرين المتفضين على البالي من الاوضاع والانظمة والرجال ، فيقول ٢) : "تصورتهم فرقا واوزاعا باسمال تشف عن الجلود ، يتدافعون في المسالك صائحين ، يتلقون سيوف الجند بما قطعوا من الاشجار ، ويقابلون كرات البنادق بما اقتلعوا من الاحجار ، زاحفين مكشوفة رؤوسهم للسائغين ، مفتوحة صدورهم للرماة . يبتسمون للموت سآمة من الحياة ، فلا ينثنون عن القصد حتى يقف آخرهم على رأس اخيه ، من ربوة اشلاء ذويه ، فيرفع بيده اللواء صائحا : ليفن الظلم! وينزع من ا صدره النصل منتاديا : لتحي الحرية ! فقلت : ما لهؤلاء الناس يهرقون الدماء ويغتالون الرؤساء ويفسدون في الارض؟ قالوا : لحجب الدماء ودفع الغلبة وجلب الصلاح . قلت : وكيف يسمون ما يفعلون ؟ قالوا : الثورة . قلت : هي الدواء بالتي كانت هي الداء ."

الا ان الادباء لم يقفوا جميعا من الثورة موقف اديب اسحاق المحبذ المهلل . فان بعض الذين يتمسكون بما يسمونه روحانية وصفحا ومحبة ، رأوا في الثورة اعوالا تتنافى ومثلهم ، ولم يروا فيها سوى هذا ، لذلك انبروا عليها طاعنين مهدّمين ، آخذين عليها تقصيرا في دنيا الاخلاقيات ٣٠)

ولكن مبادئ الثورة لم تتعثر بالعقبات التي قامت في طريقها ، بل حلّت منها جحافل حيثما حل الفساد ، فنشب بينها وبينه صراع متأجج . ولكم امسك ادباء وشعراء بالاقلام يذودون بها عن مبادئ الثورة غائلة العدو معرضين انفسهم لنقمة ذوى الشأن احيانا . ذلك ان اهل القلم لم يكتفوا بان يقفوا امام الثورة ومبادئها مادحين ، مصفّقين ، شارحين ، بل تجاوزوا هذا العهد البدائي ، عهد المدح

---

(١) عمر فاخوري – الحقيقة اللبنانية – ص. ٦٠ – ٦١ (٢) اديب اسحاق – الدرر – ص. ١٧٢ – ٧٣

(٣) فيليكس فارس في : رئيف خورى – الفكر العربي الحديث – ص. ١٤٦ – ١٤٧

والتصفيق والشرح ، الى الشعب والحياة والمجتمع ، ينظرون اليها من خلال المبادئ التي لقنتهم اياها الثورة ، فيميزون بين الخير والشر ، ويهاجمون هذا الاخير بما اوتوا من قوة .

وكان من الطبيعي ان يروا من الفساد والشر الشيء الكثير ، ذلك ان المجتمعات العربية ، وبالتالي المجتمع اللبناني ، كانت في مطلع النهضة - وبقيت حتى عهد متأخر ، وما تزال في بعض النقاط - مجتمعات متفسخة يسوقها الجهل والظلم والخلاف .

رأى الادباء شعبا مستكينا الى الخنوع ، واناسا نصّبوا انفسهم اسيادا له ، واقنعوه بانه ليس بالامكان افضل مما هو كائن ، وان حياته طبيعية منطقية ، فثار اولئك الادباء وراحوا يدعون الى الانتفاض والتمرد والسعي الى حياة افضل ...

ورأوا عثمانيا او فرنسيا يضغط على الحريات ، ويفرق بين اللبناني واللبناني على الصعيد الطائفي والصعيد الاجتماعي ، والتفتوا الى شعار الثورة فاذا به ثالوث نيّر : حرية - مساواة - اخاء ، فثاروا على الظالمين وسخطوا على القابلين بالظلم ، وطالبوا بان تكون بلادهم مرتعا للحرية والكرامة ، لا يدنّسها محتل ولا يعكر صفوها جور .

وهكذا انتشرت كتابات الادباء المتحررين التي بها عرضت مطالب الاحرار من ابناء الوطن ، فكنا نرى منهم مطالبا بالانتفاض والتمرد ، ومطالبا بالحقوق ، ومطالبا بالحرية والمساواة ، وداعية من دعاة الثورة على المحتلين في سبيل حياة فاضلة شريفة .

وبهذا تكون مبادئ الثورة وحقوق الانسان قد اوحت الى الادباء بادب طبع بخاتمها . فاذا الشعب ، وهو الذى طالما اغفل في الادب العربي قديما ، يجد في الادباء مدافعين ومرشدين ، واذا بهؤلاء الادباء يلتفتون الى المجتمع التفاتة خاصة ، فينجم عن ذلك اتجاه اجتماعي انساني شعبي يحتل في ادب النهضة اللبناني مركزا مرموقا . وسيتوفر لنا درس هذا الاتجاه واتجاهات غيره بعد قليل .

(٢) القـومـيـة والوطنـيـة

هنالك ميزة بارزة فـي نفس العربي الجاهلي ، هي هذا الشعور القوى الذى كان يختلج فـي فؤاده ، ويملأه عزة وفخارا ، وهو الاعتداد بالاصل والنسب ١) والعنصر العربي • فنراه يفضل لغته على سائر اللغات ، وشعره على شعر سائر الامم ، اما عنصره فهو العنصر المثالي المصطفى الذى لا يدانيه عنصر ٢) •

على ان هذا الشعور لم يكن – عادة – سوى ضرب من الهوس العاطفي ، ذلك انه لم يكن موجها نحو غاية واحدة وفـي سبيل فكرة مشتركة يمدّها بحرارته ويلهب من اجلها افئدة العرب • وبكلمة اخرى ، كان هذا الشعور العربي بعيدا عن ان يكون شعورا بالقومية العربية حسب المفهوم الحديث للقومية •

وليس غريبا ان لا نرى فـي ذلك العصر قومية بالمعنى الصحيح • فبالاضافة الى العناصر التاريخية والطبيعية والادارية التي اصطلح الباحثون على اعتبارها مـن مقوّمات القومية ، والتي لم تكن جميعها متوفرة فـي المحيط العربي الجاهلي ، كان العنصر الاهم مفقودا ، اعني به ما سمّاه احد المؤرخين "الرغبة التي تحدو الناس الى الاجتماع والتضامن وتكوين القومية" • وانعدام هذه الرغبة متأتٍ عن صدوف الجاهليين عن المثل والاهداف العامة المشتركة الى الحياة اليومية التي كانت تستأثر بانتباههم ونشاطهم لان فيها كان كفافهم •

ولكـي يعرف العرب شعورا قوميا منظما ، يرمي الى الجمع بينهم علـى اختلاف ديارهم ، يجب ان ننتظر اواخر القرن التاسع عشر ٣) • ذلك ان الحركة القومية

---

(١) افرد العرب لعلم النسب ابوابا عديدة • راجع كتاب "اليتيمة في النسب" ، فـي العقد الفريد ، جزء ٣ ، طبعة احمد امين •

(٢) راجع اخبار وفد النعمان ابن المنذر على كسرى • العقد الفريد ، جزء ٢ ، ص ٤ – ٩

(٣) صحيح ان النبي قد وحّد كلمة العرب ، الا ان هؤلاء تأثروا فـي وحدتهم بالعامل الديني اكثر من تأثرهم بالعامل القومي • وصحيح كذلك ان العرب شهدوا فـي العصرين الراشدى والاموى كيانا عربيا قويا ، بيد ان هذا الكيان لم يستطع ان يجمع العرب جميعـا فـي وطن واحد وتحت نظام واحد وفـي رابطة شعورية واحدة ، بدليل العناصر الكثيرة التي كانت تدق الاسافين فـي النظام القائم ، ان سرا وان جهرا •

التي عرفتها البلاد العربية تأثرت بعاملين رئيسيين : تأثرت اولا بالتاريخ العربي المجيد الذى دفع العرب الى الاعتصام به واحياء حوادثه وشخصياته بطش الاتراك وتعاليهم . ذلك ان الاتراك امعنوا في سياسة "التتريك" في مطلع القرن العشرين ، فما كان من الفئة المخلصة في البلاد العربية الا ان استشاطت غضبا ، وغلبت عليها حميّة الوطنية ، ورأت ان اولئك الحاكمين المستبدين ليسوا باصفى من العرب محتدا ولا بامجد منهم اعمالا حتى يدوسوا لهم الكرامة والحقوق ، وراحت تمجّد كل ما هو عربي : لغة وتاريخا وابطالا وشعورا . وقد كان لهذه النزعة تأثير عظيم في زحزحة النزعة العثمانية التي كانت مسيطرة تقريبا . الا ان الحركة القومية التي عرفها العرب تأثرت خصوصا بالحركة القومية الصاعدة في بلاد الغرب ، وخصوصا في اوروبا ، والتي بدأت معالمها تتبلور في القرن الثامن عشر ١) ، والتي تم لكثير من شروطها ان يتحقق في القرن التاسع عشر ٢) ، عصر الانتفاضات الاجتماعية والتحررية والقومية في العالم .

---

(١) يذهب بعض المؤرخين الى ان الشعور القومي وجد منذ وجد الشعور الوطني ، ذلك ان الشعورين يلتقيان في اكثر النقاط ، ولا يختلفان الا في ما هو تافه . يقول رونيه جوهانيه في كتابه "مبدأ القوميات" : "ان الشعور القومي غالبا ما يكون ملتصقا بالشعور الوطني بحيث يصعب التمييز بينهما . ان الاول لا يختلف عن الثاني الا بامور عابرة تتعلق بالسبب اكثر من تعلقها بالمحتوى والجوهر . " (René Johannet - le principe des nationalités - P. 15)

وهكذا ترجع هذه الفئة بالقومية — بمظهرها البدائي طبعا — الى ما قبل القرن العاشر مستشهدة بحوادث واقوال تنمّ عن عاطفة التعلق بالوطن .

الا ان القرن الثامن عشر يعتبر بدء عهد القومية المنظمة . يقول كارلتون هايس في كتابه "التطور التاريخي للقومية الحديثة" ما يلي : "في القرن الثامن عشر ظهرت فلسفة قومية بطريقة مفاجئة تقريبا ... ففي اوساط القرن الثامن عشر المستنيرة انتشرت اولى النظريات القومية المنظمة . ومع ان هذه النظريات كانت تختلف في بعض التفاصيل ، باختلاف اصحابها ، الا انها كانت جميعا تنتشر الى جانب روح "النور" التي عرف بها العصر . " (Carlton Hayes - the historical evolution of Modern Nationalism - P.P. 13 & 16)

ويلحق البعض ، ومنهم الكاتبان الوارد ذكرهما اعلاه ، بالثورة الفرنسية فضلا كبيرا في اثارة الشعور القومي ، وذلك بواسطة مبادئها ، وبواسطة جيوش الثورة التي اقتحمت اوروبا حاملة معها الشعور القومي الذى كان ينزعه في فرنسا اليعاقبة . يقول هايس : "ان

عندما نقل العرب عن الاوروبيين في فجر نهضتهم ، وقفوا على ما في الغرب من علوم وتقدم ، فاخذوا عنه الكثير من المواضيع والاساليب الادبية ، وترجموا الكثير من كتبه . وبواسطة اطلاع العرب على آداب الغرب وحياته ، وبواسطة العرب الذين اتصلوا باوروبا ونقلوا من اخبارها الى ابناء بلادهم ، وبواسطة المدارس الاجنبية والوطنية التي راحت تدرس برامج واسعة في التاريخ وغيره ، وقف العرب على الحركات القومية التي رافقت الغرب وتأثروا بها في قرارات نفوسهم . كان الشعور السائد عند العرب قبل يقظتهم شعورا عثمانيا شرقيا يدعو الى الجامعة العثمانية والى الاعتصام بالنزعة الشرقية ، ولكن الشعور القومي الجديد الذى خلقته المناسبات وخلقه العلم في قلوب العرب ما لبث ان طغى على الشعور السائد . ولكنه ظهر ، اول ما ظهر ، بدائيا عاطفيا ، واستخدم كوسيلة لدفع هجمات الاتراك الذين كانوا يرمون العرب بشتى المثالب . الا ان هذا الشعور سار في طريق الانتظام والعلم شيئا فشيئا حتى اصبح له اليوم دعاته واصبحت له مبادئه واحزابه .

وهكذا عرف الشعور القومي عند العرب ادوارا ومراحل مختلفة . فبينما كان شعورا عثمانيا شرقيا في بادئ الامر ، اصبح ، بدافع التأثيرات الكثيرة ، عربيا في اوائل القرن العشرين واثناء الحرب العالمية الاولى ، واستمر كذلك حتى يومنا هذا . الا انه عرف ، اثناء الحرب وبعدها ، لونا جديدا الى جانب اللون العربي ، وهو اللون اللبناني . وساتناول

جيوش الجمهورية الفرنسية انتشرت ونشرت معها قومية اليعاقبة ، واصبح الجنود بذلك رسلا للقومية ." (Hayes, P. 60) . ويقول ايضا : "الوطن ، في قلوب اليعاقبة ، كان الها ، والها لا يحتمل مزاحمة اله آخر ." (Hayes, P. 70) .

ولا يخفى كذلك ما كان للثورة الاميركية من اثر في الشعور القومي لدى الشعوب.

(٢) عرفت اوروبا في القرن التاسع عشر حركات قومية سارت الى جنب الحركات التحررية . وقد كان من اثر هذه الحركات ان قامت البلاد المستعبدة (بفتح الدال) تطلب حقها في الحياة الشريفة ، كما قامت في مقاطعات كثيرة حركات ترمي الى الاتحاد على اساس قومي . وما آذنت شمس القرن التاسع عشر بالافول حتى كان الاطار القومي قد وضحت اشكاله تقريبا في اوروبا وخارج اوروبا . في اوروبا اتحدت الدويلات الالمانية في مملكة المانية موحدة ، واتحدت الممالك الايطالية الخاضعة والمستقلة تحت تاج فكتورعمانوئيل ، وقامت في خارج اوروبا نزعات قومية فصلت اميركا اللاتينية عن اسبانيا والبرتغال .

كلا من هذه النزعات بالتفصيل في "الاتجاه القومي الوطني".

وساتناول في الفصل المذكور موضوعا له بالقومية اوثق الصلات الروحية : اعني به موضوع التغني والحنين الذى يحتل في ادب المهجر مركزا مرموقا. الواقع ان هذه النزعة نوع من القومية ، بدليل انها تميل الى لبنان وتتغنى به وتفضله على سواه. ولكنها اقرب الى الوطنية لانها ليست في الغالب سوى مجرد حنين ينبعث من صدر المغترب الذى تحركت لواعج نفسه في ديار الغربة ، وقد ساهم فيها اصحاب النزعة العربية واصحاب النزعة اللبنانية على السواء. وساعود في "الاتجاه القومي الوطني" الى تفصيل نواحي هذه النزعة ، وسنرى انها قد جادت على الادب اللبناني خاصة والادب العربي عامة بتراث من الادب الوجداني الخالد.

الاتجـاهــات

فــي الادب اللبنانــي الحديث

(١) الاتجـاه الشعـبي

النثـر والشعر الادب والحياة ... او قل ، الادب ووحيه ، الادب ومبرر وجوده .

والحياة مديدة الافاق ، لا يحصرها تعريف ، ولا يضيّق انتغلاتها المحاولات الرامية الى حصرها فـي قمقم مختلفة باختلاف السحرة . وان افلحت هذه المحاولات حينا ، فان الحياة ، كذلك الجبار ، جبار القمقم ، ما تلبث ان تخرج من قمقمها لتعـيد سيرتها من جديد .

لذلك نرى الادب يهيم ، منذ كان ادب ، فـي الحياة ، بعضه "غـرّا" "لعوبا" ، لاهيا عن كل ما من شأنه الحض على التفكير الجدى ، وبعضه لا بسا ثـوب حداده على ما يشاهد فـي الحياة من مستدعيات الاسى ، وبعضه مفلسفا الامور معللا ، وبعضه حاضا على السعي وراء حياة ~~سعيدة~~، حياة فضلى ..

اما الانسان ، ابن الحياة ، فانه لم يلق دائما فـي "الاداب" الناجمـة عن الاوضاع السالف ذكرها ما يحقق آماله ، وما يعبّر عن خلجاته ، او ما يرسم له صورة صادقة فـي صراعه مع البؤس والظلم . ولكنّ لكل من هذه "الاداب" مقوماته ونظرياته ، فما تلبث هذه المقومات والنظريات ان تتشبث بك كلما حاولت ان تطرح "اللماذا" حول نقاط معينة . فاذا ما اتهمت الرمزيين بالابتعاد عن الانسان انتهروك قائلين : "ويحك! اليست الرمزية تعبيرا عن حالة من حالات اللاوعي ؟ اوليست حالات اللاوعي حالات ملازمـة للطبيعة الانسانية ؟ اذا ليست الرمزية سوى تعبير عن الطبيعة الانسانية !" واذا مـا اخذت على الطبيعيين لجوءهم الى الطبيعة وبعدهم ا عن الانسان قالوا : "وبعـد ، اليست الطبيعة ، بداجنها ووحشها ، بواضحها وغامضها ، صورة حية للانسان ؟ اننا فـي وصفنا هجرة قطعت نصف اليد التي احتزت الشجرة بالفأس ، والرأس الذى حرّك اليد . ومتى تكلمنا عن الادغال التي تعج بالضوارى والجوارح عرّضنا بضعف الانسان امـام الطبيعة احيانا ، وقصوره عن ولوج مخبآتها ." واذا اعترضت غزلا فـي نشوته فانه يتابـع كلامه مرددا : "ما الانسان ؟ ان هو الا شمعة تذيبها نيران الحب ... وما اعذبهـا نيرانا !" اما اذا اتفق ان سألت شاعر خمرة عن المعنى الانساني فـي شعره ، ترنّـح ، وابتسم تلك الابتسامة التي لا يرتسم مثلها الا على شفاه اسرى المدام ، واجابك : "مـا العيش الا سكرة بعد سكرة ..."

اما الشعب ، وهو مجموع اناس، تربطهم صيرورة واحدة واماني متقاربة ، فان الاداب القديمة لم تكرّس له الا القليل . ولا نرى الامر غجيبا متى ادركنا الاطار الارستوقراطي الاقطاعي الذى ارتسمت في دائرته مجتمعات العصور السالفة . فالسيد مقتنع بشرعية سيادته ، والعبد يألف الصغار وكأنه جزء متمم لحياته . ولكن العصور المتأخرة ، عصور الثورات الانكليزية والاميركية والفرنسية والروسية ، قد اشرقت على الناس باشعاع جديد لم يألفوه قديما : اشعاع تلك الجماهير التي يقول فيها عمر فاخوري : "ونخال ان اغلبية هذه الفئة من الذين سموا او يسمون انفسهم "الخاصة" قد فتحت ابصارها على ذلك المشهد، مشهد تقدم الجماهير حتى تسد الافق ، بشيء من الذعر وكثير من الدهشة ، ولكن لن يلبث الذعر حتى يغطي على الدهشة ."

واذا كان الادب القديم قد اتجه الى ملازمة الابواب تكسبا في غالب الاحيان ،او الى التكلم عن نفسه اوعن قبيلته دون ان يرسل تلك النظرات الانسانية الشاملة ، فان مورد الاديب المعاصر ليس في الدور او القصور ، او في كنف اسياد القبائل ، بل في المكتبات ، ورواد ها غالبا من ابناء الطبقات الفقيرة او الوسطى . اضف الى العامل المادى عاملا معنويا خطيرا، وهو شعور بعض الادباء بمسؤوليتهم تجاه شعبهم ومجتمعهم بعد تعاظمهما اثر الحوادث المختلفة التي كوّنت لهما في صلب الحياة كيانا مرموقا . لذلك نرى الادب الحديث يميل غالبا الى الشعب، يتكلم بلسانه ، ويصور حياته . ولكن هذا الاتجاه الشعبي لم ينتصر في بعض الاماكن دون قتال دام بين القديم والجديد ،الا انه ،وان كان قد انتصر في ناحية ، ما يزال في نواح اخرى يرسف تحت ضربات المقلّدين ، فيحاول للافلات جهده ، وفي كل محاولة له وثبة الى الامام. وقبل ان اناقش تطور النظريات الادبية في العصر الحديث يجدر بي ان اثبت هذه النظرة العامة لانيس المقدسي (١) : "كان الادب القديم عموما يعيش في كنف الملوك والامراء او من يتصل بهم من ارباب الثروة والجاه . وظل الادب كذلك حتى اواخر القرن الماضي ومطلع القرن الحاضر ... اما الشعب فلم يكن ذا منزلة كبيرة عنده ، اذ كان الملك او الامير محور الحياة السياسية والاجتماعية وعليه لا على الجمهور كان يتوقف رواج البضائع الادبية . فهو يغدق العطايا على الشاعر او الكاتب ، وله كانت تصنّف الكتب وتنظم القصائد ... فالشعب اليوم قوة لا يستهان بها، وهو عند التحقيق

---

(١) انيس المقدسي — جزء ٢ — ص ٥ — ٦

معتمد الادب الاكبر ومصدر نشاطه الاغزر . ومهما يكن نفوذ ذوى السلطة فيه فان الجمهور هو الذى يغذيه ."

ولا بد لـي من العودة قليلا الى الوراء ، الى اواخر القرن التاسع عشر ، حيث نجد ان النزعة السائدة كانت نزعة واقعية ، تطورت وتطورت حتى اصبحت نزعة شعبية . بعد انتشار الالة وتطور الصناعة واحتكاك الناس بالمادة ، نشأت في النفوس موجة جرفت اصحابها الى آراء جديدة في الفن والادب : فبينما كان الادب رومنطيقيا مع لامرتين وهوغو ودو فينيي ، رأينا التيار الجديد يميل نحو الملموس ، نحو الواقعية . لذلك راح الكتاب يصورون محيطهم كما يرونه ، ولكنهم كانوا غالبا آلات تسيّرها " حتمية الموضوع والواقع . يقول اميل زولا احد ممثلي هذه النزعة الجديدة ١) : "ان الروائي مكوّن من ملاحظ ومجرب . فالملاحظ يعرض الحقائق كما خبرها ، ويضع نقطة الانطلاق ، ويمهد الميدان الذى عليه يسير ابطال الرواية وتتطور حوادثها . ثم يظهر المجرب فيبدأ بتجربته ، اعني انه يحرك ابطاله في قصة خاصة يدل فيها على ان التتابع في الاحداث سيكون بالطريقة التي تتطلبها حتمية العناصر الموضوعة تحت الدرس ."

وقد امعن البعض في الواقعية حتى غرقوا في نزعة خلاعية هي ، والحق يقال ، واقعية ، ولكن لا يليق بالادب ان يتلهى بها معرضا عن مشاكل الحياة العميقة . وهكذا ثارت الضجة حول كتاب فلوبير "مدام بوفارى" واحيل المؤلف الى المحاكمة . ومع ان المحكمة قد برأت ساحة الكاتب ، الا انها وجهت اليه لوما قاسيا تقول فيه ٢) : "ان مهمة الادب هي في ان يزين العقل ويخلقه خلقا جديدا برفع دعائم الذكاء وبتطهير العادات ، لا في عرض "قرف" الاثم بعرض لوحة للمفاسد الاجتماعية ... ان اتّباع مثل هذا النمط الاخير يقود الى واقعية هي ضد الجميل والحسن ..."

ولئن كان البعض كالوارد ذكرهم لا يهمهم الا التصوير الموضوعي دون ان يحرك تصويرهم شعور موجّه ، فان بعض الادباء ممن اخذوا بمبدأ الواقعية رسموا للواقع صورة صادقة ، وضمّنوها آلام الشعب الرازح تحت عبء الظلم . فلا يمر بك فصل لهؤلاء الكتاب الا وترى فيه صورة لعبد ذليل ، او صورة لمسلول لا يجد من يعنى به ، وصورة لبغيّ اتخذت البغاء موردا للارتزاق بعد ما ضاقت بها وبذويها آفاق الدنيا .

---

(١) Malet et Isaac - Histoire Contemporaine - P.P. 430-31

(٢) Malet et Isaac - P. 433

ولكن اولائك الادباء لا يكتفون بالتصوير ، بل طالما رأيناهم يسكبون «الاماني» على افواه ابطالهم ، فنشعر بما في الشعب من بساطة ، وبما فيه من طموح نحو الخير . ولكم انتصب الكتّاب واعظين ، مهاجمين الشر (١) .

وما لبثت النزعة الواقعية ان تشعبت في طريقين : طريق اردفت بالواقعية الجامدة نزعة انسانية حية ، فاتجهت نحو الشعب ، وطريق امعن الادباء فيها فاصبحوا وكتاباتهم خلاعة سافرة ، وافكارهم احتقار للانسان ، ونظرياتهم لا تؤدى الى تحسين الاحوال بل لتزيد الفساد فسادا . ومن هنا تفرعت نظرية "الفن للفن" : فالخلاعة اصبحت فنا ، والبرج العاجي اصبح فنا ، والرمزية اصبحت فنا .

انظر الى هذه النظرية التي بشر بها الاخوان سرابيون في روسيا مدة . يقولون (٢) : "لسنا نرتضي الاخذ بمبدأ النفع . لسنا نكتب دعاية . الفن حقيقي كالحياة نفسها . وكالحياة لا غاية للفن ولا مغزى . يوجد الفن لانه لا بد له من الوجود ." فهل ينتظر من هذه النظرية ان تثمر خيرا وجميلا ؟ ان من آمن بان الحياة سائرة على غير هدى ، لا مغزى لها ولا غاية ، جدير بان يأتي في ادبه ، وهو بالتالي بلا غاية ولا مغزى ، بالشنيع من الافكار والخسيس من المآرب .

ولما تفشت هذه النظريات عندنا قام في الادباء جماعة من الذين فتحوا اعينهم على الحياة الحقيقية ، الحياة التي لها مغزى ، والتي لها غاية ، مغزى وغاية يسيّرانها نحو الكمال المنشود والسعادة المنشودة ، نحو الجميل والخيّر في كل شيء : في البيت الذى نسكنه ، والكلام الذى نتفوه به ، والطبيعة التي نعيش فيها ، والحب الذى تعلق به آمالنا ، والعلاقات التي تربطنا بقوم تعانقت قسمتنا وقسمتهم . ولم يسع اولئك الادباء المبصرين الا ان يدركوا سحق الهوة التي نسقط فيها اذا اخذتنا يوما البدع المشار اليها ، فهبوا يكيلون لاصحابها مفحم الحجج . يقول عمر فاخوري (٣) :

" لا نجد مندوحة عن التذكير بان اشد الادباء والمفتنين تشيعا لمذهب العزلة او لنظرية "الفن للفن" واعلاهم صوتا في الجهر بها والدعوة اليها ، كانوا يعلنون على رؤوس الاشهاد انهم لا ينظمون ولا ينثرون ولا يصورون ولا يلحنون من اجل هذا الجمهور المسكين الذى كتب عليه ان يعايشهم ويعاصرهم ، دون ان يقدّر له ان يفهمهم او يعجب بـ

---

(١) تولستوى مثلا في كتابه "البعث" ، ودوستويفسكي ، وغيرهما ...

(٢) جدانوف — ان الادب كان مسؤولا — ص ٤٧

(٣) عمر فاخورى — لا هوادة — ص ٢٧ .

بروائعهم . ثم لا يلبثون حتى يعلقوا الامال العريضة على الاجيال الاتية. فهم اذن يستبدلون جمهورا بجمهور ، او قراء سيأتون بقراء ذاهبين ، وكأنها حوالة يسحبونها على المستقبل . واذن ، لا غنى للفرد ، مهما تفرد ، عن المجتمع باية حال . وقد ورد في مقدمة الكتاب "درب الى القمة" الذى وضعته "رابطة الكتاب السوريين" ما يلي ، وهو ما ارادته الرابطة دستورا لها في ادبها (١) : "ان هدفنا هو ان نعمل للشعب لاننا منه ، ولان الفن الصحيح هو الفن الذى ينبع من حياة المجموعة . ان الاثار العظيمة الباقية هي الاثار التي غيرت وجة الحياة فاغنتها والبستها اشياء صالحة جديدة. لم يعد هناك - كما يقول بعضهم - من "فن للفن" ، ولا من زهر للزهر ، ان الفن هو للناس ، كما ان الزهر هي للعيون التي تراه والانوف التي تشمه ، والزهرة لا تكون جميلة الا اذا استطاعت ان تؤدى لي شيئا يتصل بذاتي وخدمة تحسن حياتي . نحن من القائلين بان الفن هو تعبير جميل عن الحياة ، ولكن التعبير لا يكون جميلا اذا لم يعبر عن الحياة الحقة ، حياة المجموعة ." وغير هذا كثير .

ويعبّر ايليا ابو ماضي عن علاقة الاديب بالقراء ، بالمجتمع ، بالشعب ، وذلك بكلام جميل زيّنه بالصور التي تضمنها . وقد صدّر بهذا الكلام ديوانه "الجداول" جاعلا منه سنّته في النظر الى الادب . يقول (٢) :

يا رفيقي ... انا لولا انت ما وقّعت لحنا
كنت في سرى لما كنت وحدى اتغنى
هذه اصداء روحي فلتكن روحك اذنا
ان تجد حسنا فخذه واطّرح ما ليس حسنا
ربما كنت غنيّا غير اني بك اغنى
ما لصوت اغلقت من دونه الاسماع معنى

فهو يؤمن اذا بان لا ادب بلا قرّاء يصغون الى اصداء نفس الاديب ، وبان الاديب ، حينما يكتب ، انما يكتب ليقرأ ، يكتب وفي قلبه من صور القراء حافز له . ثم ينتقل الى نظرية "النفع" ، فيعلن ايمانه بان النفع امر واقع في الحياة ، وبان حكم

---

(١) رابطة الكتاب السوريين - درب الى القمة - ص. ٦ - ٧

(٢) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص. ٤

الانسان على الشيء انما يكون من خلال شعوره بنفعه او عدمه ... يقول (١):

كل نجم لا اهتداء به لا ابالي لاح او غربا
كل نهر لا ارتواء به لا ابالي سال او نضبا
ان صدقا لا احسبه هو شيء يشبه الكذبا

فما اصدق هذه النظرية تطبق على الادب!

اما الرمزيون اولئك الذين يتسترون وراء الغموض، فانهم تعرضوا لهجمات الكثيرين. لقد غابوا في نشوة الكلمة، في نشوة الرنة، واغفلوا المعنى، ومثلهم في ذلك كمثل تلك الحية التي ترقص على انغام ناى الساحر: انها تميل هائلة بمنظرها البشع، وما ان تخرس الانغام حتى تعود الحية حية، فيسرع الساحر الى دفع رأسها تحت غطاء سلته. هكذا هؤلاء: انهم يتمايلون مع نغم في كلمهم، ولكنهم ما يلبثون، عند زوال السحر، ان يرجعوا الى حقيقتهم العارية، حقيقتهم الفارغة الا من الكلام. يقول الياس ابو شبكة في اولئك الشعراء والادباء (٢): ونحن لا ندرى اى مبرر لهذا الغموض في شعرنا، ولا يسعنا الا ان نأسف لتلك الغارة الاجنبية على صعيدنا الادبي وتلك السيطرة على خيال الجيل الجديد. ومما لا اشك فيه ان اعجاب المتهوسين ببعض شعرائنا المستصدرين يعكر على الناشئة سلامة تفكيرها، ويمنعها من الوصول بقدم رشيقة نشيطة الى الافق السنى والوضوح ... وليس الغموض لزاما للايجاز كما يخيل الى بعضهم. فالكاتب البليغ يلزم الايجاز في التعبير والوضوح في المعنى معا، وقد يرمز من غير ان يبهم ... ويؤسفنا ان نرى بعض الشعراء ممن يدّعون السير على غرار ملارمه وفرلين وفاليرى يطلقون خيالهم في دياميس لا يرون فيها شيئا ويتشبثون في التعبير عما لا يرون ولا يفهمون، ويحاولون اقناعنا بانهم انما يعبرون عن شيء يحسونه في اقصى نفوسهم ولا يستطاع ابرازه واضحا صافيا. فالذى يحسونه في اقصى نفوسهم شيء كامن في نفوسهم، ولكنهم لم يؤتوا قوة الغوص الى اعماق هذه النفوس ليروا هذا الشيء. وقد يسمعون اصواتا صادرة عن اعماق كيانهم ولكنهم لا يفهمونها. وليس هذا دليلا على ان هذه الاصوات لا يستوى لها معنى، فجوهر النفس صاف ولغة النفس واضحة، غير ان ما

---

(١) ايليا ابو ماضي — الجداول — ص. ١٥

(٢) الياس ابو شبكة — روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب — ص. ١٣٨ — ١٤١

يحيط بهذه اللغة من الطفيليات الناشئة عن ضعف ما في الجهاز البشري يخرجها خليطا من التشويش والابهام .»

واذا كان الرمزيون يقولون انهم لا يضحّون بالمعنى على حساب اللفظ، ويدّعون بان كلامهم ليس خلوا من المعنى ، فان ثمة فئة من «الكلاميين» آمنت بادب اللفظة الى درجة اصبحت فيها لا تختلف عن ادباء الانحطاط الا بتأخر عهدها ! كلام مرصوف تجهد الفكر لفهم المراد منه ، واذا لاحت لك بارقة امل هنيهة ، فان هذه البارقة ما تلبث ان تضمحل لتتركك في جهلك وتساؤلك ، واذا انت بين كلام لا يعدو كونه كلاما فحسب !

اذا هنالك ادبان : من جهة ادب واع يسعى وراء الحياة ، ومن جهة اخرى ادب قاتم ينزوي في زنزانة لا هواء فيها ولا نور ، فتفوح العفونة كلما حاول في الناس نطقا . ويقابل الشاعر المهجري نعمة الحاج بين هذين الادبين بقوله ١) :

يا شاعر اللفظ هذا الثوب موضته	من خمسمائة بعد الالف قد درجت
هذي البضاعة امست غير صالحة	في عصرنا فهي من طول المدى فسدت
لا تقض عمرك خلف الباب منزويا	اخرج الى النور ان الشمس قد طلعت
فسائل النفس ماذا نافعا علمت	والكف ماذا جميلا للورى عملت ؟

بعدما هاجم الكثيرون مقاييس «الفن للفن» ، وقرروا ان الادب لا يمكن ان يعيش على هامش الحياة ، نراهم يحددون موقف الادب من الشعب . ولكنهم ، قبل تحديد هذا الموقف، آمنوا بحقيقة ثانية ، وهي ان للادب وظيفة فعّالة . يقول نعمه قازان في هذا الصدد ٢) : «فالادب اذاً ، ادبي ، كل زرع مثمر في هذا الحقل ، وكل نور ولو ضئيلا ، يضيء في هذا الطريق . والاديب ، اديبي ، كل من يدلني على الطريق ويسير امامي .» ويحدثنا عمر فاخوري عن وظيفة الادب فيقول ٣) : «فلو نحن طالبنا الاديب بان ينزل الى «السوق» حينا بعد حين ، في غير حاجاته المعاشية ، فقد طالبناه اذا بان ينظر ويعرف ، ويعقل ويشعر ، وينفعل ويتحمس ، فتدخل — ويا للمصيبة — هذه العناصر جميعا في مادة ادبه وليس بعد ذلك — ويا للفضيحة — الا ان نلزمه القيام بعمل اجتماعي ، بينما هو يؤثر الاعتزال في برجه العاجي ، في تفرد حصين : لا اذن تسمع ، ولا عين تدمع .»

---

(١) نعمة الحاج — ديوان — ص . ٤٧

(٢) نعمة قازان — معلقة الارز — ص . ١٢ ٣) عمر فاخوري — اديب في السوق — ص . ٥٥

"رسالة الاديب ! لقد الانبياء وحدهم فيما غبر من القرون ذوى رسالة . فاذا كل من عليها اليوم وله رسالة : الطبيب والمعلم والصحافي والمحامي ، ويتبعهم الاديب . حلّة مبهرجة لستر الفاقة . . حبذا لو ان هؤلاء الرسل يقلون من التبجح برسالاتهم اقل كثيرا ويكثرون من اداء وظائفهم اكثر قليلا . . ."

ولكن على ماذا تقوم وظيفة الاديب ؟ انها تقوم في الدرجة الاولى ، على ان يساهم الاديب او الشاعر في حياة قومه ، يتألم لالمهم ويفرح لفرحهم ، ويرفع صوته بالنيابة عن اصواتهم . فالمجتمع العربي كان منذ مطلع النهضة ، وقبل النهضة بكثير ، وما يزال ، في حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية والادبية ، وهذا المجتمع ، بالتالي ، بحاجة ماسة الى اقلام متمتعة بالعافية تصلح ما فسد وتسير بالشعب مع الشعب ، الى المقصد الشريف . اما اذا اخذ البعض على هذا الادب تدخله في السياسة ، فانه يجيب بان الاديب انسان يعيش في وطن ومجتمع ، لذلك وجب عليه ان يساهم — كما يساهم غيره — في سياسة بيئته . وهل اشرف للاديب من التدخل في بعض "السياسات" ، كالوطنية والانسانية ومكافحة الاوبئة الاجتماعية؟ يجيب القروى عائبي الادب السياسي بقوله ١) : "ولقد يقول الناقدون : ما شأن السياسة في الشعر؟ ان الشعر لارفع من هذه الاباطيل . انه تنكّب عن اغراض الدنيا واعراض عن سفاسف الحياة وتلفّس للمثل الاعلى . ثم يقولون من ناحية اخرى : ان الشعر الحقيقي ما مثّل الحياة اكمل تمثيل ، والشاعر العظيم هو صورة محيطه الناطقة . هو دليل امته الذى يتقدمها كعمود النور في ليالي محنتها ، رافعا لواء الحق . هو بشيرها في الشدة ينعشها بالرجاء ، ونذيرها في الرخاء يقيها مزالق البطر . فنقول لحضرة الناقدين : انّا اذا واياكم لجد متفقين ، ولا خلاف بيننا الا ان ما نسميه نحن وطنية اخطأتم انتم فدعوتموه سياسة . اننا جاهرنا بالحرية ونادينا بالاستقلال وطالبنا بالحق ونشدنا العدل . والحرية والحق والعدل ليست من اباطيل الحياة كما تزعمون ولكنها من اشرف مبادئها وانبل غاياتها ."

وساحاول الان ان استجلي نظرات الادباء والشعراء اللبنانيين الى الشعب ، بعد ما قرر الكثيرون "النزول الى السوق" ، او ، على الاقل ، السير مع الشعب شطحة من طريقه .

ان اول ما يطالعنا في درس الادب اللبناني ، هو تلك النقمة على الشعب الذى رضي بالهوان مئات السنين دون ان يكسر النير . ولكن هذه النقمة نقمة

---

(١) القروى — مقدمة الاعاصير — ص . ٩ — ١٠

محبّة لانها لا ترمي الا الى الاصلاح ، ذلك ان اصحابها من الادباء مؤمنون بما يكمن في الشعب من قوة قادرة على تحطيم الفساد والشر ، ولكنهم يرون ان الشعب مقصر في تقدير قوته . وهذا لا يمنع اصحاب هذه النقمة من ان يكونوا مخطئين احيانا في طرحهم الاخطاء "كلها" على اكتاف الشعب .

افتتح السلسلة بالقروى . ان هذا الشاعر يطلق ضحكة ساخرة ملؤها المرارة اذ يرى ابناء وطنه ينامون على الضيم . فهو لا يدع فرصة مناسبة تفوته دون ان يغمز من قناة مواطنيه . ففي وصف سمكة يقول ١) :

لم تؤذ الا جنسها فكأنها   سورية رضعت حليب تفرق

وفيّ كلامه عن وقوفه بباب الله يقول معرّضا بجنوح اهل بلاده عن الادب ٢) :

وقفت بذلة فيه كأنـــي   ابيع بباب سورى كتابا !

ولكن السخرية ما تلبث ان تنقلب نقمة جامحة فيقول ٣) :

امدوّن التاريخ مرحمة ولا   تذكرلهم لبنتان في صفحاته
لا تمح رسم المجد من تاريخه   يكفيه عيب بنيه في آياته
لا تخبرالاحفاد ان جدودهم   لم يشهروا سيفا بوجه عداته !

وغير هذا كثير في "القرويات" وغيره ٤) .

ومثل القروى امين ناصر الدين الذى ينقم على الشعب الذى استكان للمستعمرين حتى جاع ومات ٥) :

فيا لك ارضا انبتت كل خانع   تثاقل حتى ليس يطّلب الرزقا
ويا لك شعبا ما احاط بوصفه   من اللفظ الا "ما اذل" و "ما اشقى"
ويا لك شعبا جوّعته عصابة   واخنت عليه وهو لم يستطع نطقا

ومثل هذين مسعود سماحه الذى يقول ناعيا على امته خنوعها ٦) :

بلد يموت وامة تتألـم   والدهر بينهما اصم ابكم

---

(١) القروى — القرويات — ص . ٣٥

(٢) القروى — القرويات — ص . ١١٧

(٣) القروى — الاغاصير — ص . ٥١

(٤) راجع : القرويات — ص ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ...

(٥) امين ناصرالدين — الالهام — ص . ١٠٦ (٦) مسعود سماحه — ديوان — ٢٠

حلت بسوريا الخطوب عظيمة   واجتاح لبنان القضاء المبرم
مشت القرون وكل شعب قد مشى   معها وقومك واقفون ونـوّم
تخذوا الشقاق دليلهم فتفرقوا   والجهل كان عميدهم فتقسّموا
يا ويح ارض تحت ظل لوائها   عيسيّها يشقى ويشقى المسلم

اما مطران فانه يعلم حق العلم ان الظلم ظلم لان "كل قوم خالقو نيرونهم". فالشعب الذليل يعلم الظالم الظلم. انه يفتتح قصيدته في نيرون بقوله ١)

ذلك الشعب الذى آتاه نصرا   هو بالسبة من نيرون احرى

ويختتمها بقوله :

كل قوم خالقو نـيرونهم   قيصر قيل له ام قيل كسرى

ويردد الفكرة نفسها في قصيدته "مقتل بزرجمهر" حيث يقول ٢) :

هم حكموه فاستبد تحكما   وهم ارادوا ان يصول فصالا
واذا رأيت الموج يسغل بعضه   الفيت تاليه طغـى وتعالى

هذه هي النغمة العامة التي تطرق اسماعنا في ادبنا اللبناني الشعبي. ولهذه النغمة، من جهة، مبرراتها، لانها تنطلق من قلوب اضناها اليأس فوقفت تنتظر الفرج فلا تراه، فاذا بها تنقض على لمن اعتبرته مسؤولا عن التقصير: الشعب. ولكن ثمة ادبا غير هذا، ادبا آمن بصلاح الشعب وبقوته، آمن بان الشعب دائما في عالم الطليعة. وهذا الادب ظهر بنوع خاص في زمن قريب، واكثره منتشر في الصحف. واذا كان لي من كلمة اضيفها الى الموضوع، فهي ان الاديب، سواء نقم على الشعب ام لم ينقم، قد بدأ يحس بمسؤوليته كمواطن وانسان، ولولا ذلك لما اتجه الى الشعب يمدحه تارة وينحي عليه باللائمة طورا. ولكن هنالك فئة ما تزال تتخذ من الندب والبكاء وسيلة لاظهار الاسى بدلا من التسلح بالقوة والارادة والتوجّيه. ولا يخفى ان هذه الفئة قد افلست، لان الامة الساعية الى النهوض تتطلب عكس ما يعرضه ادب البكاء عليها من بضائع. وقد عبر الريحاني عن رأى الشعب بالادب الباكي بقوله ٣) : "ونحن

---

(١) خليل مطران — ص.
(٢) خليل مطران — جزء ١ — ص. ١٢٠ — ١٢٣
(٣) امين الريحاني — انتم الشعراء — ص. ٨٠ — ٨١

نتحاور ونتجادل في الادب الباكي والادب الثائر وايهما انفع لنا . والله لو كان حالنا حال غيرنا من الامم المستضعفة لما اختلف في المشكلة اثنان . وهل في مثل حالنا يجوز البحث في ما اذا كان الشعر المبكي والاغاني المحزنة اعظم فنيا من تلك التي تحرك في النفس الخفة والطرب ؟ وهلا يكفي ان اقول لكم ان النخاس يحب في عبيده الشعور الرقيق والاحساس اللطيف ؟ "

اما وقد طاف الادب في الميدان فانه قد لمح الشعب كتلة قوية لا يمكن اهمالها . ولكنه لمح غير هذه الكتلة ككتلة : لمح المجتمع بكل ما فيه من عورات تستدعي الاصلاح ، ولمح الانسان يتخبط في دنياه بين الخير والشر ، بين السعادة والشقاء ، بين الامل الضائع والامل المنشود . وعند ذاك خاض الغمار على نطاق اوسع فخلف لنا اتجاهين ، اجتماعيا وانسانيا ، هما من ابرز اتجاهات الادب اللبناني الحديث . وساعود اليهما في الفصلين التاليين .

المسرح قوام المسرح الشعب . من تشجيعه يستمد النشاط ، ومن يده وقلبه يستمد الحياة . فلا عجب اذا اتجه المسرح ، فطريا ، الى ما يرضي الناس ويجعلهم يدأبون على الاتصال به . وهل يرضي الناس ويستميلهم الا ما هو متصل بكيانهم اشد الاتصال ، الا ما هو معبر عن نزعاتهم واهوائهم ، الا ما فيه دواء للمعضلات الاجتماعية والاخلاقية والسياسية التي يتخبطون فيها ؟ ان المرء يترنم عندما يشاهد في المسرحية مشهدا يمثّل مظهرا من مظاهر الحياة التي تحيط به ! وهو يشعر بالخيبة امام فصل مصطنع متكلف لا يمثل الحياة في شيء . انه يحب ان يرى امامه نماذج من حياته ومن حياة جدوده ، ومن حياة جيرانه ، وهو كذلك يحب ان يرى صورا من الحياة التي يحلم بها ، الحياة الفاضلة الشريفة السعيدة .

واذا كان المسرح في بلاد الغرب قد قام بدور فعّال في تثقيف الناس بتمجيد الحسن وتقويم المعوج وطعن الخبيث ، فان المسرح العربي حذا حذوه لانه منه نهل اول نهلة ، وعلى هديه شق طريقه ، فرأى الشعب فيه صورة له ولمجتمعه . والروايات التمثيلية التي عرفها المسرح العربي مستقاة من التاريخ العربي والتاريخ العام ، وهي كذلك تمثل المظاهر الاخلاقية والاجتماعية بصورة انتقادية تحمل الناس على التفكير بتصرفاتهم والحكم عليها في قرارة نفوسهم . كما انها تمثل الشهامة والبطولة وكل ما في

النفس الانسانية من صفات سامية • فلا بدع اذا اذا الحقت هذا الفصل الصغير بالاتجاه الشعبي ، فهو ابعد ما يكون عن الانزواء والتعالي ، واقرب ما يكون الى الاتصال بالناس ، باكبر عدد ممكن من الناس ، بالشعب •

يقول انيس المقدسي ١) : "وما يقال عن الرواية يقال عن المسرحية • فهي ايضا من ثمار هذه النهضة لم يعرفها ادبنا القديم • وبذلك يصرح احد المعروفين بهذا الفن اذ يقول : ان هذا الفن دخل الينا فيما دخل من الوان الثقافة الغربية حينما اخذت بصائرنا تتفتح على اوروبا تنتحل من فنونها وادبها بحكم ذلك الاتصال الاجتماعي والثقافي الذى ازداد توثقا منذ اوائل القرن الماضي •"

هذه حقيقة راهنة • فالادب العربي القديم لم يعرف المسرحية ٢) ، لاسباب ليس هنا لذكرها مجال • ولولا الاحتكاك العربي الغربي لما تيسر لنا ان نعرف هذا الفن معرفة صادقة • ويبدو ان لبنان سبّاق دائما الى اقتباس الخيّر من محصول الغرب الادبي ، فقد سارع الى المسرح يرشف منه روايات واساليب وطرقا ، واول لبناني ادخل هذا الفن الى البلاد هو مارون النقاش المولود سنة ١٨١٧ والمتوفى سنة ١٨٥٥ ٣) • وقد ساعد النقاش على انشاء المسرح العربي انه كان ، بحكم اعماله التجارية ، يضطر الى التجوال في اوروبا ، فشاهد روائع التمثيل فيها وعلق في نفسه منها ذكريات حلوة ، حتى اذا عاد الى لبنان راح يسعى ، في حلقة من اصدقائه ، الى بث الروح المسرحية والفن المسرحي ، فوفق بعد جهد الى ان يمثل رواية اقتبسها عن "البخيل" لموليير ، وذلك في منزله سنة ١٨٤٨ ، وحضرها قناصل الدول والاعيان • وما لبث ان انشأ مسرحا بجانب بيته •

يظهر لنا مما سبق ان اول رواية تمثيلية عرفها الادب العربي هي رواية "البخيل" التي نقلها النقاش ببعض التصرف • اما اول رواية شعرية موضوعة بالعربية فكانت "المروءة والوفاء" للشيخ خليل اليازجي ٤) ، وفيها يقول زيدان ٥) : "وقد شهدنا تمثيلها

---

(١) انيس المقدسي — جزء ٢ — ص • ١٦٣ (٢) راجع زيدان — جزء ٣ — ص • ١٢١

(٣) لمراجعة حياة النقاش : زيدان — ص • ١٣٠ — ١٣١ ، وحنا فاخوري — ص • ٩٢٠

(٤) زيدان — ص • ١٣٣ (٥) المصدر نفسه •

في بيروت سنة ١٨٧٨ ، وتمثيلها خطوة مهمة في التمثيل العربي . ويصفها المقدسي بقوله ١) : " هي رواية عربية الروح تدور على حادثة جاهلية حدثت لدى النعمان ملك الحيرة ، وذلك في يوم من ايام بؤسه . وهي تمثل قباحة الظلم وجمال الفضائل البدوية من مروءة ووفاء واكرام للضيف وحب شريف . "

وكان من الطبيعي ان يعيش المسرح العربي على موائد الغرب مدة . فقام الادباء يترجمون من روايات الغرب ، وكثيرا ما اخذوا عن الروايات الغربية مواضيعها بخطوطها الرئيسية ، ثم حوروها او طوروها حسب ما تقتضيه الاوضاع المحلية . ومن اشهر من عرب الروايات : اديب اسحاق معرب "اندروماك" ، والشيخ نجيب الحداد معرب "صلاح الدين" و "غرام وانتقام" و "شهداء الغرام" و "الفرسان الثلاثة" ٢) ، والياس فياض معرب "ماري تيدور" و "عواطف البنين" و "بين نارين" و "تبكيت الضمير" و "بائعة الخبز" و "مضحك الملك" و "نابليون" و "ليلة العرس" ٣) ، وشبلي ملاط معرب "شرف العائلة" و "الفرد الكبير ملك انكلترا" و "جاندرك" و "هرناني" ٤) ، وغيرهم ...

ولما انس الكتاب الى فنهم بعد ما اشبعوا مسرح الغرب درسا ونقلا وترجمة ، راحوا يؤلفون الروايات الشعرية والنثرية فكان منها للادباء المذكورين وللنقاش وغيرهم الشيء الكثير . بيد ان هذه المسرحيات ضربت في التاريخ اكثر ما ضربت ٥) ،

---

(١) المقدسي — جزء ٢ — ص. ١٧٥

(٢) انيس نصولي — ص. ١٣٥ . ويضيف عادل الغضبان قائمة اخرى باسماء روايات الحداد . راجع : عادل الغضبان — الشيخ نجيب الحداد — ص . ٢٩ (الهامش)

(٣) الياس فياض — ديوان

(٤) تامر وشبلي ملاط — ديوان — ص . ١٠٠

(٥) اليك عناوين بعض الروايات ، ومنها تستنتج مصدرها التاريخي :

ثارات العرب ، عمرو ابن عدي (للحداد) — ابو الحسن المغفل ، هارون الرشيد (للنقاش) — شعلة من الصحراء (لفريد مدور) — وهنالك كتاب "صحون ملونة" لرئيف خوري ، وهو عبارة عن اخبار من التاريخ العربي وضعت في قالب تمثيلي .

ولا يخفى ما للون التاريخي من اثر في اثارة هم الجماهير ، خصوصا ما كان منه ممثلا للبطولة العربية . بيد ان الانصراف الى التاريخ لا يؤمن رغبات الشعب كاملة ، ذلك ان في حياته مواضيع قيّمة للمسرح تأتي بمفعول سحري لو استغلها الادباء .

باستثناء عدد منها توجه الى تصوير الحياة الاجتماعية الشعبية ١) .

وقد اثار اهتمام الادباء والناس بالمسرح حركة تمثيلية مباركة في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . فاقبل الناس على الروايات اقبالا عجيبا ، حتى ان احداها درّت خلال ثلاث ليال ثلاثمئة ليرة ذهبا ٢) . ويقول الدكتور شاكر الخوري في وصف حفلات التمثيل يومذاك ٣) : "ولما مثلت (رواية الوردتين للمعلم عبد الله البستاني) كنت من الحاضرين ، وكان الشعراء يقرظونها عقب كل فصل ، وكثر المقرظون حتى لم يبق وقت لاستماع الرواية ." ويصف الدكتور نقولا فياض حالة التمثيل قائلا ٤) : "اما الروايات التمثيلية فقد كان اشهرها ما مثل في مدرسة زاكي كوهين في الاشرفية . وقد كنت احضرها خلسة واحسد من يحمل بيده دعوة رسمية . وكانت العادة بعد كل الفصل الثاني او الثالث ان يقوم المقرظون من الحضور بين ناثر وناظم ، واشهر هؤلاء المقرظين سليم جدي . كان يحضر الروايات اوقات تلقينها للطلبة الممثلين ، فيأتي تقريظه على واقعة الحال مع ذكر الاسماء والادوار . وشعره من السهل الممتنع ، فيصيب استحسانا واعجابا ، حتى اذا انصرف القوم كان الحديث عن التقريظ والمقرظ اكثر مما هو عن الرواية ومؤلفها ، كما شكا لي ذلك فيما بعد سليم زاكي كوهين نفسه مؤلف تلك الروايات ." ولا بأس في ايراد نماذج من تقريظ سليم جدي . يقول في رواية "يوسف" لعبد الله البستاني ٥) :

ورواية عذراء قد لعبت بنا … لعب الشمول كما يقال واعظم
قد حاك بردتها اديب بارع … يسدي القريض من البديع ويلحم
لله در مشخصيها انهم … نظموا الوقائع كالعروض واحكموا
وغدا لسان الحال فيها منشدا … بمقام يوسف كل حسن ينظم

وقال في رواية "المقامر" لسليم زاكي كوهين :

---

(١) من هذه الروايات ، "كذبة يا ابي" لفريد مدور ، وهي تمثل الظلم ايام الاتراك ، و"ثورة بيدبا" لرئيف خوري ، وهي تمثل انتفاض الفيلسوف بيدبا برفقة الشعب على الملك الطاغية . وشعر ادباء الزجل ان الشعب يميل الى المسرح ، فكتبوا مسرحيات كثيرة اشهرها رواية "محسن الهزان" لرشيد نخله . وغيرها كثير . (راجع : منير وهيبه : الزجل) .

(٢) د. الدكتور فياض – ذكريات ادبية – ص ٦٣ (٣) الدكتور شاكر الخوري – ص . ٤٩٢

(٤) الدكتور نقولا فياض – ذكريات ادبية – ص ٤٨ (٥) سليم جدي – ديوان – ص . ٧٩

هذه ١) الرواية قد حوت بفصولها
حكما تروق بعين كل فهيم
لو كان يفهمها المقامر لاهتدى
عن غيه المكروه والمذموم
واذا انجلت مثل العروس بوشيها
حكم الجميع بحسن ذوق سليم ٢)

بيد ان حركة المسرح في ركود اليوم. وغريب ان يكبو المسرح الذى نهض تلك النهضة في القرن الماضي ، بدلا من ان يندفع الى امام بقوة متزايدة وعزم متجدد. ولكن الامر لا يبدو غريبا اذا وقفنا على الاحوال التي اعترضت سير المسرح.

اولا الموضوع. ذكرت ان المواضيع المطروقة كانت تاريخية واجتماعية ومترجمة. الا ان التاريخي والمترجم منها كان اكثر من الاجتماعي بكثير. وقد سر الناس بالروايات في اول عهدهم بالمسرح ، الا انهم اخذوا يشعرون بانهم يتوجهون الى المسرح ليشاهدوا صفات انسانية عامة واحوالا اجتماعية هم فيها ، لذلك اخذوا يملون المواقف البطولية والجمل البراقة والعظات النافرة والمظاهر الغريبة ،. فذوقهم كان في تطور في حين ان ادباء المسرح وقفوا من المسرح حيث هم ، وحيث كانوا عندما اسسه النقاش. يقول نعيمه ٣) :
"نحن لا نزال ننظر الى الممثل نظرنا الى "بهلوان" والى الممثلة كعاهرة ، والى التياترو كمقصف ، والى التمثيل كنوع من القصف واللهو. شعبنا لم يدرك بعد اهمية فن التمثيل في الحياة لانه لم ير بعد نفسه على المسرح. واللوم عامة على كتابنا لا على الشعب."

وهنالك التقاليد الى جانب الموضوع. فالمرأة محرومة غالبا من الظهور على الخشبة ، والرجل لا "يتنازل" خوفا من ان تلوك الالسن سمعته ٤) ، كأنه يأتي بالتمثيل امرا وضيعا ! اضف الى ذلك صعوبات من الناحية اللغوية ليس هنا مجال بحثها.

---

(١) الاصح : هذى (٢) سليم جدى — ديوان — ص. ٨٣
(٣) ميخائيل نعيمه — الاباء والبنون — ص. ٦٠ (٤) يقول الدكتور فياض في "ذكريات ادبية" : "ثم فكرت انه لا يليق بطبيب ان يمثل فتركت ذلك" (ص. ٦٣)

ولكن ... حتى متى سيبقى المسرح عندنا خاملا ؟ ان الجواب عسير، لان النهضة بالمسرح وقف على عوامل نفسية ومادية ، حتى توفرت فينا ،كان لنا كما لسوانا من الامم الراقية ، مسرح راق وكتاب مسرح مجلون . ولقد صدق نعيمه اذ قال ١) : "انا لا اشك قط في اننا سنرى عندنا ،عاجلا او آجلا، مسرحا وطنيا تمثل عليه مشاهد حياتنا القومية. انما يقتضي لذلك قبل كي شيء ، ان يحول كتابنا انظارهم الى الحياة التي تكر حولهم كل يوم ، الى حياتنا بعجرها وبجرها ،وافراحها واتراحها ، وجمالها وقباحتها ، وشرها وخيرها ، وان يجدوا فيها مواد اقلامهم ... وهي غنية بالمواد لو دروا كيف يبحثون عنها ."

ومتى غاص الادباء على الحياة ، هان امر اللغة ، واذلت صعوبة التقاليد ...

---

(١) ميخائيل نعيمه ــ الاباء والبنون ــ ص. ٦

(١) الاتجـــــاه الاجتماعـــــي

الاتجاه الاجتماعي في الادب يتضمن كل ما يتخلل حياة الانسان الشعبية والانسانية والفنية وغيرها . واذا اردنا ان نخوض بحثا في ادب المجتمع كله اضطررنا الى وقف الوقت الطويل له .

الا ان هنالك ظاهرة بارزة في الاتجاه الاجتماعي في ادبنا تستوقفنا ، الا وهي جنوح هذا الادب الى معالجة القضايا المستعصية التي حيّرت العقول منذ القدم، والتي انفق الكثيرون اوقاتهم وافكارهم ودماءهم في سبيل حلها . ومن اهم هذه القضايا مشكلة الفقر والغنى . فثمة مجتمعات تظهر فيها هذه المشكلة صارخة ، فاذا يغني فاحش الغنى يصول بسطوته ، وفقير قوته في الحياة ذل الطلب . ومن المعضلات الاجتماعية الفوارق التي تجعل من الاسياد طغمة متعالية ، تقابلها في الدرك الاسفل طبقة الخدم . وثمة امراض اجتماعية تفشت في كل عصر بلغ ابناؤه درجة من "التمدن" ، فراح خيالهم بعدها يستنبط المعاصي ، حتى عمت الفوضى الاخلاقية التي حوّلت قسما من الفتيات البريئات سلعا في سوق الاعراض ، والتي حولت فريقا من الشبان الى اغوال غدّارة تكمن لفريستها ولها من مالها انيابا ولا كالانياب ! اضف الى ذلك ما يتخبط فيه المجتمع من ظلم واجحاف وكبت وتسلط ، ترافقها محاولات للخلاص يقوم بها الناس حفظا للكرامة وصيانة للاخلاق . وقد خاض الاتجاه الاجتماعي هذه الميادين كلها ورسم لنا للمجتمع اللبناني بمختلف خطوطه صورة صادقة .

الغنى والفقر من ابرز من عني بهذه الناحية في القرن التاسع عشر نجيب الحداد .

لقد جال نجيب الحداد في مختلف الميادين التي يظهر فيها البؤس الاجتماعي ، فكتب عن الغني والفقير يقول ١) : "قل للغني المترف السارح في مراتع نعمائه ، الساحب ذيل الخيلاء على بني الانسان نظرائه ، قف هذا النظر الذاهب في السماء قليلا ، ومل بتلك النعمة التي تجر من فضول اثوابها ذيولا . على فقير يسأل منك رحمة ويسترحم منك سؤلا : ما ضر الغني الذى يتكبر على الفقير ، والموسر الذى

(١) نجيب الحداد — منتخبات — ص٠ ٩ — ١١

يحتقر العامل والاجير ، لو علم ان المذلة لا تكون في لبس الكتان والعظمة لا تأتي من وراء الحرير ، وان الفقير اشد لزوما منه في مجتمع الانسان ."

والفقير فقير بمجتمعه ، فقير باغنياء محيطه . فهو لولاه ولولاهم لما كان فقيرا ، ولولا بؤس الفقير لما اثرى الغني وبطر اثراؤه . وكم من فقير يقذف به الشقاء الى الجريمة (١) :

كم شقي يساق للاعدام   كان اولى برحمة الحكام
ولكم في القصور ناعم بال   وهو احرى بالنار ذات الضرام
قاتل النفس دونه قاتل الجسم فليس النفوس كالاجسام
ما لهذى الحبال تعفو عن العالي ويعلو بها وضيع المقام
ما سمعنا بانهم علقوا يوما غنيا بها ولا في المنام
افكل الانام اهل صلاح   ما خلا ذا الفقير بين الانام ؟
ان يق المال ربه الاثم فالفقر يجر الفقير للاثام
فاقتلوا الفقر ان عدلتم فان الفقر اصل البلا ورأس الخصام

* * *

ثم يولّي (٢) كانه لم يكن الا كطيف مضى مع الاحلام
وتراءى للناس فيه خطيب   صامت ناطق باسعى كلام
"يا ذوى المال انتم شركاء   لي ولكن بغير هذا الحمام
لو اردتم لما ارتكبت المعاصي   لو اردتم لكنت خدن سلام"

ضحايا البؤس الاجتماعي هنالك فئة من البائسات استرعت انتباه الادب . اعني بهن المومسات . فمن الادباء من اتخذ لهن الاعذار منيخا باللوم على الفساد الاجتماعي ، ومنهم من نظر اليهن نظره سوداء ضيقة ، فاذا بهن في نظره آلات فساد همها امتصاص الاموال والدماء . يقول نجيب الحداد (٣) : "الا اكره المرأة الباغية تدفعها يد الفقر الى البغاء . ولا الوم الفتاة الساقطة تطرحها عوامل الاحتياج في مطارح الفحشاء ، ولا احتقر الغريبة النازحة تلجئها كف الضرورة الى بيع

---

(١) الياس فياض — ص. ١٥ — ١٧

(٢) الفقير المشنوق .

(٣) نجيب الحداد — ص. ٩٥

العفة والحياء . ولا اثم بغايا الاسواق يجهرن بما يأتينه من المنكرات . فانما هـن مخلوقات انزلها الشقاء في منازل الذلة والهوان فلم تخف ما رمتها به الاقدار ولم تنكر ما اصابتها به طوارق الحدثان." ويقول في مكان آخر (١) : "المرأة البغي خليقة ساقطة دفعتها يد الفقر . ونفس كانت نقية طاهرة فزايلها العفاف والطهر ، وثمرة كان يرجى منها الصلاح والخير فافسدتها حوادث الدهر . بل هي ريشة حمامة بيضاء نثرتها عاصفة الايام ."

ولكن امين ناصر الدين يعتبر ان الباغية باغية لان الفحشاء تسرى في دمها ٢) :

افاتنة الاغرار انت شقاؤهم	وانت عدو للفضيلة ازرق
لبست ثمين الوشي من صلب ماله	وضمك قصر للدعارة مؤنق
وعلّق قلب بين جنبيك مظلم	فما غرحرا ان وجهك مشرق
وواليت ابليس الرجيم فحيثما	رقصت فابليس الرجيم يصفق
فلا جاوزت مغناك يوما صواعق	ولا جاده هام من المزن مغدق ٣)

والى جانب المومسات اللواتي اختلف الادباء والشعراء في النظر اليهن ، فئة من الفتيات والنساء اجمع حملة الاقلام تقريبا على اعتبارهن ضحايا بريئة لخداع المجتمع والفاسقين من ابنائه . هذه هي فئة اللواتي عمل التغرير والبؤس فيهن عمله ، فبتن بائسات

---

(١) نجيب الحداد — ص. ١٢٣

(٢) امين ناصر الدين — الالهام — ص. ١٠٩ — ١١١

(٣) ان الشاعر يرسل هذا الكلام مدفوعا بدافع التقاليد والعاطفة . وحبذا لو نظر ادباؤنا جميعا نظره اعمق الى هذا الموضوع الخطير ، اذا لادركوا ان المرأة التي تضطر الى المساومة على شرفها انما تفعل هذا مسيّرة بدوافع اقتصادية او اجتماعية لا بدافع الشهوة والفجور ، واذا لحاولوا الاصلاح ، ولبثّوا في الناس روحا غير الروح السائدة اليوم من احتقار اولئك البائسات ورميهنّ بشتى الاتهامات والشتائم . وانها لمهمة جليلة تقع على عاتق الاديب ، تلك التي تحتم عليه ان ينقي المجتمع من ادرانه بدلا من ان ينزلق احيانا مع العاطفة الى ما هو مناف للحق والصواب .

تاعسات في مجتمع يتنكر لمن قسا عليه . وقد ساهم ادباء لبنان حيث حلوا في وصف حالة البؤس الاخلاقي التي رسف بها البعض ، فتعالت اصواتهم في اميركا ومصر ولبنان منددة بالجور مطالبة بالانصاف .

واشهر اثر ادبي يمثل هذه النزعة صدر في لبنان قصيدة "الريال المزيف" لبشارة الخوري . تمثل القصيدة امرأة بائسة قست عليها الايام اذ نفت زوجها الى الحرب فتركتها وحيدة مع طفلة رضيع ، فباتت لا تعرف للقمة طعما ، حتى اضر بها البؤس وكاد يودي بحياة ابنتها ، فرأت ان تشترى بعرضها ما يقي ابنتها غائلة الموت . واذا بشاب يحوم حولها شرها لئيما ، واذا بها تمتنع عليه غير مرة ، وهي تقول في سرها (١) :

سام الفتى عرضي فيا لك من فتى ... كاسي الغنى عار من الاخلاق

هب ان اختك والزمان اصابها ... مثلي اصابت سافل الاعراق

افكان سرك ان ترى احسانه ... ثمن العفاف لضمة وعناق

ولكن المقاومة تنهار تحت وطأة الضائقة ، فينفح الفتى المسكينة ريالا ثمن العفاف السليب . وتسرع المرأة الى حانوت لتشترى به لطفلتها بعض الغذاء ، بيد ان الطباخ ادرك ان الريال مزيف ! فما كان من المرأة الا ان

سقطت على قدم الشقا فبكت لها ... عين العلى ومكارم الاخلاق

وبكى عفاف الانسات عفافها ... خلل السجوف بمدمع مهراق

وشبيهة بهذه الرواية — من حيث الروح — رواية اوردها خليل مطران في قصيدته "الجنين الشهيد" . ان موضوع القصيدتين واحد : الفقر وما يدفع اليه ، كما ان اشخاص الروايتين لا يختلفون الا قليلا : فالشاب الخليع يمثل دوره في كلتا القصيدتين ، والضحية ، وهي امرأة في القصيدة الاولى وفتاة في الثانية ، تنساق الى الهوة بدافع القرش . اما النتيجة فهي ان الفتى الخليع ينصرف عن ضحيته بعد ان يشبع منها بهيميته سعيا وراء ضحية جديدة يلقي في طريقها حبائله .

ولكن قصيدة مطران تنفرد عن الاولى بامرين : الاول هو ان اهل الفتاة قد ساهموا في شقائها وذلك بان دفعوا بها الى الحانات حيث راحت تشتغل وتستغل جمالها لتكسب بعض المال يتمتع به والدها ووالدتها . والثاني هو ان الضحية كانت

---

(١) مجلة الورود .

مزدوجة : عفاف الفتاة ، وروح بريئة ، لم تأت في الحياة ما يجعل الحياة تقسو عليها ، وهي روح الجنين الذى اضطرت الفتاة البائسة ان تودى بها خوفا على عرضها من ان يصبح مضغة في الافواه ١) .

اما مسعود سماحه فانه يصف لنا راقصة اتخذت من الرقص موردا للعيش. ولكن النتيجة ، هنا ايضا ، لم تكن سوى خداع وغدر ، وطفل ليس له اب ٢) :

تركت بيتها وفي الصدر منها زفرات وفي الحشا رمضاء
ورآها مثر تمثل يوما فسرت في عروقه كهرباء
فدعاها الى الشراب فلبت وهي لا تدرى ما يدير القضاء
جرعة بعد جرعة بعد اخرى سكرا بعدها وضاع الحياء

+ + +

نظرت نحو طفلها بحنو ودموع العينين منها دماء
ذكرت ربها فقالت : " الهي اشقاء ما حل بي ام جزاء
امن العدل ان تجازى فتاة خدعتها الوعود والازياء
وتفك الاغلال عن نغس وغد اسر الخبث قلبه والرياء؟"

ولكن البؤس لا يقتصر على النساء . فكم من شاب طوحت به ايدى الفساد الاجتماعي ، فاذا به يعمل جاهدا في سبيل الرغيف ، حتى اذا ما اضنى جسمه نشب به المرض ناهشا . ولوديع عقل قصيدة يصف بها مثل هذه الحال ، فيقول في شاب ٣) :

خانه الحظ باهل وحمى فانبرى يسعى فقيرا معدما
بائس ، لكنه ذو شمم رب بؤس لا ينافي الشمما
راح يشقى عاملا ، لا سائلا غير باريه يليه كرما
دق كالطيف هزالا فاذا مرت الريح عليه جثما
اجهد الجسم ولما ضاره نشب السل به مستحكما
عائثا في صدره يأكل من رئتيه شرها ملتهما

---

(١) خليل مطران — جزء ١ — ص. ٢٢٣ — ٢٤٥

(٢) مسعود سماحه — الديوان — ص. ١٠٠ — ١٠١

(٣) وديع عقل — الديوان — ص. ٧٠

ولم يقف الادباء والشعراء اللبنانيون امام مظاهر البؤس الافرادى فحسب ٠ فهنالك بؤس جماعي يصيب العائلات احيانا ، كذاك الذى اصاب تلك العائلة الاميركية يوم اعلن اتحاد اصحاب المناجم الاضراب كي يتحكم بالاسعار على هواه ٠ يصف الريحاني عائلة فقيرة تكاد تموت دنقا لان المحتكرين منعوا بيع الفحم ٠ يقول ١) : " بيت حقير صغير بارد قاتم ٠ لا نور فيه غير نور شمعة ضئيل وما يدخله من نور الكهرباء في الشارع ٠ ونحن الان في اقسى شتاء رآه الزمان ٠ امرأة فقيرة ترتعش من البرد بالقرب من سرير طفلها المريض وقد بعثت ابنها الى المخزن بآخر فلس معها ليبتاع رطلا من الفحم حبا بهذا الطفل الذى يموت بردا ٠ فعاد الولد سريعا ورمى السطل الفارغ الى الارض لاعنا شركات الفحم الاحتكارية ونافخا في يديه المرتجفتين ليدفئهما : " لافحم للبيع يا اماه ٠ لا فحم للبيع البتة ٠٠٠ " مات الطفل من الزمهرير ٠ مات لان الكانون بارد ٠ مات لان سطل الفحم فارغ ٠ مات لان قلوب اصحاب المعادن والتجار خالية من الرحمة والحنان ٠ "

الاحسان بؤس وشقاء ، بائسون واشقياء ٠٠٠ ولكن ما الدواء ؟ كيف يقضى على البؤس في مجتمع لم تقم دعائمه الا على الاثرة والتحكم ؟ وكيف السبيل الى تخفيف الوطء عن البائسين ، فنجعلهم يعيشون بيننا دون ان يشعروا بانهم يشكلون على صفحة الحياة هامشا لا تقع عليه عين الانسان الا اذا كان يبحث عن مكان يملأه سوادا ؟ هنا ، كما في غير مكان ، وقف الادباء فئات ، او بالاحرى فئتين كبيرتين بارزتين : فئة تقول بالاحسان وسيلة اخلاقية ودينية واجتماعية ناجعة في معالجة البؤس ، وفئة تذهب الى ان هذا الضرب من العلاج ليس سوى نوع من انواع المخدرات يعتاده المدمن : انه دواء ما يلبث ان يصبح داء ٠ وخير وسيلة في نظر هذه الفئة هي ان تقوم في العالم حكومات عادلة تمحو البؤس دون ان يكون لها على البائسين منّة ، ذلك لان من حقهم عليها ، وهي منهم ولهم ، ان ينالوا العناية التي تتطلبها انسانيتهم ٠

وهكذا انطلقت فئة من الادباء والشعراء تبشر بالاحسان وتدعو الى مشايعته ٠ واتخذت من الجمعيات بنوع خاص منابر تبث منها دعوتها ٠ وهنا ينقسم الداعون الى الاحسان فئتين : منهم من يتكلم عن الاحسان بصفة عامة ، طالبا الى الناس ان يجودوا على البائسين منهم بما يستر عوراتهم وبما يشبع نهمهم ، ومنهم من يحدد سبل

---

(١) امين الريحاني — الريحانيات — جزء ١ — ص ٠ ٦٨ — ٦٩

الاحسان فيأتي باقتراحات ايجابية في هذا الشأن ٠

من الفئة الاولى شعراء تقودهم العاطفة فتجعلهم يسترسلون في كلام كله اخلاص، ولكنه قلما يأتي بالعملي البنّاء ٠ يقول الياس فياض (١) :

ايها الناس انما الملك لله تعالى يعطيه من يشاء

كل في ايديكم من يديه واليه المعاد حتما قضاء

فابتغوا وجهه بصنع جميل ان صنع الجميل يرضي السماء

ويقول شبلي ملاط واصفا اللواتي يقمن بمشاريع خيرية (٢) :

حي الكرائم في عهد اعدن به ايام جعفر للدنيا وهارون

لهن في كل حال كل معجزة عصماء من معجزات العطف واللين

باللطف يأخذن من مال المقل كما يغرفن بالظرف من اهل الملايين ٠

ويقول خليل مطران (٣) :

جرحت اثخن جرح لكن قلبك مؤمن

فان اردت سلوا احسن، وما اسطعت احسن

ولم يكن ادب المهجر مقصرا في هذا المضمار ٠ فها ايليا ابو ماضي يدعو الى نصرة اليتيم البائس قائلا (٤) :

ان يك الموت قد مضى بابيه ما مضى بالشعور فيك وفيا

وشقاء يولّد الرفق فينا لهو الخير بالشقاء تزيا

فاعينوه كي يعيش وينمو ناعم البال في الحياة رضيا

حاربوا البؤس في الصغار صغيرا قبل ان يستبد فيهم قويا

وها القروى يصرف نساء الاحسان فيقول (٥) :

بكين مع الباكين حتى تألقت على عبرات البائس البسمات

فديت اليد البيضاء خاتمها الندى ودملجها المعروف والصدقات

تجود لها كف البخيل وتلتقي على كفها الاميال والنزعات

---

(١) الياس فياض — ديوان — ص٠ ٥٩

(٢) شبلي ملاط — ديوان — ص٠ ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) خليل مطران — جزء ٤ — ص٠ ٥١

(٤) ايليا ابو ماضي — الجداول — ص٠ ٥٠ — ٥١

(٥) القروى — القرويات — ص٠ ١٥

ومن الذين يتقدمون بمقترحات ايجابية في الاحسان اديب اسحاق . يقول اديب مطالبا بانشاء مدارس للفقراء ١) : "ومن لنا مع ذلك ان تتألف من وجهاء مدينتنا واغنيائها واهل العلم والنباهة فيها ، جمعية يكون القصد منها انشاء مدرسة كبيرة مجانية لاولاد الفقراء ، يقرأ فيها الذين لا شغل لهم لدالنهار كله ، والمشتغلون بشيء من الحوف ساعات معينة من النهار . ولا ضير ان تشترك البلدية في هذا المأخذ الادبي النافع."

اما الفئة التي لا تؤمن بان الاحسان – وحده – يكفي لاعانة التاعسين ، فعلى رأسها عمر فاخوري . يقول ٢) : "ان العناية بشأن اليتيم مادة وروحا ، تغذية وتربية ، تتصل اتصالا وثيقا بالمبادئ الادبية او الاخلاقية التي يزين بها مجتمعنا الحاضر ، مباهيا مفاخرا . وفي رأس تلك المبادئ مبدأ الخير او الاحسان او المعروف – اسماء متعددة لاسم لا يتعدد ." ثم يقول في مكان آخر ٣) : "ولكن هنالك حقيقة لا مندوحة عن الاشارة اليها ، وهي ان التوكل على مروءة اهل الخير والمعروف لم يقدم النوع الانساني مثيرا نحو الكمال الذى ننشده او نسير نحوه . بل ان قانونا واحدا يسن وينفذ ، لافضل من كل الخطب والمواعظ والشروح والحلول التي ينوء الضمير الانساني ~~الحقرى~~ بعبئها الثقيل ، منذ قام في الدنيا اول حكيم ، او اول واعظ ، او اول داع الى الخير . ترى ، متى نلج باب المدينة الفاضلة التي لايلهجون فيها بذكر اليتيم – حيث لا يتيم ؟"

التعصب والتساهل بينما كان التعصب يذوب تدريجيا في الغرب بتأثير الحركات العلمية المتصاعدة والرقي الاجتماعي الناجم عنها ، بقيت الطوائف المختلفة في الشرق – في الشرق العربي خاصة – تتطاحن في سبيل اللاشيء ، مدّعية انها تجاهد في سبيل مسيح او نبي . وثمة عوامل كثيرة جعلت من الشرق موطنا رحبا للمشاحنات الطائفية ، على رأسها تدخل الاجانب في شؤون البلاد ، متسلحين بالاعذار الدينية والسياسية المختلفة تنفيذا لرغبات المآرب الشنيعة . ولا يخفى ما كان للاحوال

---

(١) اديب اسحاق – ص. ٣٨٨

(٢) عمر فاخوري – اديب في السوق – ص. ٨٤

(٣) عمر فاخوري – اديب في السوق – ص. ٨٧

الاجتماعية السائدة في اعصر الظلام عندنا من اثر في دفع الناس الى التعلق بالتعصب.

وكما رأى الادباء والشعراء بثاقب نظرهم مفاسدنا الاجتماعية ، وعالجوها على ضوء مفاهيمهم ومقاييسهم ، ادركوا كذلك ان التعصب آفة تجر على البلاد وبالا ، وادركوا ان التساهل هو خير ما يقي الضعيف تجاوز القوى ، وهو بالتالي خير ما يؤمن للبلاد استقرارها وللناس تفاهمهم. يتكلم وليم كتسفليس بلسان خطيب سنة ٢٥٢٠ ، فيقول هازئا من المتعصبين ومن المتمسكين بقشور الاديان ١) : "اما كون ابناء اللغة العربية اكثر استسلاما للتقليد من معاصريهم فلاسباب كثيرة. اهمها تأثير الاديان عليهم. فالاديان كما كانوا يفهمونها في تلك الايام المحزنة كانت شديدة التحفظ لا ترتاح الى البحث وتحرّم الجدال. عدوة الاستقلال وحرية العقول. وقد رسخت تعاليمها المشوهة بالتفسير والتأويل في قلوب الشرقيين ونفوسهم رسوخ المرض العضال في الجسم النحيل. انما الفرق بينهم وبين المريض هو ان المريض يكره علته ويسعى للتخلص منها ، اما هم فكانوا شديدى التمسك بعلتهم يتعصبون لها ويناضلون من رام مداواتهم وابراءهم منها. ولذلك ولما كانت اديانهم مقلدة ومحافظة ، نشأوا على التقليد والخوف من كل جديد وان كان فيه التقدم والاصلاح ..."

ويعرض عمر فاخورى واقع الحال عندنا فيقول ٢) : "لقد اتى علينا زمن في لبنان ، وبين الطائفة والاخرى ، او بين ابناء دين وابناء دين آخر ، كالحدود التي تفصل وطنا عن وطن : كدنا نحتاج الى جوازات سفر بين الطوائف والاديان... ونحن على يقين من ان نظاما سياسيا ديموقراطيا صحيحا كفيل بان يمحو تلك الحدود الوهمية المخجلة ، والمؤذية لكثير من الاوهام... ولا خسارة في ذلك على احد ، اللهم الا على نفر قليل من المستثمرين الكسالى" واظن ان هؤلاء ليس يهمنا شأنهم... نحن بحاجة الى ما يؤلف ويجمع ، لا الى ما يفرق ويقطع : ان الوطنية تؤلف وتجمع... ان النظام السياسي الديموقراطي الصحيح يؤلف ويجمع. ان التقدم الاجتماعي يؤلف ويجمع."

ويرى نقولا فياض ان الطائفية تهدم كيان البلاد فيقول ٣) :

وطني يهدمه الشقاء ولا ارى ... كفا تطيح بمعول الهدام
الطائفية قطعت اوصالة ... وسياسة الاحزاب والارحام
لي في هوى وطني كتاب خالد ... يبقى على المكتوب من ايامي

---

(١) كتسفليس في : مجموعة الرابطة القلمية ـ ص. ٧٠ ـ ٧١

(٢) عملا فاخورى ـ اديب في السوق ـ ص. ١٢٨ ـ ١٢٩ (٣) فياض ـ رفيف الاقحوان ـ ٩٥

سجلت نصرانيتي في متنه ونشرت بين سطوره اسلامي

ويصف امين ناصر الدين فئة المتعصبين الضالة بقوله ١) :

فئة اذا نطقت فكل كلامها كذب وتزعم انها لا تكذب

وتظل ترتكب الذنوب ضلالة في حين تنهى الناس عن ان يذنبوا

لا تعجبن لجاهل متعصب واعجب لمن هو عالم متعصب

ويناشد الياس فياض قومه حاثا على الحب والوحدة فيقول ٢) :

بني الشرق هل من ذلك النوم يقظة

ترجى وهل يجدى بتنبيهكم شعرى

ايجمعنا جنس ولسن وموطن ويفرقنا وهم تحكم في الفكر

تالله دين لكم فاتّباعه احق ومن ازرى بذاك ففي كفر

وقريب من هذا كلام القروى ٣ وشبلي ملاط ٤) وغيرهما ...

اما تامر ملاط فانه يذهب في نهاية الامر الى ان الدين الحقيقي ليس اليهودية والاسلام والمسيحية ، انما هو الوجدان الذى يجعل من الانسان انسانا ٥) :

مذ كان خلق الناس كان الدين في ارواحهم متأصلا مغروسا

فمضوا به شتى المذاهب شرّدا يتخبطون دجنة ادموسا

فدع الحنيفة واليهود وشأنهم والعيسوى وصحب كنفاشوسا

واعمد الى الوجدان لا تعدل به شيئا ولو مطر الغمام طقوسا

التمرد الضعف والفساد لا بد للتمرد من شعور يضع المظلوم امام كيانه كانسان ، ووعي يجعله يسعى الى صيرورة انسانية لا يضطر فيها الى خفض الرأس امام معفّرى الكرامات . وحتى لو اخفق طالب السمو والتحرر في مسعاه ، فان في المحاولة التي يقوم بها بهجة للنفس الابية ، هي البهجة التي يشعر بها من يتّبع هاتف الضمير والقلب . وقد شعر كثيرون من كتّابنا بضرورة الانتفاض على الاوضاع الفاسدة والتمرد على ما يفرضه الجور

---

(١) امين ناصر الدين — الالهام — ص . ١٤٢ — ١٤٣

(٢) الياس فياض — ص . ٣٧ — ٣٨

(٣) القروى — القرويات — ص . ٢٨

(٤) شبلي ملاط — ص . ٣٤٦

(٥) تامر ملاط — ص . ٣٨ — ٣٩

من خنوع وضعف ، فنادوا بالتمرد على الواقع الذليل . ويمثل جبران خليل جبران هذه النزعة في مقالته "البنفسجة الطموح" . فهذه البنفسجة لم ترض بان تبقى طول حياتها بنفسجة قابعة في زاوية ، بل ارادت ان تصبح وردة تشرف بقامتها على الحياة . ومع ما بذل لديها من محاولات الاقناع اصرت على موقفها حتى اذعنت الطبيعة اخيرا فحققت مراد ابنتها ، ولكن العواصف ما لبثت ان هبّت فطرحت الرياح الوردة الحديثة ارضا وهي تلفظ حشاشتها . ولكنها تمالكت نفسها وقالت لرفيقاتها اللواتي وقفن ينظرن اليها بين ساخرة وحزينة : "انما القصد من الوجود الطموح الى ما وراء الوجود ... تمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ، وما زلت اتمرد على ذاتي حتى انقلب تمردي الى قوة فعّالة واستحال شوقي الى ارادة مبدعة ..." ١)

ولكن جبران ما يلبث ان يشتعل غيظا اذ يرى الباطل يدوس منطق الحق ، فيثور مع خليل الكافر ويوحنا المجنون مرغيا مزبدا ... انه لا يكتفي بالتمرد ، بل يدعو الى الثورة التي تحطم الفساد من جذوره ، فيشذ في تمرده احيانا عن الصواب فيتمرد على الشرائع الاخلاقية التي اتفق الناس على اتخاذها سياجا يصون الاعراض من الدمار ودعائم العائلة والحياة من الانهيار ، فيبرر مثلا موقف تلك التي تركت زوجها وتبعت سواه ، لا لسبب الا لان زوجها متقدم في السن ، ولان من تبعته شاب يفيض شبابا !!!

المطالبة بالحرية والتغني بها ناشد ادباء لبنان وشعراؤه الحرية ، في لبنان وخارج لبنان ، ذلك لان نفوسهم التي جرعت من صخور لبنان عزتها ابت ان يروّضها سوط الجلاد الاجنبي ، فكانت تتحين الفرص للتغني بالحرية ، بينما انطلقت في المهاجر لا تبالي يغنون التشنيع والارهاب التي كان يعدّها الظالمون لكل ذي انعتاق . لقد صاح جبران خليل جبران مع خليله الكافر ، ورعدة الاجيال المستعبدة في اواصره ، وتململ النسر الجريح في عينه ٢) : "من اعماق هذه الاعماق نناجيك ايتها الحرية فاسمعينا !" وصاح امين الريحاني ٣) : "متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر فيدور معه حول الارض ويضيء ظلمات كل شعب

---

(١) جبران خليل جبران — مجموعة مؤلفات جبران — الجزء ٣ — ص . ١٦١ — ١٦٢

(٢) راجع قصة "خليل الكافر" في "الارواح المتمردة"

(٣) امين الريحاني — الريحانيات — جزء ١ — ص . ٥٩

مظلوم ؟ ايتأتى ان يرى المستقبل تمثالا للحرية بجانب الاهرام ؟ ايمكن ان نرى لك في بحر الروم مثيلا ؟ ايتها الحرية ! متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيرى ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة ؟" وانطلقت من ضفاف النيل صيحة شاعر ترك لبنان لانه اصبح فيه غريبا بين الاتراك والمستتركين ، وراح يزأر في مصر كلما لاح له في الافق ، افق التاريخ والحاضر ، رسول الظلم . لقد قيل في مطران : ١) " وهناك سمات اخرى نعتقد انها حكمت شخصية الخليل ، هي الحرية ،التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذى قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ،والاباء الذى نأى به عن مواطن التذلل حتى في احلك الساعات ... وابرز هذه السمات وآصلها تحرره وجرأته واباؤه ، ولا ادل على تحرره من نفوره من الظلم في ينوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الاول الى باريس، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لاعلام الوطنية..." ولم يكتف مطران بالمطالبة بحرية قومه ، بل طعن الظلم اينما وجد ، ورفع الحرية على اكف قوافيه حيث ومض للحرية بارق . وقد حيّى الحرية بقوله ٢) :

حييت خير تحية ... يا اخت شمس البريّه

حييت يا حريه

الشمس للاشباح ... وانت للارواح

كالشمس يا حريه

انت النعيم واحلى ... انت الحياة واغلى

للخلق يا حريه

اما الذين هددوه بالشر عندما تعرض لمساوئهم فقد نالوا منه عكس ما كانوا ينتظرون من ازدلاف واعتذار وابتسامة ذليلة . قال لهم ٣) :

انا لا اخاف ولا ارجّي ... فرسي مؤهبة وسرجي

فاذا نبا بي متن بر ... فالمطية بطن لج

لا قول غير الحق لي ... قول ، وهذا النهج نهجي

وقد ثار الياس فياض على الظلم والقابلين به . فما كاد ينتقل الى الباخرة

---

(١) مصطفى السحرتي ـ خليل مطران «الرجل والشاعر» ـ ص. ٨

(٢) خليل مطران ـ جزء ٢ ـ ص. ٤٥

(٣) خليل مطران ـ جزء ٢ ـ ص. ٩ ـ ١٠

قاصدا الى مصر حيث عرض عليه تحرير احدى الجرائد حتى شعر بانه منصرف من بلد اسودّ بالظلم ، فقال على لسان الحرية ١) :

حبسوني عن الظهور المباح   وارادوا قتلي بغير جناح
جرّموني ، وليس يشفي جراحي   غير هجرى ارضا بها البؤس القى
هاجروها فالله خير وابقى

وقبل مطران وفياض قام الياس صالح - وهو شاب توفي وهو في الخامسة والعشرين - يتغزل بالحرية ، فقال ٢) :

لا تلمني يا عاذلي في هواها   فانا قيس هذه العامريه
وعلام الملام والقلب قلبي   ومعي فيه حجة شرعية ؟
انت حريا ايها المرء فاعلم   ولك العلم فيه والاسبقيه
انت حر ، فاعلم بهذا وعلّم   انت حر وهذه اوّليه !

ولم يكن ليفوت اديب اسحاق ان يدلي بدلوه بين الدلاء ، وهو الحر الساهر على حركات الظالمين . فقال يبسط مفهوم الحرية ويشرح احوالها في البلاد ٣) :
" قد حق للانسان ان يكون حرا فيما يفعل مما لا يخالف قانون العدل والحق المنصوص عليه في : ولا تفعلوا بالناس ما لا تريدون ان يكونوا بكم فاعلين ... ٤) فهل من حرية القول ان تلغى جرائدكم ، وان يبعد منكم كل ناطق بالصدق ، ام من حرية الفعل ان يكون زارعكم عبدا للشيخ لا يصدر الا عن امره ، ولا يتحرك الا بارادته ... "

المطالبة باقرار المساواة الى جانب تلك النشوة التي اندفع بها ادباؤنا وشعراؤنا نحو الحرية ، ثورة جامحة انصبت حمما على رؤوس الظالمين الذين انتزعوا الحقوق من اصحابها واخذوا الناس بالسوط لاقرار حكمهم الباغي . ولئن كان

---

(١) الياس فياض - ص . ٩ - ١١

(٢) الياس صالح في : رئيف خورى - الفكر العربي الحديث - ص . ٢٨٢

(٣) اديب اسحاق - ص . ١٦٦ - ١٦٧

(٤) ان في تحديد اسحاق للحرية لمطابقة تامة لتحديد الحرية الذى ورد في احدى مواد شرعة حقوق الانسان والتي نصها : " الحرية هي ان يفعل المرء كل ما لا يؤذى سواه . وهكذا ليس لممارسة الحقوق الطبيعية من حدود سوى تلك التي تؤمن لسائر اعضاء المجتمع حق التمتع بالحقوق نفسها . ولا يمكن ان تحدد هذه الحدود الا بواسطة القانون . "

الشعب لم يشعر بكامل مسؤولياته وحقوقه كوحدة منظمة ، فان فئة الطليعة قد اخذت تنير للجموع سبيلها ، وذلك منذ امد ليس بقريب جدا . فتطالب للمقرور بكساء ، وللسجين المظلوم بالحرية ، وللاكفاء بالمساواة ، وللمظلومين تحت كل شمس ، اولئك الذين يطوون الليالي على دمع ودم ، بحرية الحياة الشريفة والرأس الابي .

ومن اجمل ما قرأت لادبائنا المقيمين والمغتربين حول المساواة هذا البيت للشاعر القروى يصف فيه حبة قمح ١) :

وكأنما الشق الذى في وسطها لك قائل نصفي يخص اخاكا

فهل اروع من هذا النداء المحب ترسله الطبيعة الى ابنائها ؟

وقد اجتاح الادب اللبناني ، ازاء الجشع والظلم ، موجة عارمة من استنكار الاثرة ومن الدعوة الى المساواة . والمساواة التي عدا اليها كتّابنا ليست محوا لاى فارق يميّز انسانا عن انسان ، بل هي مساواة امام القانون ، مساواة امام الحياة بان يقدّم للجميع فرص متساوية للانطلاق ... وهنا كذلك نجد الكاتب الذى يتخذ من نور العقل هاديا لخوض الموضوع ، كما اننا نجد المتحمس الذى يشيد بالمساواة بوحي العاطفة . وقد عبّر اديب اسحق عن هذه المساواة بقوله ٢) : "اما المساواة فليس المراد بها ما يروم الغلاة من محو الطبقات وازالة الدرجات المترتبة على السعي والجد لزوما ، فتلك امنية لا تنال الا ان نكون جميعا اخوانا .— . وانما حقيقة المساواة ان تكون الاحكام سواء على من هم بالنظر اليها سواء ، بمعنى ان تجرد النصوص الحكمية عن كل ما يجعل بعض الناس فوق بعض ، وتنزه عن كل ما يفتح باب التجاح لبعضهم دون الاخرين ..."

ولعل من ابرز الامثلة التي اقدمها عن المطالبة بالمساواة قصيدة "الطين" لايليا ابي ماضي . في هذه القصيدة يخاطب الشاعر المتعجرف بلسان المسكين ، فيدعوه الى ان يرجع الى ماضيه الذى يلتقي ، في الطين ، بماضي اى معدم . يقول ٣) :

يا اخي لا تمل بوجهك عني ما انا فحمة ولا انت فرقد

انت في البردة الموشاة مثلي في كسائي الرديم تشقى وتسعد

لك في عالم النهار اماني ورؤى والظلام فوقك ممتد

---

(١) القروى في : توفيق ضعون — ذكرى الهجرة — ص . ٤٥٣

(٢) اديب اسحاق — ص . ٣٣٧

(٣) ايليا ابو ماضي — الجداول — ص . ٢٣ — ٢٧

ولقلبي ،كما لقلبك، احــلام حسان فانه غــير جلمــد

ويرى البعض فــي الاجحاف ظاهرة اجتماعية على الهيئات والافراد تداركها كي تعود الى الانسانية كرامتها السليب . يقول توفيق ضعون ١) : "انا لا انكر الثروة لانها عماد الرقي والعمران ، لكنني اكره ان ارى الى جانب الحديقة الغناء مستنقعا وان يتجاور القصر الباذخ والكوخ الحقير، ويسيرفي شارع واحد الكاسي والعارى، وان يشكو بعض الناس التخمة والبعض الاخر الجوع. والذى يرسخ فــي ذهني منذ بدأت افكر واحس ان الانسانية تظل كلمة جوفاء والمدنية حديث خرافة ما لم يقم عليهما دليل . وهذا الدليل الذى اتطلبه من الحكومات والهيئات والافراد هو وضع حد ادنى للمعيشة يجب ان يتحتع به كل بشرى ، فاذا اتفق ان قصر احد عن ادراكه كان ذلك لعلة جسدية او نفسية فيه و وعلى المجتمع ان يكتشفها ويداويها ."

ووقف الادباء على نتائج المساواة فــي البلاد التي اخذت بها، فقـــال الشاعر المهجرى مسعود سماحه متغنيا ٢) :

الا فلتعش بين النفوس عزيزة | وتحي بافكار الشعوب المساواة
فما هي الا سلّم للاولى سعوا | تؤدى الى المجد الرفيع ومرقاة
فكم اوقدت للمهتدين مشاعلا | وكم خفقت منها بنود ورايـــات
وكم ايقظت شعبا على الذل راقدا | فهب وللشعب المقيّد هـبّات

المطالبة باعطاء كل ذى حق حقه ولكن لا مساواة ما دام الحق مهضوما ، وما دام ذوالحق ينظر الى حقه القريب فيراه بعيدا ، صعب المنال كالسراب.

لذلك رافقت المطالبة بالمساواة مطالبة باحقاق العدل واحترام الحقوق . فيصيح الشــيخ نجيب الحداد ٣) : "مهلا بني الانسان ! فان للانسان على الانسان حرمة. ورفقا يا سادة الخدم ، فان الخدمة في شرع الكرام ذمة."

ولكن الحق لا يعطى دائما . بل غالبا ما يؤخذ بالقتال والصمود ، ولا بد

---

(١) توفيق ضعون ــ ص. ٢٣٩

(٢) مسعود سماحة ــ ص. ١٠٧

(٣) نجيب الحداد ــ ص. ١٣

للصامد من الفوز نهائيا . يقول خليل مطران ١) :

ولكنّ قوما يذودون عن … حقيقتهم من يد المعتدى

ويدفعهم حب اوطانهم … ويجمعهم شرف المقصد

لو الموت مد اليهم يدا … لردوه عنهم كليل اليد

ويؤمن الدكتور نقولا فياض بان العمال ، تلك الفئة التي غمط الكثير من حقوقها ، سينالون عاجلا او آجلا حقوقهم المطعونة ٢) :

يا اخي العامل لا تيأس … ولا تشك الزمانا

واذا ما اخذوا القمح … واعطوك الزوانا

واذا ما ذقت بالاضراب … ضربا وهوانا

قل ستأتي ساعتي … فالدهر دولاب يدور

ويؤمن معه القروى بان يوم الخلاص ، خلاص الجميع ، قريب ٣) :

سيجيء يوم وهو ليس بعيدا … يوم يساوى سيدا ومسودا

لا الظالمون بظالمين به كما … عهد الزمان ولا العبيد عبيدا

وقد اقترنت المطالبة بالمساواة والحقوق بصرخة تزعق في وجوه الظالمين ، المسؤولين المباشرين عن الاجحاف وعن تقهقر العدالة الاجتماعية الانسانية . وسيمر معنا في الفصول التالية شيء من ادب الحملة على الطغاة ، واكتفي الان منها بهذين المثلين . يتكلم امين ناصر الدين عن جمال باشا هازئا ساخطا ٤) :

اجمال لا والله لست بمسلم … كذب الذى قد قال انك مسلم

لم يرح الاسلام يأمر اهله … بالرفق مذ بعث النبي الاعظم

جزار سوريا احتكم فرجالها … غنم وداء خنوعهم مستحكم

ويثور خليل مطران على جلادى الاقلام فيقول ٥) :

---

(١) خليل مطران — جزء ١ — ص . ١٨٠

(٢) نقولا فياض — جريدة الانباء — عدد ١٦ / ٥ / ١٩٥٢

(٣) القروى — القرويات — ص . ٧١

(٤) امين ناصر الدين — الالهام — ص . ٥٨ — ٥٩

(٥) خليل مطران — جزء ٢ — ص . ٩

شرّدوا اخيارها برا وبحرا   واقتلوا احرارها حرا فحرا
انما الصالح يبقى صالحا   آخر الدهر ويبقى الشر شرا
كسّروا الاقلام ، هل تكسيرها   يمنع الايدى ان تنقش صخرا؟
قطّعوا الايدى هل تقطيعها   يمنع الاعين ان تنظر شزرا؟
اطفئوا الاعين هل اطفاؤها   يمنع الانفاس ان تصعد زفرا؟
اخمدوا الانفاس هذا جهدكم   وبه منجاتنا منكم ... فشكرا !

الاستعمار والاستبداد[1] لم تخف على الواعين اهداف الاستعمار قديما وحديثا ، فهب ادباؤهم وشعراؤهم يكشفون نيات المستعمرين ويحرضون على مقاومة كل حركة ترمي الى اذلال البلاد .

من ارباب القلم من رأى في الاستعمار دليلا على انحطاط الروح الانسانية ، فلم يفرق بين انسانين : انسان انسان ، وانسان ليس له من الانسان الا الظفر والناب ، بل شمل الجميع في حزمة واحدة وجعل "الانسان" مسؤولا بطمعه عما كان وعما هو كائن من امر الاستعمار . وفي هذا الموضوع يقول فوزى معلوف ٢) :

آدمي هذا — اجاب اخوه —   جاء يستعمر الاثير باسره
كرة الارض عن مطامعه ضاقت   فحطت هنا مطامح فكره
نحن لم نهجر البسيطة الا   هربا منه واجتنابا لشره
قم بنا نحشد الطيور ونتقض   عليه نجزيه من مثل غدره !

ويشرح الكاتب المهجرى وديع باحوط وضع الانسان ، ويفسر الاستعمار على ضوء المطامع التي لا تزداد الا اتساعا ٣) : "وحاجات الانسان متسلسلة من قليل الى كثير فاكثر : فكلما كثرت اشتد طمعه وطلب المزيد من التوسع . وهو ما دام على ذلك سيظل يتطلب سلطة اوسع تزيد معها حاجاته حتى تضيق هذه بتلك فيندفع متطلبا سلطة اخرى اكثر اتساعا الى ما لا نهاية له . اوما نراه اليوم يتحفز لاكتساح السماء ؟ ولم ذلك ؟ أليس لان الارض تكاد تضيق بحاجاته ؟ ٤) فقد باشر ركوب الهواء واضعا نصب عينيه التدخل في شؤون الكواكب وضمها الى املاكه ... ولا ادرى كيف يجيز لنفسه ذلك بعدما صرح زعماؤه بعضهم لبعض باستقلال الشخصيات والامم ، وترك كل شعب يعيش ويجرى في احكامه بحسب

---

(١) كان بالامكان ان يدخل هذا الفصل تحت الاتجاه القومي ، الا انني اتناوله هنا من ناحيته الاجتماعية اكثر من ناحيته القومية
(٢) فوزى معلوف — على بساط الريح — الفصل "بين الطيور"
(٣) وديع باحوط في : مجموعة الرابطة القلمية — ص . ٢٨٠ — ٢٨١   (٤) الراجع كلام معلوف اعلاه

اختياره... وكم مرة سمعتهم ينادون : كل بلاد لاهلها . يقولون ذلك وهم يعلمون انهم كذبة مخادعون غشاشون . لانهم يفعلون عكس ما يقولون . فلماذا لا يتركون الهواء للهوائيين ان كانوا من الصادقين ؟"

وينظر البعض الى بلاده فيراها ترسف في الاغلال ، فيقول امين ناصر الدين منحيا باللوم على الشرق الخاضع ١) :

اخنى عليك الغرب يا مشرق　　وانت في الغفلة مستغرق
وسمت خسفا بعد تلك العلى　　وقيّد استقلالك المطلق
الغرب قد ضاق بسكانه　　وانت لا وعر ولا ضيق
وفيك اسباب الغنى حجة　　ووجهك الطلق له رونق
فجاءك الغربي مستعمرا　　وهو الى ما تحتوى شيّق
لم تخل ارض فيك من فاتح　　وفيلق يتبعه فيلق
فبات احرارك في ارضهم　　عبيد قوم بأسهم مرهق

اما الدكتور فياض فانه يقرر واقع البلاد ثم ينتهي بدعوة الى التيقظ والاتحاد ٢) :

وكان هناك في الحكم انتداب　　على الاعراب يقلقهم هوانا
فللروم الشآم عنت ودانت　　وللفرس العراق عنا ودانا

++++++

بني امي خبرنا الغرب دهرا　　وشاهدنا مطامعه عيانا
فكيف يغرنا منه سراب　　نسد له الرحال وما سقانا؟
تباعدنا زمانا وافترقنا　　فهلا جاء موعدنا وحانا؟

ويتطلع القروى من البرازيل ، فاذا به امام لبنان ضعيف ، لبنان معتل ، لبنان جفت ارزه العزة ، واسودّ بياض صنينه خسفا ، فيخاطب بني امه في مقدمة "الاعاصير" قائلا ٣) : "ان هؤلاء المضللين يلهونكم عن السعي الى تحقيق مطلبكم الاسمى ببهرج

---

(١) امين ناصر الدين - الالهام - ص. ١٨٢

(٢) نقولا فياض - رفيف الاقحوان - ص. ١٦٦

(٣) القروى - الاعاصير - ص. ٩

من وعد وزيف من رجاء لتلبثوا حيث انتم او تمشوا القهقرى · انهم يحاولون اقناعكم بان العبودية وسيلة الى الرقي والرقي وسيلة الى الاستقلال · انهم يعدون الجائع بقميص ويمنّون العارى بكأس ثليج ، ارأيتم منطقا اسدّ من منطق المستعمرين !" ثم ينتحب على بلاده مرددا بين الشهقات ١) :

لهفي على صنين يجفوه العلى ويغيب فجر العزعن ذرواته
لهفي على بيروت تصبح مسرحا لمغارم الغازى وعهر بناته
فردوس املاك يضم ابالسا وتعذب الابرار في جناته

اما الحل الوحيد الذى يرتأيه الكتاب للخلاص من الاستعمار وما يجره من جور وخنوع ومذلة ، فهو النضال ، سلاح الضعيف الوحيد ، السلاح الذى يحوّل ضعف الضعيف الى قوة طالما ادهشت روّاد التاريخ · يقول عمر فاخورى ٢) : "يقولون لنا ايضا : هي القوة ، لا قبل لنا بها · كمن يشكو ضيق صدره : هو الجبل لا مزحزح له · بل كمن يتأهب ليغط في نومه : هو القضاء فمن يدفعه ؟ وكأني بهم يخشون ان لا نفهم ، على احسن وجه واكمله ، ضرورة الرضى والقناعة والخنوع والتسليم ، فهم يأتوننا ببرهان لا يقطع قطعا ، لكن يخز وخزا · · · يقولون لنا : ان العين لا تقاوم المخرز · اما التاريخ فقد عرف حوارا يدور بين تلك العين وذلك المخرز · · · ودائما كان ينبت للعين ظفر وناب"

اجل · · · كان ينبت للعين ظفر وناب · · · انظر الى هذه اللوحة يرسمها لنا خليل مطران ممثلا القوى وقد وثب به الضعيف ٣) :

ويل القوى اليوم من ذاك الضعيف وقد هجم
اترى نكوص المعتدى ملأ الفلا مما ضخم ؟
متقهقرا وهو الذى في بأسه لا يتهم ؟
ووثوب ابناء الديار به حيث انهزم ؟

متق

+ + + + + + + + + + +

---

(١) القروى — الاعاصير — ص · ٩

(٢) عمر فاخورى — اديب في السوق — ص · ١٣٤ — ١٣٥

(٣) خليل مطران — جزء ١ — ص · ١٧٥ — ١٧٧

وبالاضافة الى المواضيع التي ذكرت ، والتي كان للادب اللبناني فيها نظرات وآراء ، نجد ان ثمة مواضيع قد تدخل في هذا الاتجاه ، الا انها ليست بخطورة تلك التي مرت معنا . من هذه المواضيع : المرأة ، حرية المرأة ، الحجاب . وقد كان بالامكان ان اثير الموضوع كما اثرت غيره ، ولكنني اكتفيت بان اشير اليه لانه لم يشكل يوما اتجاها بارزا في الادب اللبناني ، بل كانت منه ومضات تمر بين الحين والحين في شعر هذا وكتابة ذاك . ولو كان موضوع بحثي يسمح بان ادرس هذه الناحية من وجهتها العربية العامة بدلا من الوجهة اللبنانية الخاصة لخصصت لموضوع المرأة اتجاها خاصا ، ذلك ان الادب المصرى قد عني بالقضية عناية خاصة ، بين الموالاة والمعارضة ، خصوصا عندما نزل الى الميدان الكاتب الاجتماعي قاسم امين . اما نحن ، فان ادباء مطلع النهضة عندنا كانوا ، اما لامبالين ، واما معارضين بشأن تحرير المرأة ومنحها بعض الحقوق (١) .

++++++++++

لقد التفت الادب اللبناني الى المجتمع والانسان . ومهما يكن من امر بعض الاتجاهات الخاصة ، فهو يسير في طريق ترمي الى ان تعيد الى الانسان كرامته ، وذلك بان تؤمن له الاستقرار والرفاهية وتجعله بعيدا عن مؤثرات الفقر والظلم ، فتقيه بذلك مغبة التورط في المهاوى . اما الادب الذى ما يزال يعيش وكأنه ليس من المجتمع بشيء ، فان الحياة ستحكم في امره . ويقيني ان حكمها سيكون عليه لان الناس باتوا يطلبون من الاديب ان يتأثر بالحياة ويؤثر فيها ، لا ان يكون كالذى قال فيه ميخائيل نعيمة :

وتسير وحدك في القفار	وعليك ستر من غبار
كمسافر يبغي الديار	لكنه فقد السبيل

---

(١) للمعلم بطرس كرامه البستاني خطاب عنوانه "تعليم النساء" القاه سنة ١٨٤٩ . وفي هذا الخطاب استعراض لحالة المرأة ، يخلص منه الخطيب الى ان تعليمها امر واجب ، ويقترح ان تدرس المرأة الديانة والقراءة والكتابة والتاريخ وتدبير المنزل ..

(٢) الاتجـاه الانسانـــي ـ التأملـــي

٠٠٠ وما الانسان ؟

يقول لك البعض : "الانسان خير كله ، وخير كل ما يقوم به٠ حتى المجرم الذى يكب على عنق ضحيته يحتزها ، فانه لا يخلو من ذرات خير تنكمش على نفسها فـي طوايا اللاوعي ٠" ويقول لك آخرون مخففين من هذه الايجابية القاطعة : "اجل ٠ ان في الانسان لخيرا ٠ ولكن بين البشر من فطروا على الشر ، علّقوه وهم بعد في الرحم٠" اما الفئة الثالثة ، فئة السلبية ، فانها تستسلم قائلة : "الانسان ؟ ان هو الا حيوان عافه الحيوان! انه "طين حقير" ، من الطين جبل ، ومن الطين جوهره ، فهو لا يتكلم الا طينا ولا يعمل الا طينا !"

ومهما اختلفت النظريات حول الانسان ، لا مندوحة لنا عن القول ان الانسان محور الوجود ، وقد اخذ يخطو في ميدان السطوة خطوات جبارة ، فيتغلب على الموت في كثير من الامراض ، ويروض الطبيعة لمنافعه ٠ ولا بد هنا من صورتين لـ "انسانين" مختلفين : انسان جشع يريد جيبه محورا للحياة ، ويستعبد من اجل هذا المبدأ شعوب الارض٠ وانسان بسيط يحلم في الحياة بسكن يأنس اليها ، وسعادة طاهرة ينعم بجوها ، ولقمة شريفة تبعد عن جوفه حرقة الجوع ، وحرية يشعر ، كلما تمتع بها ، بانه مخلوق له كرامته٠ ولذا نرى ادبنا اليوم يميز احيانا بين هذين الانسانين ، فلا يرمي الشريف بمثالب الحقير ، بل يعلل الامراض ويعيد الشرور الى اصولها ، ويدافع عن حقوق البائس المهضومة ٠

الخير والشر في الانسان لقد آمن بعض ادبائنا برسالة الانسان الخيّرة ، وعبّر انيس المقدسي عن هذا الاتجاه بقوله (١) : "واذا كانت النزعة الروحية في القرون الوسطى قائمة على توجيه النفس الى العالم الاخر والتماس السعادة عن طريق امتهان الجسد ورغائب النفس ، والى تحقير الطبيعة البشرية على انها دنسة غير قابلة للاصلاح ، فان لادباء هذا العصر نزعة تكاد تكون معاكسة لتلك٠ فقد حوّل الزمان اهتمامهم الى الحياة الحاضرة ورفع في اعينهم قدر الانسان والقى على الوجود

(١) انيس المقدسي ـ جزء ٢ ـ ص٠ ٩٢

الحالي مسحة من الجمال ، يعكسها لنا كثير من اقوالهم ، حتى الذين نراهم احيانا ينفثون نفثات التشاؤم العلائي ، يجارون المتفائلين في هذا الامر ويؤمنون ايمانهم بقابلية الانسان للسير في طريق التقدم ٠٠٠"

والايمان بصلاح الانسان يقود الى الايمان بان الحياة ليست تلك العاهر اللعوب التي صورها الكثيرون قديما ٠ ويستعرض المقدسي هذا الاتجاه كذلك فيقول ١) :

"كان الفكر العام عند القدماء ان الحياة الارضية ناقصة ، ولذلك فهي ستظل شقية حتى تصل الى الكمال في العالم التالي ٠ على ان الفكر العام اليوم يذهب الى ان الحياة ليست ناقصة وشريرة ، وبالتالي شقية ، بل انها متطورة والتطور اساس جمالها وسعادتها ٠ وما على الانسان الا ان يجارى ناموس التطور ، وان يستقبل الحياة مستبشرا مؤمنا بانه يستطيع ان يجد فيها اسباب الكمال والجمال ٠"

ولكن فريقا كبيرا من ادبائنا نحا نحوا مخالفا للنحو السابق : رأى بعض الادباء الشرور في الارض كثيرة ، ورأوا الناس ، بعض الناس ، يتهالكون على الشر والخسيس من الاعمال ، فثارت حميتهم ، وارتج على صوابهم ، فلم يستطيعوا ان يميزوا بين تينك الصورتين اللتين اشرت اليهما ، فاذا الانسان في نظرهم واحد ، هو ذلك المخلوق العجيب الذى يعيش بالشر للشر ٠ ومن هذه الفئة شعراء كان لسويدائهم اثر في توجيه اقلامهم توجيها تشاؤميا ناقما ، كما ان منها جماعة ثارت على الناس بدافع وطني ، وذلك لما رأته فيهم من استكانة للظلم ٠ وقد تجمع لدينا من جراء ذلك شعر ونثر كثيران كلاهما طعن بالانسان وتجريح ٠ فانظر اولا الى هذا البيت لفوزى معلوف ، وهو يرسم لنا اتجاه هذه الفئة في طعن الانسان : ٢) :

الناس؟ ما فيهم سوى غادر مراوغ ، ومفسد مقلق

وهذا الانسان المفسد ، المقلق ، المراوغ ، يسعى الى الشر فكأنه ، اذ يلقاه ، في عيد ٣) :

هو يحيا للشر فالشر يحيا ابدا حيث حل شؤم ركابه
وهو لا ينفع البسيطة الا حين يثوى في القبر بين رحابه

---

(١) انيس المقدسي - جزء ٢ - ص ٠ ٩٧

(٢) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٠ ١٣

(٣) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف - ص ٠ ١٣

حين يمتصه الثرى فيغذى   منه ما في الاديم من اعشابه

وعبثا يحاول الانسان ان يستر عجزه بالتبجح بما ناله في مضمار الحضارة والرقي . فما حضارته سوى قشور فاسدة ، وما رقيه سوى كذب يطلقه في وجة الحياة ١) :

نسي الخير حين اوغل في الشر   فداس الضمير في عصيانه

ملأت قلبه الافاعي فلا يسمع   غير الفحيح في خفقانه

فاذا بالاذى وليد حجاه   واذا بالشرور بنت لسانه

ليته لم يكن ذكيا فكل   الويل في الكون من نهى انسانه

ليت عمرانه تأخر اجيالا   فكل الخراب من عمرانه

وغير فوزى معلوف كثيرون آمنوا بالشر في الانسان . يفتتح جبران "مواكبه" بقوله ٢) :

الخير في الناس مصنوع اذا جبروا   والشر في الناس لا يفنى وان قبروا

ويقول القروى ٣) :

يا كل من فوق سطح الارض قاطبة   لولاكم لم يكن في ارضكم باس

ويردف كلامه هذا بقهقهة صفراء ٤) :

حتى دنا من ساحتي   قرد بلا ذنب ، حقير

قزم قصير بات طرفي   عن تبينه حسير

هو ذلك الانسان من   ابدا يجور ولا يجير

وشبيه بهذا الكلام كلام شفيق معلوف في "عبقر" ٥)

وارى ان افضل رد على الذين يرمون الانسان دائما بالشر ويبتعدون عنه هو الذى ورد على لسان كاتب مصرى تعرض لشعر فوزى معلوف ، هو احمد زكي ابو شادى . يقول : "وعندى ان نظرات الشاعر الفلسفية ليست خالية في مغزاها من الجديد فحسب ،

---

(١) فوزى معلوف - بساط الريح - ص . ١١٠

(٢) جبران خليل جبران - المواكب - ص . ٩

(٣) القروى - القرويات - ص . ٢٧

(٤) القروى - القرويات - ص . ٨٢   (٥) شفيق معلوف - عبقر - ص . ١٦١

بل هي ضارة ايضا ، فلا سلوى منها للانسانية ، واحسب انها نزعة تقليدية متغلغلة بين معظم ادبائنا ، او كأنما هي شروح متتابعة للبيت القديم :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى
وصوّت انسان فكدت اطير

ولا ادرى لماذا ننسى حقيقة اخرى : وهي ان الانسانية في جملتها تسير الى الامام نحو الجمال الروحي والفكرى بل والجسدى ايضا؟.. ولئن كان في سخط الشاعر في تقريعه لابناء جنسه او نوعه تهذيبا ١) وتربية ، فاجمل من ذلك ان يحمل امامهم مصباح الامل وحب الجمال الذى هو نعمة الحياة بل ذات الحياة.

التعالي الطبيعي نظر بعض الكتّاب الى الانسان من عل ، فرأوه حقيرا صغيرا . وكان من الطبيعي بعد هذا ان يعتبروا انفسهم من جبلة غير جبلة البشر. هذه هي فئة الكتّاب الذين فرضت عليهم الحياة فرضا ، او هم ، لو خيّروا ، لما كانوا اختاروا الا ملعب النجوم موطنا! ان الشاعر ينتسب الى الارض بجسده ، اى بالعرض الزائل ، بالسخيف من كيانه ، بينما هو في الرحب الفسيح بروحه ، وهي ازلية ابدية لا تعرف حدودا ولا قيودا . فالشاعر في رأى فوزى معلوف ٢)

هو بالرغم عنه من عالم الارض وان كان تزيا بشكل ابناء جنسه

لذلك نجده غريبا بين قوم اصروا على اعتباره منهم واصر هو على اعتبار نفسه خارجا عن محيطهم . يقول فوزى معلوف ايضا ٣) :

ليت شعرى ما الشاعر ابن لهذى الارض الا بلحمه وبعظمه
فاذا اختار هجرها برضاه انما جاءها مقودا برغمه
هو منها وليس منها فما زال غريبا ما بين ابناء امه

حتى اذا مات الشاعر وجد في وحشة القبر انسا لا يجده في حياته ٤) :

لا تظنوا القبر فيه غربة ليس من في صحبة القبر غريب

---

(١) كذا في النص . والاصح : تهذيب .
(٢) فوزى معلوف ـ بساط الريح ـ ص . ١٢٦
(٣) فوزى معلوف ـ بساط الريح ـ ص . ٣٩
(٤) ندره حداد في : مجموعة الرابطة القلمية ـ ص . ٣٠٨

عشت في الدنيا زمانا لم اجد   احدا في الناس ادعوه قريب

السلم والحرب في حياة الانسان ظواهر غريبة تقدّم للفئة المتشائمة - وقد رأينا الكثير من اقوالها في هذا الفصل - براهينها ضد نزعة الخير في الانسان . من هذه الظواهر الحرب . فمنذ كان الوجود كان صراع بين البشر ، صراع تمليه السياسة الغاشمة ، سياسة تنازع البقاء وبقاء الاقوى . ولكم رأينا قويا يقف على جماجم الضعفاء ، وهو المغتصب ، وهم المظلومون .

وكان لا بد للكاتب من ان يقف يوما موقفا معينا من الحرب والسلم . ذلك ان ما تبنيه الانسانية في قرون يصبح طعمة لنيران حرب مستعرة لا تبقي على حيّ ، فاذا بالحضارات رماد ، واذا بالتقدم يعود القهقرى . وبدلا من ان تتابع الانسانية سيرها ، تضطرها الحرب الى السير من جديد من نقطة الانطلاق الاولى . اضف الى ذلك الناحية العاطفية في القضية ، الا وهي تأثير تلك الالام التي تخلّفها الاعمال البربرية في القلوب ، وتلك الشوهات التي تنشرها في المجتمع . فلا بدع اذا ان يرمي الادباء والشعراء الحرب بقارص الكلام ، واصفين مضارها ، عارضين صور البؤس التي ترسمها في الانام اعمال الحديد والنار . فلنسمع ما يقوله خليل مطران (١) :

من هذه الزلاء قد   اخنى بها طول العقم ؟
برزت لهم من خدرها   مهتوكة لم تلتثم
عزريل اولدها ومن   سفّاحها القوم الغشم
تلكم هي الحرب الزبون   وذلكم هتك الحرم

ولم تنطل حيل الحكام الظالمين يوما على الشعب . انه يعلم حق العلم ان الاسباب التي يتذرع بها اولئك واهية لا تقوم على اساس من الصدق . والحقيقة التي شعر بها الادباء هي ان الجندى كثيرا ما يدفع الى ساح الوغى وانفه راغم (٢) :

بعثوا بابناء العباد الى وغى   قعدوا لها بين القعواد وقاموا
ساقوهم لمجازر من هولها   يقف الكمي ويحجم المقدام
ساقوهم للظى الوغى ، فكأنهم   قد ايقظوهم للممات وناموا

---

(١) خليل مطران - جزء ١ - ص. ١٧٤ - ١٧٥

(٢) مسعود سماحه - ص. ٨٠

وهنالك جماعة ينجرّون الى الحرب متأثرين بالدعايات التي يبثها الحاكمون ، حتى اذا ما وصلوا الى ساحات القتال ، ونظروا الى الاعداء ، شعروا بانهم ، كالاعداء ، مغفّلون يساقون الى الموت بسلاسل من العظات الوطنية والمكافآت الباطلة ، وادركوا ان الحرب لا تعدو كونها قتلا لابرياء ، واعلاء لشأن اناس في مهامه الجهالة وحب العظمة يهيمون . وليس ابلغ من هذا الكلام الذى وضعه ميخائيل نعيمه على لسان الجندى شورتي . يقول ١) : "انا جيفة حية بين اجياف متحركة ، يداى ملطختان بدماء بريئة لاني جندى ، وعمل الجندى القتل . فقد حرمت اكثر من زوجة لقاء زوجها ، وحبيبة عودة حبيبها ، وقد اوجدت في العالم اكثر من ثكلى واكثر من يتيم ويتيمة . ولقد بعثرت اكثر من امل ، وفقأت اكثر من عين ، ودمرت اكثر من بيت . لذاك دعاني الناس شجاعا ، وكافأوني بما يحسبونه شارات شرف وفخر ..." الى ان يقول ٢) : "سمعت رفاقي ينددون بالاوتوقراطية والاستبداد والظلم والبربرية والقوة المطلقة . فقلت : ها هم اعدائي فلأصب عليهم كبريت نقمتي . وذهبت بنار بغضائي الى ساحة القتال فلم اجد هناك لاعدائي من اثر . وجدت جهلا يناطح جهلا ، وبشرا يذبحون بشرا ، وكلهم مدفوع لا دافع ."

واذا ما انتهت الحرب ، جال الشاعر بالخيال في ارجاء وطنه ، فاذا به لا يرى سوى العرى والجوع والدمار والموت . واذا به يرى العائلة تنتظر الاولاد علهم يعودون ، ولكنهم لا يعودون . انهم هناك ، تحت السرو ، او في مكان ما ، تحت الاديم .

احبابنا وضع العشاء	وآلكم بالانتظار
وقلوبهم لغيابكم	تشوى على جمرات نار
قوموا نعود الى الحمى	قد آذنت شمس النهار

+ + + + + +

نام الحمام على الغصون	فهاج احزاني الحمام
ارشيد لا تلم الاحبة	لا يحق لك الملام
احباب قلبك هوّمت	كف الحمام بهم فناموا ٣)

---

(١) ميخائيل نعيمه – كان ما كان – ص. ١٣٢

(٢) ميخائيل نعيمه – كان ما كان – ص. ١٣٣ – ١٣٤

(٣) القروى – القرويات – ص. ١٢ – ١٤

ويقف الانسان حائرا · ترى ، اليس للحرب ، كما للكثير غيرها من الاوبئة ، دواء ؟ واذا كان ثمة فئة ترى ان الحرب كانت وما تزال ضربة لازب ، تأتي بالنفع على البشر اذ تجرف الضعيف وتخلّي المجال رحبا امام الاقوياء ، فان هذه الفئة قد افلست او هي في طريق الافلاس لانها لا ترتكز في نظريتها على دعائم اخلاقية وانسانية ومنطقية · وهكذا نرى ان الادب اللبناني الحديث قد حفل بالنغمة المنددة بالحروب لشدة الويلات التي تجرها ، كما حفل بالمطالبة بوضع حد للاعمال البربرية التي تقترف في ساحات القتال وبين الامنين · ولكن الادب لم يخل من نظرات تشاؤمية في هذا المضمار · يصوّر لنا شفيق معلوف الصلح الذى عقد بعد الحرب العالمية الثانية بعد ما قاست الشعوب في الشرق والغرب ما قاست ، وينتهي الى ان هذا الصلح انما هو "صلح احمر" كتبت بنوده بمداد القلوب ١) · واذا ما وعدت الدول بالسلام ، وقف البعض من وعدها موقف الحذر المشكك ، لان الايام اخلفت بوعودها فلم يقم للسلم يوما قائم · وفي هذا يقول امين ناصر الدين ٢) :

وان زعمت ميلا الى السلم دولة ... فذاك خداع ظاهر وتصنع
وبينا تراها تطلب السلم تنثني ... وما همها الا حسام ومدفع
لعمرك ان السلم عنقاء مغرب ... واى امرئ في المستحيلات يطمع ؟

اللاادرية ولقد نشأ عن تلك الحيرة التي انتابت الانسان ازاء انسانيته ، وازاء ما يهدد كيانه ووجوده من احداث ومظاهر خطرة ، نزعة "لاادرية" حارت في تفسير الكون وما وراء الكون · فراح اصحابها في بحران من الشكوك ، وهم يقلبون الشفاه امام كل سؤال يتعلق بالانسان : مصدر وجوده ، سر وجوده ، هدف وجوده ، ما يؤول اليه وجوده ·

وتظهر هذه النزعة جلية في ادب اللبنانيين ٣) المهاجرين · وقد افرد لها ابو ماضي قصيدة طويلة في "جداوله" ، بدأها بقصة الخلق وسره قائلا ٤) :

---

(١) شفيق معلوف ــ نداء المجاذيف ــ ص · ١١١

(٢) امين ناصر الدين ــ صدى الخاطر ــ ص · ١٤

(٣) وبين بعض الشعراء السوريين مثل هذه النزعة ايضا · يقول الياس قنصل (الاسلاك الشائكة ، ١٦)

صديقي لا تسرف بلومك انني ... ارى حياة المرء والمرء طلسما

(٤) ايليا ابو ماضي ــ الجداول ــ ص · ٨٩

جئت لا اعلم من اين ولكني اتيت
ولقد اقصرت قدامي طريقا فمشيت
وسابقى سائرا ان شئت هذا ام ابيت
كيف جئت ؟ كيف ابصرت طريقي ؟
لست ادرى .

ثم ينتقل بين العناصر ، فاذا بالبحر ، كالانسان ، سر غامض . واذا الشهب، والسحاب ، والغاب ، وهي بنات الطبيعة ، تقف ، كالانسان ، حائرة ١) :

قد رأيت الشهب لا تدرى لماذا تشرق
ورأيت السحب لا تدرى لماذا تغدق
ورأيت الغاب لا تدرى لماذا تورق
فلماذا كلها في الجهل مثلي ؟
لست ادرى

الى ان يقول اخيرا ٢) :

اتراني كنت يوما نغما في وتر
ام تراني كنت قبلا موجة في نهر
ام تراني كنت في احدى النجوم الزهر
ام اريجا ، ام حفيفا ، ام نسيما ؟
لست ادرى

وعلى غرار ابي ماضي كثيرون ، رأوا الانسان طلسما، ورأوا الحياة سرا غامضا لا يستجلي سرائره بحث او فكر . يقول ميخائيل نعيمه في مقدمة " مجموعة الرابطة القلمية " ٣) : " هو الانسان - عبرة العبر وحيرة الحير . يجيء من حيث لا يدرى ويمضي حيث لا يدرى . يحل هذه الارض ردحا من الزمن فيبهره جلال ما يرى ويسحره جمال ما يسمع . فوقه نجوم لا تعد وحوله فضاء لا يحد . " وفي سر الحياة يقول

---

(١) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص . ١١٨
(٢) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص . ١٠٩
(٣) ميخائيل نعيمه في : مجموعة الرابطة القلمية - ص . ٣

نعمه الحاج ١) :

وسألت النفس عن كنه الحياة والوجود
او هل يرجى لها بعد الممات من خلود
طيّب العهد الذى ولّى وفات هل يعود
فاذا بالنفس اعيا ها الكلام في جواب عن سؤال حيّرا

ولكم قابل الكاتب بين الانسان والطبيعة في هذا المجال . فالانسان ، كعناصر الطبيعة ، ذرة حائرة في هذا الكون : فبحر ابي ماضي لا يجيب عن اسئلة الشاعر الا بابتسام غامض او بازباد صاخب ، وفي كليهما جهل مطبق . وكذلك جدول ندره حداد ، فانه يسير "الى حيث لا يفهم." ٢) :

وما شاقني في الحياة سوى منظر الجدول
يعيش بقلب الفلاة سعيدا بلا منزل
جرى بين شدو وندب الى حيث لا يفهم
كذا نحن نمضي كركب الى اين ؟ من يعلم؟

ولا عجب بعد هذا اذا وقف الانسان لغزا غامضا امام لغز غامض . فهل سوى الجهل له دليل ؟ يقول جبران ٣) :

كتبت في الجزر سطرا على الرمل
اودعته كل روحي مع العقل
وعدت في المد اقرا واستجلي
فلم اجد في الشواطي سوى جهلي

النزعة الفلسفية ولئن كانت اللاادرية صفة بارزة في الادب المهجرى ، فان للنزعة الفلسفية فيه مركزا من مراكز الصدارة . ولا نجد غرابة في ميل الادب المهجرى نحو الحكمة يطلقونها شعرا او نثرا ، فان في حياة المهاجرين ما يبرر هذا الميل . لقد خلّف المهاجر وراءه اهلا وخلانا ، وغاص في عالم هو فيه غريب،

---

(١) نعمه الحاج – ص. ١٠
(٢) ندره حداد في : مجموعة الرابطة القلمية – ص. ١٤٩
(٣) جبران في : مجموعة الرابطة القلمية – ص. ١٥٠ – ١٥١

فاذا به يذوب حنينا وشوقا واسى ، فـي ادب وشعر يعارض منهما ضمة مختارة. الا ان غربة الشاعر فـي مهجره لم تسفر عن هذا الادب وهذا الشعر فحسب ، انما اسفـرت كذلك عن تمرس المهاجر بالحياة وبما فيها من مصاعب وعقبات وخيبة وامل وصراع مـرير . ولقد نجم عن هذا كله ادب يصوّر هذه الاحوال ، والى جانبه ادب يستخرج من مظاهـر الحياة المختلفة التي عاشها اربابه حكما وفلسفة وعظات . وفـي هذا الادب نظـرة تشير الى

ان التأمل فـي الحياة يـزيد آلام الحـياة

لذلك دعا الكثيرون الى نبذ التفكير بالحياة وبشؤونها وبشجونها ، والى اخذ الامور علـى عواهنها لان فـي ذلك راحة للبال . يقول وليم كتسفليس ١) : "زهرة الحقل تنبت فـلا تسأل لماذا ، ولا تحسد نضارة الوردة وجمالها متألمة لانها ليست مثلها محبوبة ، ولا تكيد لها المكايد لاتلافها . زهرة الحقل قانعة بنصيبها فاقتدوا بها واجعلوا الحلم جميلا ... مادة وروح ، قذارة والوهية . فالجسم هيكل من طين لالهة هي النفس . وليس بالجسد بل بالنفس السعادة . تناسوا الجسد وحدوده ، تناسوا السجن الذى يقيد لا نهاية النفـس ، والجعلوا الحلم جميلا ."

لنجعله جميلا ، اجل . اذ ما الفائدة من "ان نعلم" ، وفـي "ان نعلـم" يكمن البلاء ؟ وهل ما نعلمه من امر الحياة غير البؤس والمرارة ؟ لذلك يقول رشيد ايوب ٢) :

ان كنت تجهل انت فـي يسر　　　او كنـت تعلم انت فـي عسر
انا لا اظن روايـة العـمـر　　　ادوارها هـزل بـلا جـد

وهنالك مئات الامثلة التي تدل على اتجاه الادب المهجرى احيانا نحـو النزعة الفلسفية فـي النظر الى الحياة وما يحيط بها . ولواردت ان اثبتها لتوفـر لدينا منها الكثير الكثير . انما اتيت بما اتيت به مكتفيا بما له دلالة على النحو الذى اشـرت اليه .

ولكن النزعة اللاادرية والنزعة الفلسفية ليستا النزعتين اللتين ينحو نحوهما

---

(١) وليم كتسفليس في : مجموعة الرابطة القلمية ـ ص. ١٥٠ ـ ١٥١

(٢) رشيد ايوب ـ اغانـي الدرويش ـ قصيدة "يا ثلج".

كليا ادب اليوم. ان ادب اليوم قد بدأ يعي حقيقة الانسان ، ويدرك ان الانسان ليس طينا وجهلا وطلاسم بقدر ما هو مخلوق شاعر بظوفته في الحياة. وهل يضير ان يجهل من اين اتى ، والى اين يذهب؟ المهم انه وجد ، ولانه وجد يترتب عليه ان يكيّف نفسه حسب مقتضيات الوجود ، وهي التكاتف ، والتضامن ، والاخاء ، والمحبة ، والتعاون الوثيق بين البشر في سبيل الحياة الفاضلة التي ينشدها الناس منذ وجدوا .

(٤) الاتجاه القومي الوطني

اشرت في الفصل الخاص بالمؤثرات الى ان القومية كانت من اشد هذه المؤثرات فعلا في الادب اللبناني الحديث، واشرت كذلك الى ان الحركات القومية في البلاد العربية اتخذت قوالب كثيرة وتقلبت في حالات شتى، ولم يستقر لها قرار بعد في بعض البلدان . ولقد عرفت كل من النزعات القومية ادبا يمثلها، وهذه الاداب تمثل في مجموعها، على تباين روحها واهدافها، وحدة من الادب القومي لها اهميتها في الادب العربي الحديث خاصة، وفي الادب اللبناني خاصة. والى جانب هذه النزعات القومية نمزعة وطنية، هي ذلك الحنين وتلك العاطفة اللذان يربطان المهاجر ببلاده القديمة بعواطف متينة ظهرت في الادب المهجري بصورة جلية، وهذا ما حداني الى ان افرد لها في هذا الفصل مجالا خاصا .

النزعة العثمانية : بين الموالاة والمعارضة غفلت البلاد العربية عن قوميتها العربية ردحا . كان العرب يعتبرون بلادهم جزءا من الامبراطورية العثمانية لان "مرور الزمن" قد لقحها باللقاح العثماني . وقد ظهر هذا الشعور العثماني في الادب بمظاهر مختلفة : فالموالون قاموا يمدحون السلاطين وعمّالهم، ويرفعون التحية اثر التحية الى الجيش العثماني اثر انتصاراته، ويدعون اخوانهم الى الالتفاف حول "الدولة" واخلاص الود لها . "ولا ينكر ان من الشعراء من كان في هذه الاقطار صادق العقيدة العثمانية، اما لتأثيرها الديني في نفسه واما لاسباب اخرى . على ان الرهبة من الاستبداد او الرغبة في جر المغانم كانتا قبل العهد الدستوري من اهم الدواعي الى شيوع النزعة العثمانية في الادب العربي ." ١) اما المناوئون فلم يكونوا ليظهروا امتعاضهم من الاوضاع بطريقة سافرة لان مشانق عبد الحميد كانت تكشر عن انيابها دائما وتلتهم الابرياء بسرعة عجيبة، فكيف ب "المجرم" الذى يجسر على معارضة السلطان، والسلطان

خليفة الله ظل في خليقته ظلت به تتقى الدنيا وتستتر

---

(١) انيس المقدسي — جزء ١ — ص . ٢٠

كما قال ناصيف اليازجي ؟

من الادباء الذين اطلقوا في مدح السلطان والدولة عنانهم احمد فارس الشدياق . يقول من قصيدة : ١)

للدولة العليا علي مآثر يشدو بها يوم الفخار الاثر
ساست ممالك ليس يعلم حدها ولقانها الا العليم القادر
سر حيث شئت من البلاد فلا ترى الا النعيم وما اشتهاه الناظر

ويحاول سليم تقلا مؤسس الاهرام ان "يفلسف" الرابطة العثمانية فيقول ٢):
"ان في ممالكها المحروسة عناصر عديدة بين تركية وعربية وارمنية ويونانية وغيرها، وكذلك مذاهب مختلفة. ولكنها تجمعها جامعة واحدة وطنية هي الجامعة العثمانية، وهي دون استثناء تخضع لجلالة سلطانها وتصدع بامره وتنصاع لاحكامه. وهذه الجامعة كانت وتكون الحصن الحصين للرعية دون اطماع الدول، وما وراء العبث بها الا الخسران والضياع. واذا تبين هذا، وهو الحق الصراح، كان ابن مصر وابن الحجاز والعراق والشام اخوة لام هي دولتهم، واب هو جلالة السلطان."

واما الكلام عن السلاطين فكثير، ولله حافل بهذا النوع من الادب الرخيص الذى يجعل القارئ المخلص يذوب حياة وكأنه يبذل ماء وجهه مكان الكاتب . وان المرء منا ليعجب اليوم من اولئك الذين قبّلت جباههم الرغام بينما كانت اوروبا تنتفض في الوقت نفسه على الباغين وتؤدبهم بالعصي والحجارة والرصاص! فاسمع نجيب مشرق يقول مادحا محمد رشاد ٣):

لولا محمد الشماء سدته لم يحي شعب بني عثمان الامل
عصر الرشاد اماني البلاد على هداك يا باعث الدستور تتكل
فانهض بها وار الاعراب قاطبة والترك انك فيهم حبذا الرجل
واسلم فعصرك والفاروق جاء به نرى الهلال على مجلاه يكتمل

وهذا سليم جدى يقوم كلما اقبل وال وولى وال، يمدح السلطان، ويمدح الدولة باشخاص حكامها، فيقول مثلا بعد مدح عثمان نورى والي سوريا :

---

(١) احمد الشدياق في : المقدسي - جزء ١ - ص ١٥ .
(٢) سليم تقلا في : المقدسي - جزء ١ - ص ١٦ .
(٣) نجيب مشرق - المشرقيات - ص ٧٠ - ٧١

وبنعمة كبرى جزاك مليكنا ... فكفاك ما احرزت من انعامه
ظهرت كرامة ذاته في عصرنا ... حتى اختفت آثار فضل كرامه
لا بدع ان شمل الامان بلاده ... فقد استتب العدل في ايامه
واليمن خط لمن يرافق جيشه ... والفتح مرسوم على اعلامه ١)

ويا ليت المدح اقتصر على مناسبات تدعو اليه او تبرره . فان بعض الذين جعلوا همهم تسخير القوافي في ركاب الطغيان كانوا غالبا ما يجعلون الظروف العادية ، وهي ابعد ما تكون عن مجال التزلف ، مناسبات لمدح السلطان واظهار الخضوع له . من هؤلاء سليم جدى نفسه ، فقد خطب في جمعية "شمس البر" فخلص الى مدح السلطان قائلا ٢) :

كيف لا يهوى فؤادى وطنا ... لحليف التاج سلطان الانام
ايها العرش الذى خرت له ... عظماء الارض طرا باحترام
قمت اهديك الدعا متخذا ... فحض اخلاصي سبيلا للكلام
وهلال السعد منه ظهرت ... لبني عثمان انوار السلام
فهم في عصر سلطان له ... يخضع الدهر ويخشاه الحمام
لاترى الدنيا سواه سيدا ... فاذا دانت لديه لا تلام
فليدم للناس غوثا ما بدا ... نور شمس البر في جنح الظلام

وحتى الطغاة وجدوا من يكرمهم . يقول الياس فياض في جمال باشا ٣) :

يا جمال البلاد حسبك منا ... اننا لا نزال نرعى العهودا
انت ارسلت نحونا مثلما ارسل موسى الى اليهود دليلا
يا هلالا بافق عثمان يزهو ... لا ارانا الاله منك افولا

وكانت المناسبات لا تعدم الادباء المتعشمين فرصا ثمينة لاظهار ولائهم . ومن هذه المناسبات اعلان الدستور ، وزيارة الطيارين التركيين للبلاد العربية .

اما الدستور فقد حوّل تيار المدح الى ناحيتين : ناحية الدولة العثمانية وناحية جيشها . ففي الدولة يقول نقولا فياض :

---

(١) سليم جدى ـ ص . ٣٦

(٢) سليم جدى ـ ص . ٤٤

(٣) الياس فياض ـ ص . ٧١ ـ ٧٢

يا بني عثمان انتم امة — اصبحت موضوع اعجاب الامم
قل لاهل الغرب عنا حسبكم — ان للاتراك بأسا وكــــرم
حرروا الشرق وذى اعمالهم — جددت صبوته بعد الهرم
ولمن يطمع فــي تفــريقنــا — كان للتفــريق عهد وانصرم (١)

ويمدح امين ناصر الدين الجيش العثماني بقوله (٢) :

فدى لك يا جيش ابن عثمان انفس — كبار بها الابطال ما برحت تفدى
نهضت فقلبنا الارض مائدة الربى — واوشك صلد الصخر يبتلع الصلدا
فدم ايها الجند المظفر حاميا — حمى الملك توليه السعادة والمجدا

وعندما قام الطياران التركيان فتحي وصادق بزيارة سوريا ولبنان ، هتــف الادب لهما طويلا ، وسرت فــي الناس نشوة الظفر : كيف لا ، وهذان عثمانيان يحلقــان مع النسور ، وهما يبطلان الزعم القائل ان الغرب وحده يتقدم ، وان الشرق كتب علــيه الهوان ؟ قال خليل مطــران (٣) :

اقبلتما برعاية الرحمن — وقلوبنا لكما بغير رهان
انقذتما مجد الحمى من ريبة — وارحتما الصرعى من الاقران
يا ايها الضيفان جاءا من عل — حييتما يا ايها الضــيفــان
وافيتمانا من "فروق" بنفحة — تشفي النفوس كنفحة الريحان
قولا لها بالله ما احسستما — لقلوبنا في الجو من خفقان
قولا لها بالله ما لاقيتمــا — من معشر في حبها متفــان

وعندما ورد نبأ مصرع الطيارين تجلبب الادب بالحداد ... وراح الشعــراء يشيرون الى عظم الخطب الذى حل بالبلاد ، فقال الياس فياض (٤)

نبأ دهى الاردن وقع مصابه — وغدا يغيض النيل منه تألما
يا ايها البطلان حسبكما العلى — ذكرا وحسب المجد ان خلدتما

---

(١) نقولا فياض — رفيف الاقحوان — ص ٠ ٢٧ — ٢٩
(٢) امين ناصر الدين — صدى الخاطر — ص ٠ ٢٤ — ٢٥
(٣) خليل مطران —
(٤) الياس فياض — ص ٠ ٦١ — ٦٢

فتحي اطل من العلاء مكذبا ... من قال انا امة لن تقدما

من قال ان الشرق شعب غافل ... لا يستطيع مع الشعوب تقدما

ورثاهما امين ناصر الدين بقوله ١) :

ولما نعى الناعون فتحي وصادقا ... تصدعت الاكباد للنكبة العظمى

وكاد يغوص الشام في بحر دمعه ... وهز الاسى منه روابيه الشما

ولبنان ملتاع الحشى ، وعيونه ... تفيض وفي بيروت داهية دهما

فقدناهما فردين في ميعة الصبى ... على غير نيل المجد لم يعقد الحزما

وحتى الذين اظهروا تحررا وانعتاقا ، حتى الذين ثاروا غير مرة على انظمة الدولة العثمانية وبطش ولاتها ، حتى اديب اسحاق يدافع عن الوحدة العثمانية قائلا ٢) : "فمقصدنا السياسي تأييد الوحدة العثمانية من طريق التأليف بين قلوب العثمانيين ، والمدافعة عن مصالحهم من غير مبالاة باختلاف احوالهم وما يعتقدون .. فالوحدة العثمانية واجبة لانه لا بد للامة من وحدة تجتمع الكلمة عليها ، ورابطة تؤلف بين القلوب ، ومركز تنتهي اليه خطوط القوى . وليس للامة الداخلة تحت النسبة العثمانية من جامعة ممكنة غير تلك الوحدة المذكورة ، فانها موجودة والموجود لا يترك للمفقود . ثم انها متصلة الحاضر المنظور بتاريخ قديم مذكور ٣) وهي صفة لا بد منها ولا غنى عنها في قيام الدول ."

وقد شهد المهجر جماعات من اللبنانيين تميل الى تركيا . يقول توفيق ضعون في المنازعة الصحافية التي نشبت بين جريدة "الجديد" وجريدة "فتى لبنان" ٤) : "وكان رشيد عطيه ونجيب طراد يؤيدان الدولة العثمانية بصفة كون سوريا جزءا منها ، وان السوريين عثمانيون عليهم ان يكونوا الى جانب دولتهم ويعملوا بكل الوسائل على اصلاح ما فسد من شؤونها ، فاذا استجاروا بدولة اجنبية لحق بهم عار الخيانة واستبدلوا من الشركة المشرّفة العبودية المخزية ."

---

(١) امين ناصر الدين - الالهام - ص. ٤٣

(٢) اديب اسحاق - ص. ٤٧١

(٣) ؟؟؟؟؟؟؟

(٤) توفيق ضعون - ذكرى الهجرة - ص. ٢٤٨

اما المعارضون فقد كانوا ، كما ذكرت ، لا يستطيعون ان يجاهروا بمعارضتهم، الا من كان منهم في المهاجر بعيدا عن ان تطاله يد الاتراك. ومن الناقمين على العثمانيين سليم سركيس الذى قال ١) :

نرجو صلاح الترك قد خابت امانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العدل عن ظلم بذاهب
فانشد معي قولا ترد ده المشارق والمغارب
ليس العجيبة فقدها بل عيشها احدى العجائب

وعندما اخذ الاتراك يتهجمون على العرب في جرائدهم انبرى لهم جماعة من الشعراء والادباء مدافعين عن العرب دون ان يتجاسروا على الطعن بالاتراك. وفي هذا الموضوع يقول امين ناصر الدين - احد المتعثمنين - رادا على جريدة "اقدام" ٢)

اجهلت قدر العرب يا اقدام ولهم على هام النجوم مقام
اجهلت ما نالوه من شرف به يسمو الزمان وتفخر الايام
ارسلت يا اقدام سهم وقيعة لكن اعيد اليك وهو سهام

النزعة الشرقية والى جانب النزعة العثمانية نزعة ربيت جذورها على الحقد الذى ولّده في قلوب العرب الشرقيين تدخل الغربيين المستمر في شؤون بلادهم. فقد دخل الاستعمار الغربي مرحلة الذروة في اواخر القرن التاسع عشر ، فراح يقتطع من جسم الدولة العثمانية العضو اثر العضو : البلقان، الجزائر ، مصر ، تونس، الخ . اضف الى ذلك عاملا اجتماعيا جعل قلوب الادباء المحافظين ترقص "كالطير يرقص مذبوحا من الالم" : او وهو ما اصطلح الغرب على تسميته تمدنا . لذلك اتفق المحافظ مع الوطني على ذم الغرب ، فضرب كل على وتره ، ولكن الاوتار جميعا رجّعت نغما شرقيا عرف منه الادب اللبناني حصة كبيرة.

ومن ممثلي هذه النزعة الشرقية امين ناصر الدين . فعند اعلان الحرب الروسية اليابانية وبعد فوز اليابانيين هب عدد من الادباء يمجدون بطولة اليابان ويدعون

---

(١) سليم سركيس في : المقدسي - جزء ١ - ص. ١٧
(٢) امين ناصر الدين - صدى الخاطر - ص. ٩٣ - ٩٤

الشرق الى الاقتداء بالاخت الكبرى . يقول انيس المقدسي : ١) " فان الشرق العربي ، او قل العثماني ، عرته هزة وطنية عامة على اثر انتصار اليابان . وقد رددها الادب العربي عدة سنين بعد تلك الحرب . "

يقول امين ناصر الدين في هذه الحرب ، والقصيدة حوار بين فتى ياباني وحبيبته ٢) :

دعيني اشاطر قومي المجد حينما   يفر اخو جين ويقدم محرب
هناك اخوض الحرب حبا لموطني   واطعن طعن المستميت واضرب
وانظر من ابطالنا كل موكب   يصادمه من فيلق الروس موكب
الا ان ملقى الموت في ساحة الوغى   رهيب ولكن التخاذل ارهب
اذا وطني المحبوب ذل فانني   اعيش ذليلا والمذلة تصعب

الى ان يقول :

ورجّعت الاقطار صوت انتصارنا   ففي الشرق هزّاج وفي الغرب ندّب

وللتمثيل على النزعة الثانية ، اى نزعة الثورة على المدنية الغربية، اورد هذه الابيات لشبلي ملاط، وفيها وصف لفتاة تتيه عجبا بين المولّهين ، وكل يطمع منها بنظرة رضى ٣) :

ذاك ان حف ثوبها يتنهد   ذاك غالى بالتوريات وابعد
غمزات ليست بظرف تشهد   ابهذا يا قوم محلى ومقصد
للمسمى تمدنا غربيا ؟!

+ + + +

اين تلك الشمائل العربيه   اين تلك الابصار وهي حييه
اين تلك الاخلاق وهي ابيه   اين آداب قومنا الشرقيه
رحم الله مجدنا الشرقيا !

---

(١) انيس المقدسي ـ جزء ١ ـ ص . ٢٩
(٢) امين ناصر الدين ـ الالهام ـ ص . ٣
(٣) شبلي ملاط ـ ص .

النزعة العربية لن اسهب في الكلام عن النزعة العربية . لن اسهب ، لا لان الموضوع لا يحتاج الى اسهاب ، ولا لانه ليس به جديرا ، بل لان الاسهاب معناه الوقوف طويلا امام آثار ادبية ما زالت ، منذ اوائل القرن العشرين ، تتدفق وتتدفق ، وما تزال ، حتى امسى درسها يتطلب جهدا خاصا وبحثا يكون وقفا لها .

ان الشعور العربي قد خبت جذوته بعد الضربات التي نزلت بالعرب على ايدى الشعوبيين والعناصر الغربية والشرقية الغريبة التي احتلت البلاد ، فكاد الشعور العثماني يستأثر بالافئدة لولا نزوع البعض الى الشعور بواقعهم العربي . ولقد بدأ الشعور القومي العربي شعورا بكيان اللغة العربية ، يوم كان المصلحون يقوون دعائمها ليعيدوا اليها مجدا سابقا (١) . وما لبث هذا الشعور ان تطور عند البعض حتى اصبح شعورا بكل ما هو عربي : لغة وقومية واماني ... وقد غذى هذا الشعور السياسة الاحتقارية التي نهجها الاتحاديون حيال العرب ، فهب الادباء ، ومنهم من كان يدعو الى العثمنة ، يدافعون عن شرفهم ، مستعيدين في الاذهان امجاد الاجداد الذين شادوا للمجد قبابه . وقد زاد في اتقاد هذا الشعور الثورة العربية التي اعلنها الحسين ، والوعود التي القاها الحلفاء بانشاء امبراطورية عربية نظموا لها حدودها بواسطة سفير الانكليز في مصر !

كل هذا — بالاضافة الى الاحتلال والحركات الاخرى التي غذت الروح الوطنية — اثر في مجرى الشعور القومي العربي ، هذا الشعور الذى يشق طريقه اليوم بين عقبات كثيرة ، منها عقبات الشعوبية التي تحطم العرب والعربية والعروبة ، ومنها الحركات الانكماشية التي تغمط العروبة حقها اذ تحرمها ابناء لها في لبنان ومصر وغيرهما .

وليس ادل على انتشار النزعة العربية من ان بعض الادباء الذين كانوا يمجدون "العثمنة" قد اخذوا بالمبدأ العربي عند وعيه . من هؤلاء خليل مطران واديب اسحاق وغيرهما . يقول مطران (٢) :

داع الى العهد الجديد دعاك فاستأنفي في الخافقين علاك
يا امة العرب التي هي امنا اى الفخار نميته ونماك؟
يمضي الزمان وتنقضي احداثه وهواك منا في القلوب هواك

---

(١)

(٢) خليل مطران — جزء ٢ — ص ١٠

ولكن العرب خضعوا للاجانب صاغرين ، فاذا بهم ينسون عهدا لهم بالعز ماضيا ٠ ويذكرهم اديب اسحاق بهذا العهد ، يقول ١) : " شعلة سرت من الحجاز فانارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند ، واتصلت باطراف الفرنجة فملأتها نورا ونارا ، فهي بنورها تستضيء ، ومن نارها تقتبس ٠ ثم هبت عليها عاصفة الفتنة ، ونكباء المحنة ، فلم يبق من ذلك النورغير شفق التصور ، في افق التذكر ٠ فمن رأى العرب مئات من الرجال يقتحمون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وسلطنة الاكاسرة ، ينكرهم اذ يراهم الوف الوف يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت ٠ ومن سمعهم يقولون لاميرهم : ان رأينا فيك اعوجاجا قوّمناه بحد السيف ، يعجب من رضاهم بفساد الاحكام ، وصبرهم على التواء الحكام ٠"

ويلتفت خليل مطران الى طرابلس الغرب ، الى حيث حل الموت والدمار بحلول جحافل الطليان ، الى موطن الشهداء امثال عمر المختار ، فيقول مخاطبا المستعمرين ٢)

خلتم طرابلس الغنم المباح لكم　　وشر ما قتل الخدّاع ما غنموا
هناك يلقى سرايا كم وان ثقلت　　عرب صلاب خفاف في الوغى هضم
لله هبتهم ، لله غارتهم　　تحت الرصاص وفي اسماعهم صمم

ولم يكن المهجر عاقا بالعروبة ، بل شهد فرسانا لها صالوا فيه وملء حناجرهم اصوات تمجّد المجد العربي الاسيل ، وتدعو المعاصرين الى الاقتداء بالسلف ، وفي الدعوة بحة الاسى ونبرة اللوم ٠ وقد وقف الكثيرون من ادباء المهجر على آثار العرب في الاندلس يرثون اربابها ٠ يقول القروى واصفا اطلال الحمراء ٣) :

ان بالحمراء ارواحا مطيفه　　لم تزل تحمي ذرى القصر المنيفه
ارسلت من بينها عين الخليفه　　نظرات هن لعنات مخيفه :

لا يحييني سوى نفس شريفه

ابعدوا لبنان عني والشآما　　من ربوع الذل لا ارضى سلاما

---

(١) اديب اسحاق — ص٠ ٢٠٠ — ٢٠١

(٢) خليل مطران — جزء ٢ — ص٠ ٧٤

(٣) القروى — الاعاصير — القصيدة " ذكرى الاندلس "

وهذا ابو الفضل الوليد الشاعر اللبناني العربي يقول في قصيدة له عن قرطبة ١) :

اين الملوك بنو مروان ساستها يصحون قاضين او يمسون غازينا
واين ابناء عباد ورونقهم وهم اواخر نور كان يهدينا
تلك المساجد صارت للعدى بيعا بعد الائمة لا تهوى الرهابينا

ويقف شفيق معلوف في غرناطة مؤبنا ٢) :

لا عين غرناطة ولا اثر ولت فهيهات تنفع الذكر
اهكذا النسر بعد رفعته الى حضيض الهوان ينحدر
عابوك لما عدت محمحمة فيك جياد الاعارب الضمر
كل الحضارات في بداءتها بدو وفي عزها حضر
يا ساسة الاسد ليس من اسد فيك يحمي حياضك الذعر

ويقول نعمه الحاج مؤنبا قومه لصبرهم على الهوان ، مستشهدا بالتاريخ ٣)

يا معشر العرب كيف صبركم وذا مضام وذاك مضطهد
اترضون الخنوع عن جزع ام استهانت هوانها الاسد
اين الاباء الذى به اشتهرت آباؤكم ، اين منه ما ولدوا
هذى بطون التاريخ شاهدة فاستشهدوها عن الاولى شهدوا

النزعة اللبنانية

وما يقال عن اتساع آفاق النزعة العربية يقال كذلك عن آفاق النزعة اللبنانية . فقد بقي اللبنانيون عثمانيين حتى قامت بوادر النزعة العربية ، فاعتنق مبادىء هذه النزعة فريق كبير من اللبنانيين . ثم كانت الحرب العالمية الاولى ، وكان الانتداب ، وكان اعلان استقلال لبنان الكبير سنة ١٩٢٠ . عند ذلك شعر اللبنانيون بان لهم وطنا ذا حدود ، وبان لهذا الوطن الصغير امجادا رددت اصداءها الحقب ، وتراثا هو هذا المزيج الساحر من تراث فينيقيا والعرب . وكما

---

(١) ابو الفضل الوليد في : ضعون ـ ذكرى الهجرة ـ ص. ٢٧٥

(٢) شفيق معلوف ـ نداء المجاذيف ـ ص. ١٩ ـ ٢٣

(٣) نعمه الحاج ـ ص. ٢٧

عاد الادباء اللبنانيون العرب الى التاريخ يستلونه احيانا عظات الغابرين ، رجع الادباء اللبنانيون اللبنانيون الى التاريخ ينشرون اعلام فينيقيا . وفي هذا يقول شفيق معلوف ١) :

نداء تردد عبر الحقب — فدوّى له في الاضالع رجع
ومن ثلج صنين شب ملهب — وفي الارز حن الى الصوت جذع
نداء لحيرام ليام كان — يسوق الاعاصير بالصولجان
نداء بعيد يهز السفوح — فينجاب عن طلعة الفجر ليل
وتشهر صيدون سيف الفتوح — وتنقل في البحر رجلا جبيل
ويزرع ملكار من قلب صور — فجاج البحار وكور نسور

وان كان شفيق معلوف يوفق بين لبنانيته وعروبته ، ويؤمن بان للبنان وجها عربيا ٢) ، فان الكثيرين سلكوا احد النقيضين : ملهم من آمن بان لبنان ليس سوى فينيقيا، ومنهم من قال بلبنان عربي ليس له بالماضي السحيق اى عهد . وهاتان النزعتان تبدوان جليتين يوما بعد يوم ، وهما تتلبسان ، لسوء الحظ ، باثواب الطائفية : فاللبناني الفينيقي اجمالا مسيحي ، وان كان له مشايعون بين المسلمين ، واللبناني العربي اجمالا مسلم ، وان كان ثمة عدد غير قليل من المسيحيين يقول قوله . ولا يخفى ان كلتا الفئتين تحاولان ان تؤمنا الكيان الطائفي ، اذ ان المسيحي لا يريد ان يذوب في مجموع عربي مسلموه اكثرية ، كما ان المسلم يسعى الى اقرار كيانه بالانضواء تحت لواء العروبة . ولكن قولي هذا لا ينفي اطلاقا وجود نزعة قومية عربية مخلصة ونزعة لبنانية صادقة ، الا انه يخشى عليهما من ان تتحولا ، تحت تأثير العناصر الطائفية ، الى نوعتين مساندتين للطائفية .

وهناك فئة تنظر الى النزعة اللبنانية الانكماشية نظرة الحذر والريبة، ذلك ان بعض اصحاب هذه النزعة انتقلوا من حب لبنان الى حب فرنسا ، واعتقدوا ان لبنان واحة في صحراء ، وان هذه الصحراء مليئة بالضوارى التي لا ترى حرجا في الانقضاض على الواحة حتى دعا الداعي لذلك . لذلك وجب على لبنان ان يستند الى دولة تحميه ، وتكون له بمثابة الام في يوم الكريهة . وهل اجدر من فرنسا ، من ان تمثل هذا الدور ؟!

كثيرون هم الادباء الذين تكلموا عن فرنسا ... كثيرون هم الذين راحوا

---

(١) شفيق معلوف ـ نداء المجاذيف ـ ص . ٧ ـ ٨

(٢) اهدى شفيق معلوف كتابه "نداء المجاذيف"

الى لبنان ، البوتقة التي ينصهر فيها مجدان : مجد فينيقيا ومجد العرب

يستخلصون من الثورة الفرنسية العبر ... هؤلاء لم يأتوا منكرا لانهم رددوا ما رددته الاجيال عبر الاقطار المختلفة. ولكن فئة من الادباء جعلت ديدنها ان تنصب من اقلامها ابواقا للمحتلين، فاخذت تمدح المفوضين، وتشيد بالدور التمديني الذى لعبته فرنسا في لبنان وتلعبه في العالم. ومن هؤلاء الياس ابو شبكه الذى يقول في كتابه "روابط الفكر والروح بين الشرق والغرب" ١): "ومن الانصاف ان نعترف بان الفرنسيين ابناء الثورة الكبرى مشوا على سنن آبائهم فلم يستخدموا القوة المادية الا في النادر القليل، ولم يخلقوا عبيدا في اى بلد من البلدان التي بسطوا عليها نفوذهم، بل قضوا على العبوديات القديمة في كل مكان حتى في ساموري السوداء ... لقد واصلوا بروح الديموقراطية الانساني ما بدأته رسالاتهم بروح الدين، فبنوا قليلا من السجون والثكنات وكثيرا من المستشفيات والمدارس والمياتم والمؤسسات الزراعية. واعطوا اطباء للمرضى وعيادات للجرحى، وملاجئ للعجز. وكافحوا الاوبئة وقضوا عليها، وفتحوا سجون الذكاء، تلك السجون التي كانت الارستوقراطيات المختلفة قد سجنت فيها الفكر البشرى، وبروح من العدل والمثل العليا اعلنوا المساواة بين جميع الاجناس على تباين الوانها." ٢)

وفي المهجر فئة سلكت على نهج المقيمين الموالين، فنزعت الى موالاة فرنسا والتغني بكرمها الذى لولاه لما قبلت ان تنفحنا بجودها وتحمينا. فلنسمع مسعود سماحه يقول ٣):

يا ايها الجبل الذى لولاه لم	اسبل دموع تأوه وتحسر
غمرتك سيدة الشعوب بجودها	فاهنا بعصر النور فيك وبشّر
فمثلث الالوان يرسل نوره	لاخي الوفاء وناره للمزدرى
غورو فتحت قلوبنا وحللتها	خملا وانت ذلك الفرد الجرى ٤)
ما انت فيه فاتح مستعمر	بل انت خصم الفاتح المستعمر

ولست بحاجة الى الوقوف طويلا امام هذه المقطوعة، ففيها من التلوّن والخطأ ما لا يخفى على احد.

---

(١) الياس ابو شبكه — روابط الفكر والروح — ص. ٦٠ — ٦١

(٢) ان في هذا الكلام لتحيزا ملحوظا، خصوصا في ما يتعلق بالحرية والقضاء على العبودية.

(٣) سماحه — ص. ٧٢ — ٧٥

(٤) لا بد لي من ان اذكّر بان غورو هو الذى وجه الحملة على سوريا في مطلع الانتداب!

وعندما صممت على ان اقرأ في "مجموعة الرابطة القلمية" قطعة وليم كتسفليس التي فيها يتحدث بلسان خطيب يخطب سنة ٢٥٢٠ ، لم يكن ليتبادر الى ذهني ان هذا الكاتب المهجرى سيصل الى درجة التذلل لفرنسا، وهو الذى يتبجح في القطعة بحرّية الرأى طاعنا التعصب والجهل، فوقع في ادهى من التعصب والجهل، وقع في ما يقرب من الخيانة! يقول بلسان خطيبه ١) : "في الجيل العشرين وفي بلادنا هذه عينها ثارت ثائرات القوم وهدرت الدماء لانتداب فرنسا الوصاية عليهم ، مع ان فرنسا كانت ارقى امم تلك العصور ، وما ذلك الا لان اغلب سكان سوريا كانوا من المحمديين فرغبوا عن فرنسا لا لذنب ارتكبته او لقصور اظهرتـــه ، بل لانها على غير مذهبهم الفلسفي الذى كانوا يسمونه دينا ." واصحاب هذا النوع من الكلام يحاولون ان يخفوا ما استطاعوا عنصر الانتفاض في الشعب ضد كل قوة او سلطة ترمي الــــى اذلاله .

هذا ما كان من امر النزعات القومية في لبنان في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهذا ما كان من تأثير هذه النزعات في الادب اللبناني . وما يزال بعض هذه النزعات يتجاذب لبنان اليوم ، سرا او جهرا ، ويتخذ من بعض المتعصبين الجهلة انصارا يتناحرون .

+ + + + + + +

الوطـــــــــــنية

وانتقل الان الى موضوع له بالقومية علاقات روحية ، اعني به الوطنية ، او ، بكلمة اوضح ، ذلك الشعور الذى عرف به المهاجرون بالتغني بلبنان ، والحنين الى ربوعه ، والتأوه على بعض الاحوال الشاذة التي يتخبط فيها . وان كنا نرى في هذا الباب احيانـا نقدا للبنان وابنائه ، فان هذا النقد منبعث عن المحبة، من العطف : انه قضيب الوالـــد وثرة المعلم وعتب الابن .

---

(١) وليم كتسفليس في : مجموعة الرابطة القلمية — ص ٢٠٥

الحزن لفراق الوطن والاهل والخلان

ان بعض المهاجرين هاجروا لاسباب نفسية جعلتهم يشعرون بغربتهم في وطنهم . ولكنهم هاجروا وفي قلوبهم اسى وحسرة . يقول فوزي معلوف ١) :

لهفي للربوع تضحي وتمسي وهي خلو الا من التنكيد
ينزع الساكنون عنها – ووجه الارض رحب – الى المزار البعيد
هجروها وماء ها وهواها لم يطيقوا فيها هوان القعود
ودعوها والدمع ملء الاماقي لنواها والنار ملء الكبود
ولو ان الاصم يسمع صوتا صرخوا بالبواخر الصم : عودي

والوطن قتّال بحبه ، ولو كان احيانا يميل عن فراخه اما قسرا واما جهلا .
يقول فوزي معلوف ٢) :

مهما يجروطني علي واهلة فالاهل اهلي والبلاد بلادي
ارثي لبؤسهم واندب حالهم بفمي ، وارثي حظهم بمدادي
قسما باهلي لم افارق عن رضى اهلي ، وهم ذخري وركن عمادي
لكن انفت بان اعيش بموطني عبدا ، وكنت به من الاسياد

في المهجر : اسى وتذكر وعندما يصل المهاجرون الى مهاجرهم يستعرضون الاحوال التي دفعتهم على اكف الموج الى ارض غريبة . فيفسرون ، ويعللون ، ويخلصون اخيرا الى ان رؤية الوطن تساوي ذهب الدنيا . يقول نعمة قازان ٣)

هجرت وللنفس اطماعها واني مع الحظ في هجرتي
فلا المال اشبع من جوعتي ولا المجد اطفأ من غلتي
غريب اراني على ضفة كاني غيري على ضفتي
فحتى السواقي اذا نعمت كان السواقي بلا نغمة
وحتى الحساسين لو غردت كان الحساسين في لجة

وتمر في مخيلة الشاعر القروي صور الماضي الحبيبة ، فاذا به امام النهر

---

(١) فوزي معلوف في : ذكرى فوزي معلوف – ص . ٢٩
(٢) فوزي معلوف في : ذكرى فوزي معلوف – ص . ٣٠
(٣) نعمة قازان – معلقة الارز – ص . ٦٠ – ٦٢

يرتح . واذا صوت ينبعث هدارا قاسيا يدعو الى الرحيل ١) :

في ظل روض ظليل	والماء عن جانبينا
وللنسيم العليل	روح ترف علينا
لم يمض غير القليل	والحظ عبد لدينا
حتى دعا للرحيل	داعي النوى فمضينا

اين السعادة اينا ؟

+ + + + + + + + + + +

في البيت ، في الوطن الام	والعود غض وريق
والشمل عقد منظم	ام ، اب ، وشقيق
اميركا ، ليتها لم	تفتح اليك الطريق
من بعد ذاك الهنا كم	لوّعتنا فبكينا

اين السعادة اينا ؟

ويتوهم البعض ان المهجر جنّات نعيم وغنى ، فليس على الانسان فيها ، الا ان ينحني ليلتقط الذهب . ولكن المهجر ، في عرف الذين اصابتهم لوعته ، هو غير هذا : انه بلاد غريبة عنك لسانا وعنصرا واهدافا واخلاقا ونفسا ، انه بلاد تفتح لك صدرها لتضمك ، ولكنها غالبا ما تضمك لتعصرك. قال المثل : "ليس نبي مكرما في وطنه" ، ولكن المهاجرين تلقوا في هجرتهم اماثيل تكذب المثل السائر ، فشعر شفيق معلوف بان

للنفس في اوطانها حرمة	ضائعة في غير اوطانها ٢)

وشعر القروي بان طريق الهجرة وعرة المسالك ، فلا المهجر يحويك بعطف ، ولا المال ينال بغير الخساسة وبغير الشقاء ٣) : نْ

نأت عنك الاحبة والديار	فدمعك والاسى وطن وجار
وشط بك المزار فليس الا	صدى ما ابقت الذكرى مزار
دفنت ربيع عمرك في بلاد	لها طالت لياليك القصار

---

(١) القروى — القرويات — ص. ٣٧ — ٣٨

(٢) شفيق معلوف — عبقر — ص. ١٦٩

(٣) القروى — القرويات — ص. ٥٣ — ٥٦

بلاد ربما فيها كرام — ولكن اللئام بها كثار
اذالم تحو تربتها حجارا — فبين ضلوع اهليها الحجار
اروم الى ربى لبنان عودا — ويمسكني عن العود افتقار
وكيف اطيق للاثراء سعيا — وهذا الاوج سلّمه الصغار ؟

الحنين الى لبنان وهناك ، في الافق البعيد ، جلس المهاجرون وعيونهم وقلوبهم الى لبنان ، الى كوخ في قرية ، الى عرزال في صنوبرة ، الى عين ماء ، الى نسيم له بين النسائم لحن خاص وشذى خاص . فاذا بهم يبنون في احلامهم ما كان لهم بالامس في لبنان ، فيسعدون هنيهة ليعودوا بعدها الى مرارة الواقع ، الى عالم الاعمال في دنيا غريبة . وهكذا يخاطب القروى ذلك المحظوظ العائد الى بلاده ١) :

واذا مررت بمضرب الامواج قف — عند "الوطا" بالمنزل المهجور
فهناك بين جبيل والبترون لي — عهد يقوّم يومه بدهور
وسل الشواطىء والكروم عن الالى — كانت تقر بهم اعز الدور
حيث السماء بظل كل عريشة — حيث الملاك بوجه كل صغير

فهناك ... هناك فحسب ، كان للحياة رونق .. هناك كان النسيم نسيما ، والبحر بحرا ٢) :

يا نسيم البحر البليل سلام — زارك اليوم صبك المستهام
طالما زرتني اذا انتصف الليل بلبنان والانام نيام
ورفعت الغطاء عني قليلا — فاحست بمزحك الاقدام
يا نسيم المحيط ما هكذا في — ساحل البحر عندنا الانسام

ومثل هذا الشعور الذى يختلج في صدر القروى شعور مماثل يتأجج في قلب نعمه قازان ٣) :

تغنيت بالارز . ما حيلتي — اذا الارز طابت به نغمتي ؟
اذا نبت الارز في مهجتي — فماذا علي طيّب المنبت ؟

---

(١) القروى — القرويات — ص . ٣٢
(٢) القروى —
(٣) نعمة قازان — ص . ٥٩ — ٦٠

ولبنان ؟ امي به حفنة　　　سقتك السماوات يا حفنتي
واهلي ! وماذا اقول باهلي ؟　　　وماذا اقول بمحبوبتي ؟
اقول : بقاع الدنى حلوة　　　واحلى بقاع الدنى بقعتي .

ويتذكر فوزي معلوف واديه فيقول ١) :

واطول شوقي ٢) الى الوادى　　　وادى الهوى والحب والشعر
ملهى صباى وملهى ميلادى　　　وعسى يكون بحضنه قبرى
واها على الماضي وايامه　　　ما كان اسعدها واقصرها

واختم هذا الموضوع بمقطع لشكرالله الجر ٣) :

بالله يا لبنان　　　يا كوكب الافلاك
هل يسمح الزمان　　　يوما بان نراك
ان تخت الاجسام　　　فالروح في راحك
في موكب الايام　　　تمشي بافراحك
كلما زدنا اغتراب　　　زادنا البين هيام
ولكم زرناك يا لبنان والناس نيام

واذا ما زار احدهم وطنه ، فانه يناغيه كما فعل ابو ماضي ٤) :

وطن النجوم انا هنا　　　حدّق ... اتذكر من انا ؟
المحت في الماضي البعيد　　　فتى غريرا ارعنا ؟
جذلان يمرح في حقولك　　　كالنسيم مدندنا ؟
لا يتقي شر العيون　　　ولا يخاف الالسنا ؟
ولكم "تشيطن" كي يدور القول غنية "تشيطنا"
انا ذلك الولد الذى　　　دنياه كانت ههنا

---

(١) Faiez Aoun - Fawzi Ma'alouf - P. 176

(٢) الاصح : اشواقي ، كي يستقيم الوزن .

(٣) شكر الله الجر في :ضعون — ذكرى الهجرة — ص . ٤٥٥

(٤) ايليا ابو ماضي — جريدة السمير — عدد ٢٦ كانون الثاني — ١٩٤٨

التأثر بحياة المهجر ولكن المهاجرين رأوا في المهاجر اناسا يسعون الى اعلاء شأن بلادهم ، يبذلون الجهود لحياة افضل وكرامة حصينة الحياض .

والتفتوا الى لبنان فرأوا تركيًا يدوس رقاب الناس ويركل الكرسي من تحت اقدام الشهداء ، او فرنسيا يضرب بنعومة ويضطهد سرا لئلا يقال عنه انه خشن ، وتعصبا اعمى يؤلب الاخ على اخيه . فلا عجب اذا اذا ارسلها المهاجرون صيحة استياء من اوضاع بلادهم ، ودعوة الى الاحسن والاشرف . وهم في هذا مسيرون بالعاطفة نحو وطنهم . يقول شفيق معلوف (١) :

وطني موطىء الغريب ولا املك منه حتى الحصى والترابا
ورده في فم الدخيل فما يممت وردا الا وجدت سرابا
ملأت جونا العناكب نسجة يوم بتنا للعنكبوت ذبابا

ويقول مسعود سماحه (٢) :

نفسي فداء ربوع راق سلسلها وسال ذوب لجين في مجاريها
مالت عليها صروف الدهر جائرة فزعزعت ما تسامى من مبانيها
ساد التعصب داء في معالمها وعم — مثل هواها — كل اهليها
فدك ما دك من عمرانها وقضى واحسرتاه ! على امجاد ماضيها

ويحلل نعمه الحاج اسباب التقهقر في البلاد راسما لها اصدق صورة (٣)

وهذا يريد بريطانيا وذاك فرنسا وذا العم سام
وهذا الثلاث وذاك اثنتين وذا ليس يرضى بغير الامام
وهذا يقول اتركونا فانا لاهل لكل الامور الجسام
اضعنا الحقوق بهذى الفروق فيا ابن فروق بلغت المرام

واخيرا يقول فوزى معلوف (٤)

لا المجد في الارض يغنيني ولا الذهب
ان لم يكن في بلادى المجد والنسب
ولا السعادة بين الناس تقنعني ان كان من حظ قومي الضيم والنصب

---

(١) شفيق معلوف — نداء المجاذيف — ص . ٣٢

(٢) مسعود سماحة — ص . ٥٤

(٣) نعمة الحاج — ص . ١٦

(٤) فوزى معلوف في : البدوى الملثم — شاعر الطيارة — ص . ٢٩ — ٣٠

الناس نحو الترقي سيرها خبب ونحن نحو التلاشي سيرنا خبب
والجهل والدين والاهمال علته وليس علته غاز ومنتدب
ايه بني وطني والناس قاطبة لرفع اوطانها قامت لها اهب
هبوا الى المجد ولننشئ لنا وطنا قوامه العلم لا الخطية القضب

امنية المهاجر الاخيرة حتى اذا ما انقضى العمر دون بلوغ الارب ، وكتب على اللبناني ان يخر في مهجره ، طلب هذا الى بني امه قبل سقوطه ان ينقلوا رفاته الى لبنان ويواروه في ثراه (١) :

فاحفروا قبرى بجانب خيمتي عند الكروم
حيثما كنت اراقب في دجى الليل النجوم
لا انام ...

---

(١) رشيد ايوب — اغاني الدرويش — ص ١١٠

(٥) الاتجـاه الطبيعـي

خضعت الاتجاهات التي سبق الكلام فيها الى مؤثرات افردت لها فصلا خاصا عرضتها فيه باسهاب . ولم اذكر في فصل "المؤثرات" ما قد يكون اثر في الاتجاه الطبيعي . بيد انني ذكرت في كلامي عن اثر العلاقات بين الشرق والغرب ١) ان العرب ترجموا في نهضتهم الكثير من آثار الغرب الادبية ، وتأثروا بمواضيعها واساليبها وطرقها ، كما تأثروا بنظر الادب الغربي الى الحياة بكل ما يحيط بها .

ليس الاتجاه الطبيعي اتجاها جديدا في الادب العربي . فلا نقول اذا ان هذا الاتجاه قد دخل الى ادبنا مع ما دخل من المواضيع الجديدة . ولكن هذا الاتجاه يحتل مكانة مرموقة في الادب اللبناني الحديث ، وهو يسير باتجاه جديد ، وهذا ما يجعلنا نعتقد ان ثمة مؤثرات خارجية اخرجت هذا الاتجاه من الجمود الذى وقع فيه في ايام الانحطاط ، واخرجته عن طرقه القديمة المتبعة سالفا . ويقيني ان المؤثرات هنا كامنة - في قسمها الكبير - في ما نقل الى العربية من آداب الغرب ، وفي ما اطلع الادباء اللبنانيون عليه في مصادره . وكيف لا يتأثر هذا الاتجاه بادب الغرب، وقد ترجم العرب - اكثر ما ترجموا - تلك القصائد الخالدة التي ابدعها الشعراء الرومانطيقيون؟ والشعر الرومانطيقي يتجه غالبا الى معايشة الطبيعة وكأنها رفيق امين ٢) . وليس من المستبعد ان يستمد الشاعر اللبناني من هذا الجو الرومانطيقي حب الطبيعة ، وان ينظر بالتالي الى الطبيعة نظرة جديدة : بينما كانت الطبيعة قديما صورة يعكسها الشاعر دون ان يعكس نفسه معها فيّ اكثر الاحيان ، اصبحت الان كائنا حيا يعيش الشاعر بجواره : فالصخر يشعر ، والزهر يحس ، والمياه كلها حياة ، والاشجار ، حين تهمس ، انما تنقل الى الشاعر اسرارا واسرارا حسبه منها انها خير دواء لشجون قلبه . لقد بلغ من تعصب البعض للطبيعة وتولهه بها - كالكائنات النباتية والحيوانية ، والحياة الريفية - ان راح يدعو الى حياة بعيدة عن ضوضاء المدن ، الى حياة في احضان الغابات والقرى الامنة ، بعيدا عن مستحدثات الحضارة . وهكذا نشأ تجاوب بين الادب والطبيعة ، تجاوب

---

(١) راجع الصفحة ٧٧ من هذا البحث .

(٢) مثلا قصيدة "البحيرة" للمارتين . ترجمها الدكتور نقولا فياض .

كان من شأنه ان يجعل الاديب يفصح امام الطبيعة عن نفسه ، فبتنا نراها سافرة ازاءها لا غش فيها ٠

الطبيعة كائن حي كثيرا ما يرى الكاتب نفسه مضطرا الى الهرب من واقعه الى حيث يسبح في جو صريح لا يفصد عليه طهره شر وخبث وخداع٠ ولا يجد خيرا من الطبيعة يأنس اليها ، فهي تسمع وتعي ، وان تكلمت ، فانما تتكلم بغير اللوم والوشاية ، تتكلم لتؤاسي ، تتكلم لتصلح ، تتكلم لتشتكي ٠٠٠

وشعر الكاتب في خلوته بالطبيعة بان هذه كائن حي مثله٠ لقد لمس حيويتها في غناء الجنادب المستمر ، وفي اغاريد الطيور ، وفي تمتمة الساقية في الوادي ، وفي تمايل الدوح امام النسيم ، وفي الصدى الحنون ، صدى اصوات النعاج الثاغية في مرج اخضر ٠ فاذا بالطبيعة ، هذا الكائن الحي ، يرحب بالربيع (١) :

الثرى والشجر	رحّبا والبشر
واطل القمر	سابحا في السماء
كسفين يعوم	في خضم الغيوم
وضياء النجوم	بدد الغيهبا
وتغنى الغدير	هازجا بالخرير
ذهب الزمهرير	وتولى الشتاء

والنسيم العليل ، كم انّ شقيا والها امام فتاة (٢) :

انني خلته يئن حواليك	ويبكي في شعرك المسدول
وبانفاسه يداعب خديك	حبيا كراغب التقبيل

وهو ذا الليل يسمع ويعي ٠ هوذا ينحني فوق الانام مصغيا الى انّاتهم (٣)

سمع الليل ذو النجوم انينا | وهو يغشى المدينة البيضاء
فانحنى فوقها كمسترق الهمس يطيل السكوت والاصغاء

اما الازهار الطاهرة ، فانها تنام جنبا الى جنب على حافة النهر ،

---

(١) نعمة الحاج - ص٠ ١٠٠

(٢) فوزي معلوف في : ذكرى فوزي معلوف - ص٠ ٢٥

(٣) ايليا ابو ماضي - الجداول - ص٠ ٢٢

مصغية الى الحانه ١) :

اجفلتها وهي بمهد السلام على ضفاف الكوثر العذب
آمنة تحت ظلال الغرام نائمة جنبا الى جنب
ناعمة الابدان طيبة النشر
كوّنها الرحمن من معدن الطهر
نامت على الحان حورية النهر
وجادها في الليل حب الغمام ما شاء من لؤلؤة الرطب

حتى اذا ما انفتق الشاعر من واقعه ، وذاب في اشراق الطبيعة ، ثم التمازج بين الحاضن والمحضون ، فاذا بالروض والندى والظلام وغيرها اشخاص تواكب الشاعر ٢) :

وقفت سعاد تسامر القمرا وللليل يسمع ذلك السمرا
والروض قد رشفت ازاهره خمر الندى فاختال اذ سكرا
قالت : تبارك من حباك سنى يجلو الظلام ويخطف البصرا
يا ساهرا والناس قد رقدوا اني احب لاجلك السهرا

+ + + + + +

سكتت فقال الليل مفتخرا حسبي فلي قمران قد سفرا
هذا يسامر ذاك مبتهجا وكلاهما بسميره سحرا
وارى لعمر الحق خيرهما قمرا حوى العينين والشعرا

الحوار بين الشاعر والطبيعة وليس عجيبا بعد هذا ان يدور الحوار بين الانسان والطبيعة . افلم يشعر الانسان بان الطبيعة كائن حي ؟ افلم يؤمن الانسان بان هذا الكائن الحي يسمع ويعي ويتكلم ؟ فلم يجفوه اذا ولا يجاذبه الكلام ، علّه يحظى منه ببلسم لجروحه ؟ لقد جرت بين الشاعر والطبيعة احاديث واحاديث ، كشف فيها الشاعر عن خفايا قلبه . يقف ميخائيل نعيمه امام نهر متجمد ، فتعود به الذاكرة الى ،

---

(١) القروى ــ القرويات ــ ص ٢٠٠

(٢) امين ناصر الدين ــ الالهام ــ ص ١٣٠ ــ ١٣١

عهد ماض، ايام كان النهر يسيل مترنما ، مفرجا عن الشاعر كربته ١٠) :

يا نهر هل نضبت مياهــك فانقطعت عــن الخــرير؟
ام قد هرمــت وخــارعــزمك فانثنيت عــن المســير؟

بالامس كــنت مرنمــا بين الحــدائق والــزهــور
تتلــو على الدنــيا وما فيها احــاديث الدهــور

بالامس كــنت اذا سمعت تنهـــدى وتــوجعـــي
تبكــي ٠٠٠ وها ابكـي انا وحدى ، ولا تبكــي معـــي

واذا وجد امين ناصر الدين ان الافصاح عن الرأى امر فيه مدعاة للوم لجأ الى القمر يناجيه شاكيا ٢) :

ملك الدجى هل بلملوك علاكا — وسناؤك السامي وجـم سناكا ؟
تخذ الملوك الارض مملكة لهم — هيهات ليست ارضهـم كسماكا
وسروا لحرب اذ سريت مسالما — شتان ما اسراؤهـم وسراكـــا
زعمــوا مساواة ولكن لـم يزل — هذا بهم يعلى ويخفض ذاكـــا
واضأت انت فما خصصت مواضعا — في الارض دون مواضـع بضياكا
يبدو على الهضبات نورك ساطعا — ويمد نحو سفوحها اســلاكـــا

وينظر خليل مطران الى الكوكب ، فاذا به ، مثله ، ساهد حيران ، فيقول ٣)

ارى مثل سهدى فـي الكوكب — احل بــه مثل ما حــل بــي ؟
يهيم هــيامــي من وجـــده — ويهرب من مهــدع مهــربــي
فيا لك من صامــت ناطـــق — ويا لك من معجــم معـــرب
وبي مثل ما بك معن شاغـــل — ولي مثل ما لك مــن مـــأرب

ويقف نقولا فياض حائرا ٠ ترى ، ما الكون ، وما وراء الكون ؟ انه يخاطب

---

(١) ميخائيل نعيمه ــ همس الجفون ــ ص٠ ١٠ ــ ١١
(٢) امين ناصر الدين ــ الالهام ــ ص٠ ٤٠ ــ ٤١
(٣) خليل مطران ــ جزء ١ ــ ص٠ ٢٩ ــ ٣٠

الليل مستفهما ، محاولا ان يستجليه خفايا الكون ١) :

خفـف الوطء علـيا
علني افهم شـــيا
منك يا ليل .

كلما انعمت فيك النظــرا
لارى ما لا يـــــــرى
خلت اني بالغ تلك الحدود والسدود
خلف غابات الظنـــون
فاذا بي حاسر الطرف كليل
دمك الاسود من عيني يسيل
حرقا تحت الجفون .

ويخاطب جبران سعاده المهجرى الروض قائلا ٢) :

يا روض هلل ما تشاء مرحبا	رضي الحبيب وفارق القلب الضنى
ولقد تحاتبنا وكان عتابنـا	الله لو شاهدتـه ما احســنا
شرب النسيم دموعنا فتحولت	ذراته عطـرا تفاوح حـــولنا
يا روض سلني ما الهناء ومن ترى	مثلي جـدير بالحديث عن الهنا

وقد شجعت بادرة الكتّاب هذه الطبيعة على الخروج عن وقارها وصمتها ، فباتت ترى فـي الشاعر الناقم احيانا مخلوقا يدفن فـي قلبه السر ، فراحت تشكوه همها وظلم الناس ٣) :

نظرت وردة الي وقالت	انت مثلي فـي الكون للكون كاره
فلماذا تلومـني وبكائـي	كان ممـا اخـاف من اخطـاره
ويح نفسي من الربيع ففيه	اجتنى بـين آسه وبهــاره

---

(١) نقولا فياض ـ رفيف الاقحوان ـ راجع ص ١٠٩ و ص ١٢٦

(٢) جبران سعاده في : توفيق ضعون ـ ذكرى الهجرة ـ ص ٤٥٢

(٣) فوزى معلوف في : ذكرى فوزى معلوف ـ ص ٢٠

ومن الصيف فهو يحرق اكمامي — على رغمها بلفحة ناره
والنسيم البليل؟ هل هو الا — قاتلي بين وصله ونفاره ؟
يتصابى حتى اسلمه نفسي — فيجفو والعمر ملء ازاره
ثم يرتد وهو ريح فيرديني — ويمشي مهينما بانتصاره

وهنالك شجرة قطعتها يد الانسان تبكي حزينة وتحمل على الظالم الذى اودى بحياتها ١) :

قد كان رأسي في السما ء يطاول القمر المنير
تلقي عليّ الشمس اول نظرة عند البكور
تشدو الطيور على غصوني فوق مصطفق الغدير
فكأنني الفردوس يرتع فيّ ولدان وحور
ما زلت اهزأ بالصواعق والعناصر والعصور
حتى دنا من ساحتي — قرد بلا ذنب حقير
قزم قصير بات طرفي عن تبيّنه حسير
واتى بمنشار كشدق الحوت يسطع منه نور
وهوى على جذعي به — حتى غدوت على شفير

ايحاء الطبيعة — ولكم اثار صوت طير ذكريات مؤلمة في قلب الشاعر ، ولكم اثار منظر الطبيعة لواعج النفس الساكنة الى آلامها . فاذا ما تساقط الثلج ، تذكر رشيد ايوب لبنانه وخلانه في لبنان وصاح ٢) :

يا ثلج قد هيجت اشجاني — ذكرتني اهلي بلبناني
بالله عني قل لجيراني — ما زال يرعى حرمة العهد

+ + + +

يا ثلج قد ذكرتني الوادى — متنصتا لغديره الشادى
كم قد جلست بحضنه الهادى — فكأنني في جنة الخلد

+ + + +

---

(١) القروى ـ القرويات ـ ص . ٧٩ ـ ٨٢

(٢) رشيد ايوب في : مجموعة الرابطة القلمية ـ ص . ٣٠٦

يا ثلج قد ذكرتني الموقد ايام كنا حوله ننشد
نحنو لديه كأنه المسجد وكأننا النساك في الزهد

المطالبة باللجوء الى الطبيعة ــ تمجيد القرية اغرق البعض في اتصالهم بالطبيعة حتى امسوا يرون الخير كل الخير في ملازمتها .

وقد اطلق نعيمه سلسلة من الاقوال في قصته "ساعة الكوكو" وهي كلها ترمي الى تأليه الارض وجعلها اما حنونا . من هذه الاقوال ١) : "من الارض لباسك ، ومن الارض غذاؤك، ومن الارض مأواك . فما اجهلك تحتال على الحياة لتحصل على لباسك وغذائك ومأواك من غير ان تلمس الارض ." و ٢) : " اذا دفنت في الارض حبة فاعطتك عشر حبات ، فاين هو الرجل الذى يجسر ان يدل عليك باصبعه قائلا : هوذا سارق ؟ " وهو يقول اخيرا ٣) : "ان في التراب لعطرا لا تعرفه حوانيت العطارين ."

وقد انتقل حب الكتاب من الطبيعة الى القرية ، وهي بنت الطبيعة . فكان للقرية في ادبنا الحديث مركز هام، ان في الادب الشعبي او في ادب الفصحى . يقول انيس المقدسي ٤) : "على ان للشعر القروى في لبنان صبغة خاصة يمتزج فيها الوصف بشيء من الاعتزاز الوطني . فاللبناني فخور بجبله وبالحياة المرحة فيه ." لقد عبر الادباء الشعبيون عن حبهم للقرية ــ وهم غالبا من ابنائها ــ بقصائد رقيقة لم تترك ناحية في القرية الا وخاضتها : العين ــ الصاج ــ الكرم ــ المحدلة ... وعلى رأس الادباء الشعبيين الذين يمجدون القرية اميل مبارك في كتابه "اغاني الضيعه" .

اما ادباء القرية في باللغة الفصحى فمنهم ــ بل اشهرهم ــ الياس ابو شبكه . لقد كرّس هذا الشاعر كتابه "الالحان" للتحدث عن القرية : عما فيها من جمال ، وسذاجة، وبهاء ، وعما في رنة الناقوس، عند الغروب ، من جرس خاص في القلب ٥) :

اسجدى لله يا نفسي فقد وافى المغيب

---

(١) ميخائيل نعيمه ــ كان ما كان ــ ص . ١٣ ــ ١٤

(٢) ميخائيل نعيمه ــ كان ما كان ــ ص . ١٤

(٣) ميخائيل نعيمه ــ كان ما كان ــ ص . ١٤

(٤) انيس المقدسي ــ الجزء ٢ ــ ص . ١١٨

(٥) الياس ابو شبكه ــ الالحان ــ ص . ٥٦

اسمعي الاجراس في قبة دير الراهبات
يحمل الوادى صداها للنفوس الزاهدات
فيه اصوات حنان وبقايا زفرات
صعّدتها راهبات الدير قدام الصليب
اسجدى لله يا نفسي فقد وافى المغيب

ويذهب به اندفاعه الى المطالبة بالغاء ما ادخل على القرية من الوسائل الحديثة كالكهرباء ، لان هذا يشوه جمال القرية الفطرى • يقول ١) :

ارجع لنا ما كان يا دهر في لبنان
كانت لنا احلامنا والمنى
وكان صفو الزمان
ارجع الينا الصاج والجرن والمهباج
وخصبنا في الربى ونورنا في السراج
واسترجع الكهربا
وكاذبات الغنى
يا دهر ارجع لنا
ما كان في لبنان

وهنالك اديب خص القرية بجزء من قلبه ، هو فؤاد سليمان • يقول في قطعته "البلابل الحمراء" ٢) :

" ••• وماذا بعد يا بلبل ؟
ماذا عن ضيعتي البيضاء ، التي تغرق في النور؟
افي منقادك الاحمر حبة من ترابها ؟ حبة واحدة يا بلبل ، القها على شباكي ؟
وهل فيه ورقة خضراء من سنديانتها ؟
وهل مرغت جناحيك باطياب ورودها ونرجسها ؟
ماذا يا بلبل ، عن ضيعتي ؟ "

---

(١) الياس ابو شبكه - الالحان - ص• ٢٤
(٢) فؤاد سليمان - درب القمر - ص• ٢٣

وقام الكثيرون يقابلون بين الطبيعة والحضارة ، بين الطبيعة والمدينـة ، فاذا المدينة فـي نظرهم حافلة بالاثام ، واذا الطبيعة موئل الطهر والجمال • يقول جبران فـي "مواكبه" ١) :

ليس فـي الغابات حـزن لا ، ولا فـيها الهمـوم
فـاذا هـب نسـيم لم تجـئ معه السموم

ويخاطب نعمة الحاج فراشة ، فيدعوها الى مغادرة المدينة العاجة القصور التي "ملأوها، مذ شيدوها، شرورا" ، والى الالتحاق بالطبيعة ٢) :

فاهجري السوق والحمى والاناما واقصدى الروض والربى والخزاما
وانشقي الزهر ضاحكا بساما واذا ما سمعت هـذا الكـلاما
فانقلـي للطـيور ما تسمعـينه

+ +

هذا ما كان من شأن الطبيعة فـي ادبنا الحديث • فبينما كان الشاعر القديم يعرض مظاهر الطبيعة عرضا خارجيا موضوعيا ، او بصور منقة تنم عن صناعة ، افرد الشاعـر الحديث للطبيعة فصولا خاصة بها ، وصور نفسه اذ صورها ، وامتزج بها حتى اصبحا وكأنهما مخلوق واحد • وان دل هذا على شيء ، فهو يدل على ان الفكر الحديث قد انطلق مـن قيود الجمود ، وان الخيال الحديث يسمو الى طرق فـي التعبير جديدة لم يألفها القدماء ، او ، ان الفوها ، فهم لم يتخذوها خطة عامة عندهم بل كانت خطرات تمر فـي ذهن شاعر وما تلبث ان تخبو •

يقول الاستاذ كمبفماير الالماني ١) : " وقد انقسم السائرون بها (النهضة) من حملة الاقلام الى اقسام ثلاثة :

اما الفريق الاول فهو مشبع بالحنين الى القديم وان طرب لبعض بدائع الجديد ...

واما الفريق الثاني فهم يصغون الى موسيقى التطور الادبي في الغرب ثم يوقّعون انغامهم على وتر شرقي ...

اما الفريق الثالث فهم النشء الجديد وهم كعنادب الربيع ، تسمع منهم وهم في صبح الحياة انغام الامال كما ترى فيهم اجمل ابتسامات المستقبل ..."

والواقع ان صاحب هذا الحكم مصيب . فالفريق الاول كان بالفعل مشبعا بالحنين الى القديم . ان ادباء عهد الانتقال ، ادباء عهد مطلع النهضة ، كانوا يحجون الى القديم كلما عدا داعٍ لغوي او ادبي لذلك . فاسلوبهم ليس قديما قديما ، كما انه ليس حديثا : انهم يحافظون في مقدماتهم على الاسلوب المسجع ، كما انهم يحافظون في نصوصهم على مسحة هي الى القديم اقرب . وقد هب اولئك الادباء لقلب اوضاع الفساد في العربية ، وعادوا بذلك الى القديم يتعصبون له ، فلا يسمحون بتجاوز ولو بسيطا على حساب اللغة ٢) . بيد ان هذه الفئة آخذة في الاضمحلال ، مخلّية الطريق امام فئة من الادباء لا يرون حرجا في تسخير بعض القواعد او بعض التعابير احيانا خدمة

---

(١) كمبفماير في : ذكرى فوزي معلوف - ص . ٤٢ - ٤٣

(٢) اصدر احمد فارس الشدياق كتابا في قواعد اللغة عنوانه " غنية الطالب ومنية الراغب " . ويبدو انه ورد في الكتاب بعض ما اعتبره سعيد الخوري الشرتوني خطأ ، فكتب في الرد على الشدياق كتابا سمّاه " السهم الصائب في تخطئة غنية الطالب " ، ومن المآخذ التي اخذها على الشدياق تسميته همزة التعدية اداة ، بينما يرى هو ان تسمى سببا او واسطة ! وهنالك مآخذ كثيرة غيرها ليس هنا مجالها . ثم تصدى لغويان مشهوران لكتاب الشرتوني فكتب الشيخ يوسف الاسير " رد الشهم للسهم " ، وكتب الشيخ ابراهيم الاحدب " رد السهم عن التصويب وابعاده عن مرمى الصواب بالتقريب " . وكلاهما يرجعان الى الاقدمين في اعتراضهم .

لمتطلبات الفكرة ٠

وكما ان هذا الفريق قد امّن للنهضة لغة صحيحة لا يشوبها ضعف او خلل ، فان الاعمال الادبية قامت بنوع خاص على اكتاف الفريق الثاني ، اولئك الذين "يصغون الى موسيقى التطور الادبي في الغرب ثم يوقعون انغامهم على وتر شرقي" ٠٠ اولئك اكتسبوا من فنون الغرب الادبية ما اكتسبوا وراحوا يسكبون عواطفهم وافكارهم ، فنشأت في الادب اللبناني الحديث من جراء ذلك اتجاهات هامة كان لبعض الادباء فيها جولات موفقة٠

ولكن ٠٠٠ هل استطاع ادباء النهضة ان يسيروا بها الى الامام كثيرا ، ام انهم ما يزالون متأخرين عن ركب الادب العالمي ؟ يقول ميخائيل نعيمه ١) : "لكن نهضتنا الادبية لا تزال في الاقمطة ، وما نطقت به حتى اليوم ليس سوى لثغ طفل لا يزال مقيد اللسان ، محدود العواطف ، ضعيف العضل ٠" ولئن صح هذا القول في النهضة عموما ، في اكثر ادب النهضة ، فانه لا يصح في اكثر الاثار التي اوردتها في الفصول الخاصة بالاتجاهات الادبية ٠ بيد ان هذه الاثار ليست سوى نخبة مختارة، كان علي ان انتزع احدها احيانا من ديوان يفوق عدد قصائده المئة ، او من كتاب يتجاوز عدد صفحاته المئات ٠ لذلك لا يمكن ان نحكم على النهضة من خلال هذه الاثار ، ولا يمكننا بالتالي انى نقول ان ادب النهضة قد بلغ مرحلة انسانية اجتماعية متقدمة٠وان ما كان من ادب النهضة في الطليعة هو ذلك الادب الذى خلّفه كتّاب ادركوا معنى الحياة فلم يقفوا عند الترهات ، من لوعة نادبة على حبيب ، الى رقصة هزلية على باب ممدوح ، الى وقفة في ديار الخلاعة ، الى لعبة لفظية يقصد منها ابراز المقدرة بالابهام ، فيبرز الابهام ولا يظهر للمقدرة اثر ٠ اجل ،انه ذلك الادب الانساني الاجتماعي الظى جعل كتّابه بمثابة زعماء ادركوا مواطن النقص فحاولوا الاصلاح ٠ ومن هؤلاء ،ادباء المهجر الذين كان لظروفهم النفسية والمعاشية الخاصة اثر في توجيه ادبهم نحو الحياة ، نحو الانسان، نحو المجتمع ، فبتنا نراهم يحطمون بلا وجل ، وهم ،وان اخطأوا احيانا ، قد اصابوا في الغالب وشقوا امام المقيمين طريق الصراحة٠

+ + + + + + + + + + + +

---

(١) ميخائيل نعيمه ـ الاباء والبنون ـ ص٠ ٤

ومستقبل النهضة ، كيف يكون ؟ ان ادبنا سيتبع ولا شك سنّة التطور ، فيسير الى الاحسن ، لان الحياة تتطلب هذا ، ولان التباشير فيه تدل على هذا . ولكن ... هل يكون سيره زحفا ام وثبا ؟ لا شك في ان هنالك عقبات تعترض النهضة في المستقبل كما تعترضها اليوم . من هذه العقبات ما هو فني ، ومنها ما هو اجتماعي . وما دامت هذه العقبات قائمة بجسارة ، لها من يحميها ، فان النهضة لن تسير بعيدا . وما لم تقم على العقبات ثورة جامحة يشنها الادباء المتحررون لا يرجى لادبنا انطلاق . وقد عبّر عبد الجليل عن متطلبات النهضة بقوله ١) : "ان متطلبات النهضة هي : تدريس العربية بطريقة مسهلة ملينة ، وتشكيل تراث من الالفاظ الفنية الواضحة المتنوعة ، وادخال بعض التحسينات على الابجدية بحيث تصبح القراءة اضبط ، وبذل جهد للتحرر من الرومانطيقية والثرثرة اللتين ما تزالان تلاقيان في اسواق الادب رواجا ."

ووقف البعض ازاء مستقبل النهضة متسائلا متنبئا . يقول شكيب ارسلان ٢) :

"بقي علينا ان ننظر كيف يكون اتجاه الامة العربية في المستقبل من حيث الثقافة! اتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها الى النهاية ، ام تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الاصلية لا تبغي بها بدلا ولا عنها حولا ، ام تأخذ من الثقافتين معا وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية ؟ هذا سؤال يرد كثيرا على خواطر الباحثين ، وكل منهم يذهب في الجواب مذهبا واظن ان ثقافة العرب المستقلة ستكون عصرية آخذة من التجدد باوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي ... لن تكون جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والاضافة اليه ، ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة في التبرؤ منه ... ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد ، مختارة من كل شيء احسنه مع بقاء الصبغة العربية غير المفارقة للعرب ."

وسواء اتجهت الثقافة اللبنانية اتجاها عربيا صرفا ، او اتجهت اتجاها غربيا صرفا ، او اتجهت اتجاها يجمع بين الاتجاهين ، فان الادب ، ادب اليوم ، لا يعرف لونا ، بل يعرف روحا انسانية شاملة واحدة تنبض فيه في اوروبا كما في الشرق وفي

---

(١) Abd-El-Yalil - P. 223

(٢) شكيب ارسلان – ص . ٣٩ – ٤٠

اية بقعة من بقاع الارض. ان الادب الصحيح هو الذى يجعل قلبك ينبض شعورا مع الغير ، فهما كانت لغته ، وانّى كان مصدره . واننا الى هذا الادب لمفتقرون نوعا ، مع وجـــود آثار منه تدل على علو كعب ادبائنا وعلى استعداد نفسي عندهم للتكيف حسب مقتضياته .
واذا اردنا ان نجعل من ادبنا ادبا متقدما واعيا ، فنخدم بذلك العربية كما خدمناها في اول نهضتنا بمدارسنا ومطابعنا وصحفنا وغيرها ، وجب علينا ، لا ان نعقد الفصول فـــي واجبات الشعب تجاه الادب ، او واجبات الحكومة تجاه الادب ، ولا ان ننشىء الجمعيات لتشجيع الادب وللرفق بالاديب ، بل ان نسير بادبنا فـي موكب الحياة ، ان نتقدم موكـب الحياة ، عندنا ، لان الاديب يشعر ويصور ، وهو خصوصا ينير ويقود .

انتهـــى